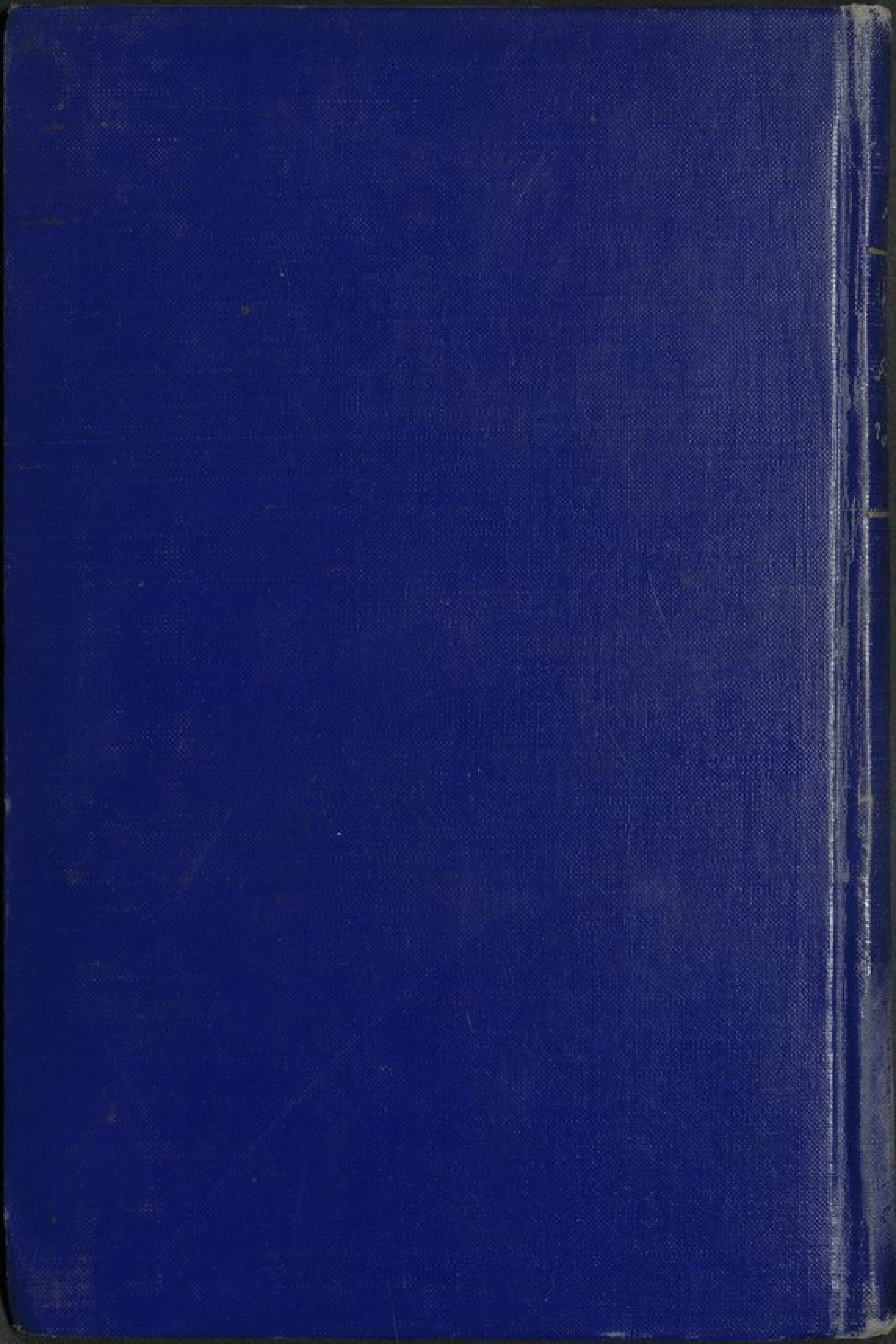
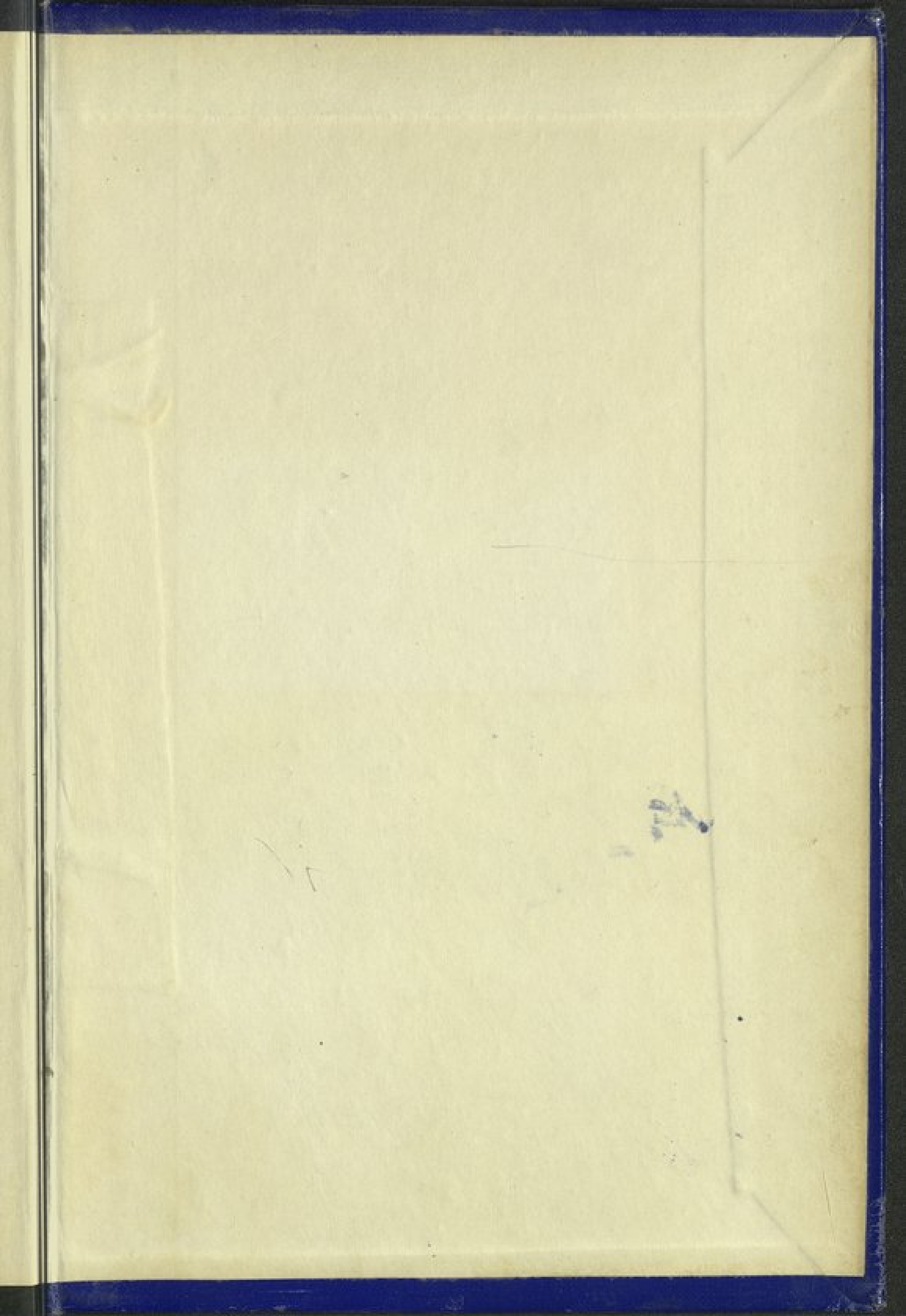
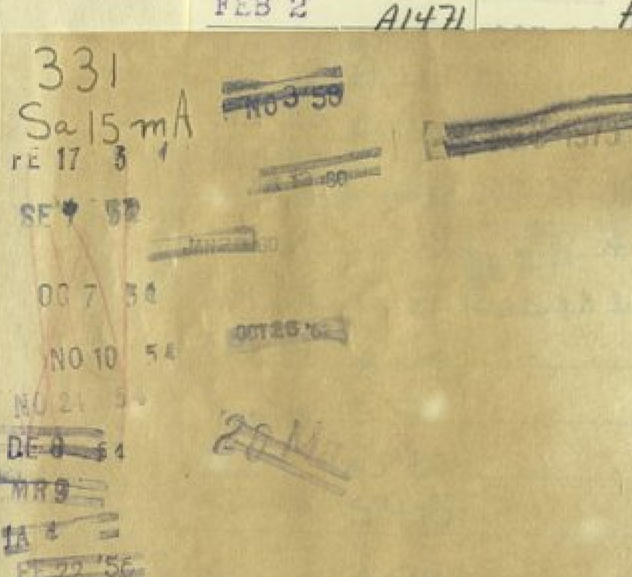
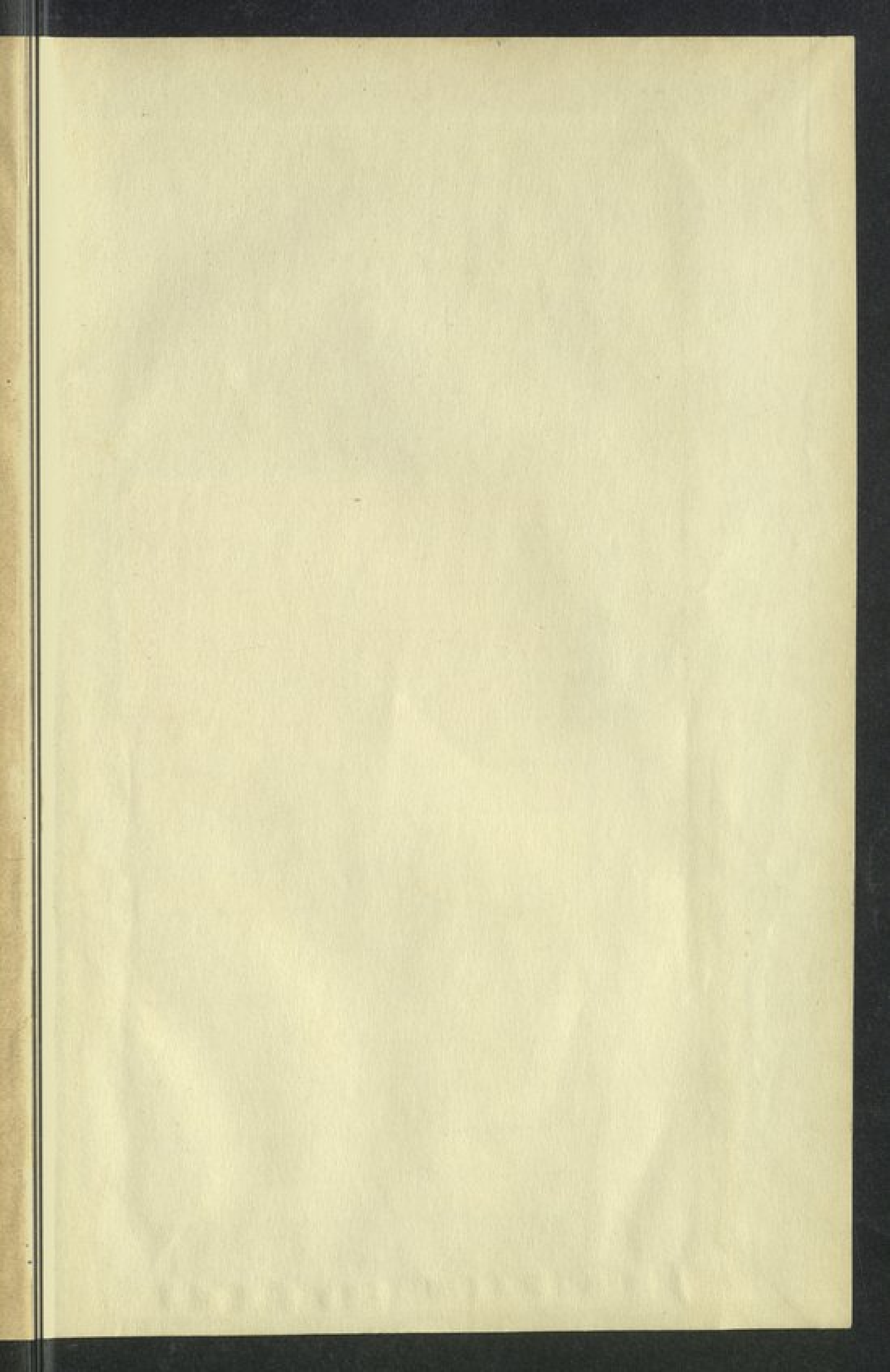
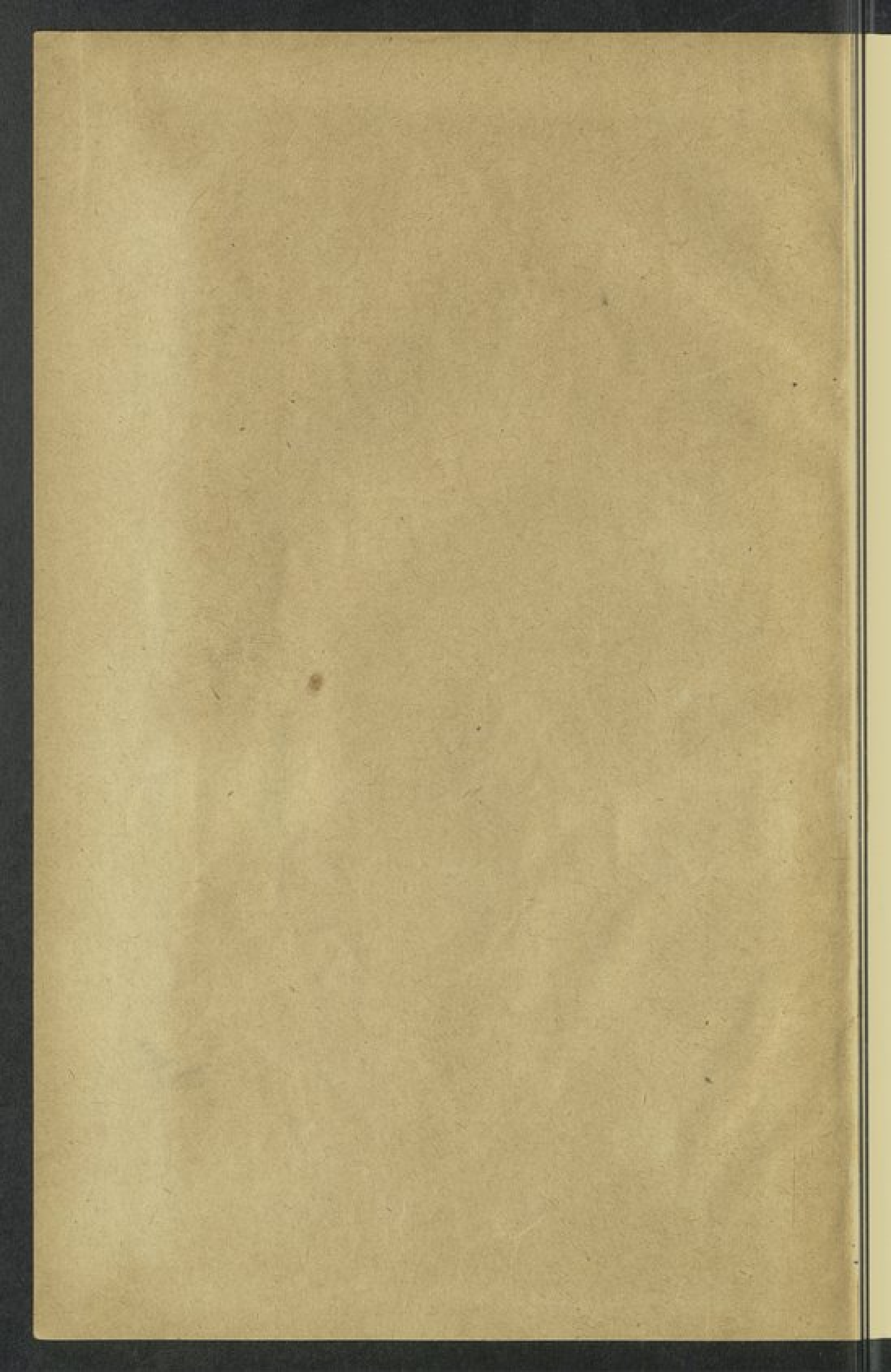
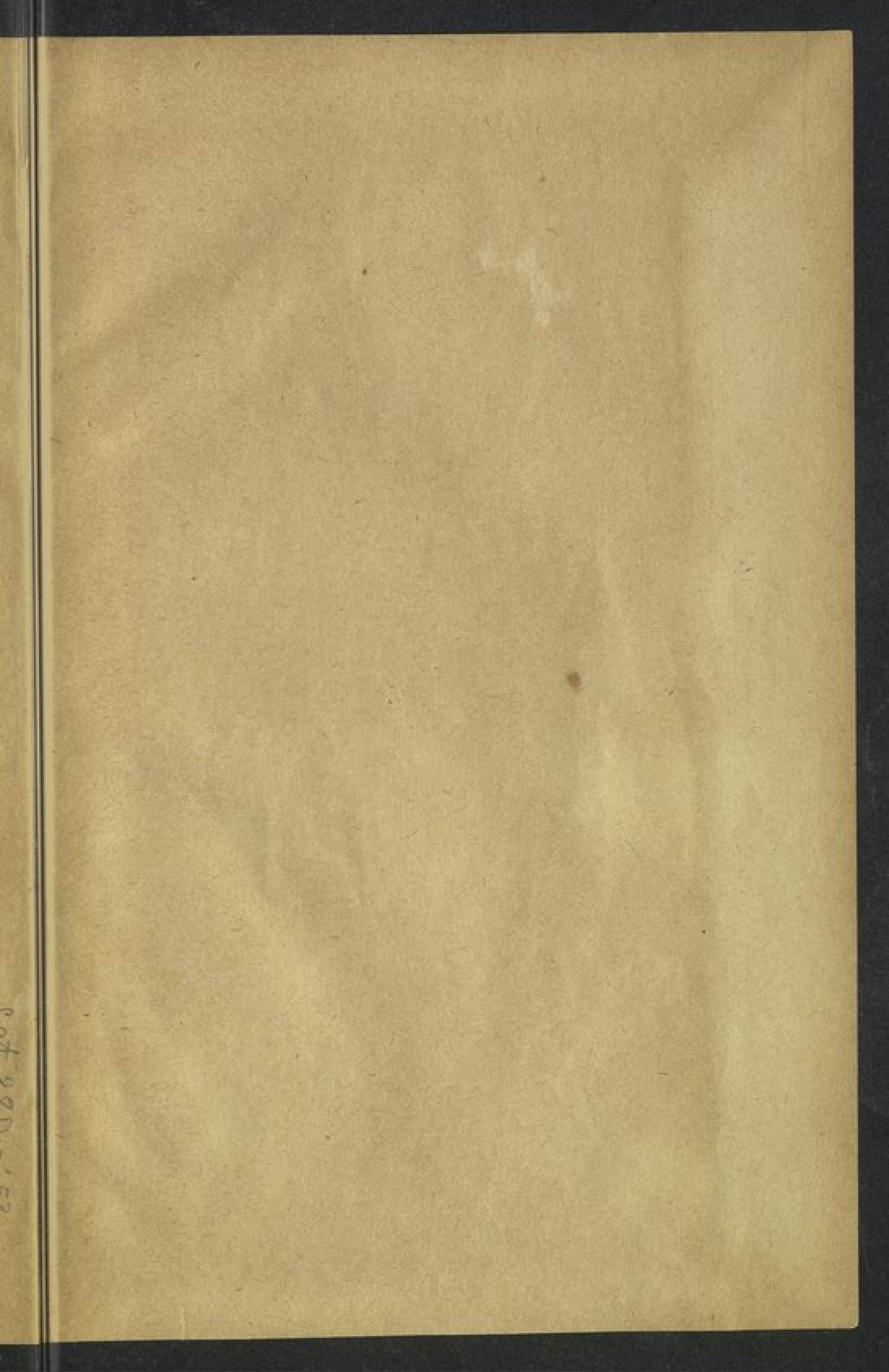





331
Sa 15 mA



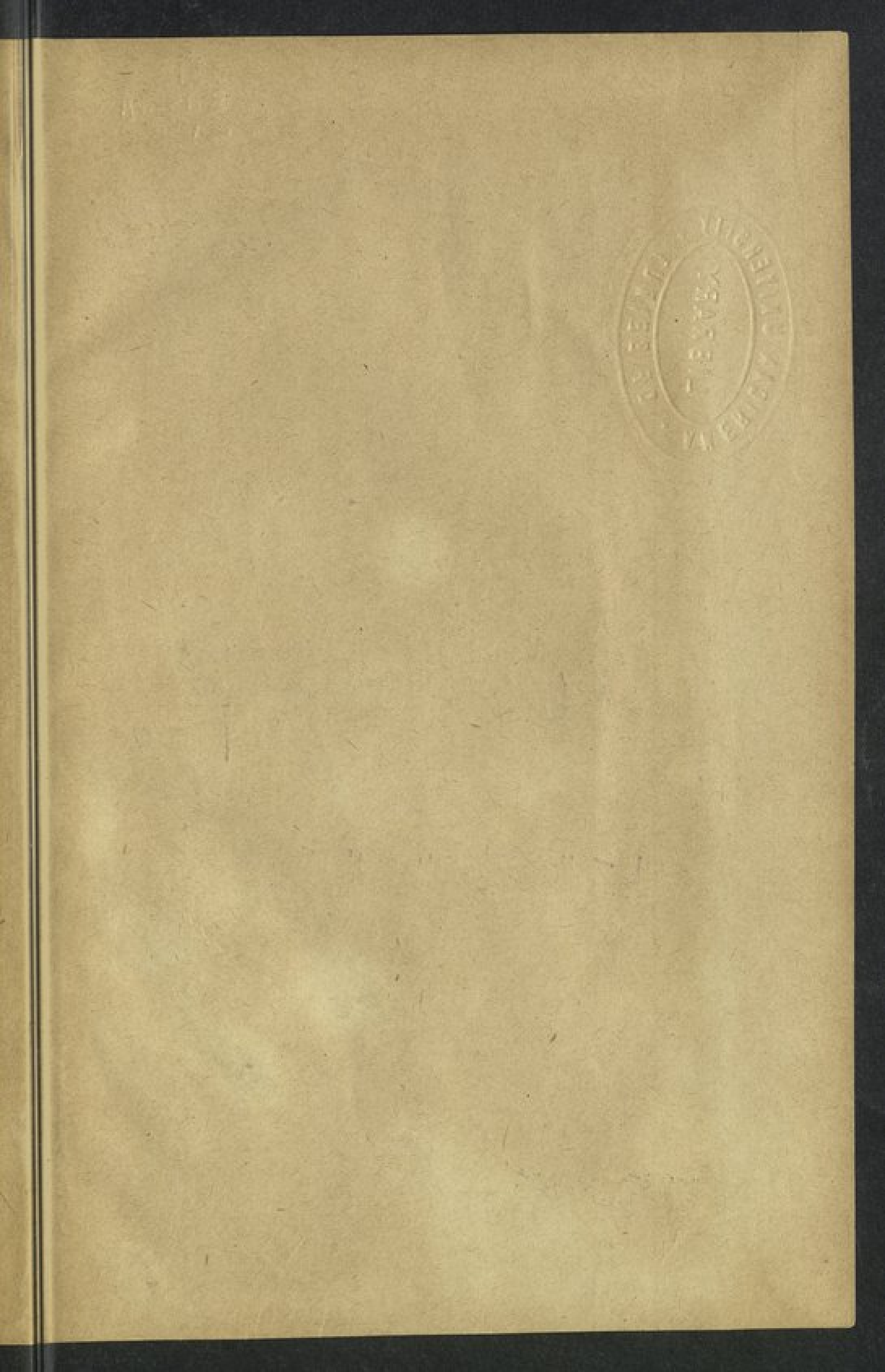




إلياس يوسف صقر

مِمَّ يشكو الناس ؟

مصير العالم رهن مصير العامل



توطئة

لا تطور العالم ولا تقدمه الفني ينبغي لهما ان يفضيا بالمرء الى تناسي معنى مصيره ، فعلى الانسان ان يلج قرارته والا عمي عن ذاته وعن النظر الى عمق مستقره وسعة فكره الذي يسيطر على المادة ويسيرها وان كان بمقدورها ان تسحقه سحقاً على حد قول باسكال .

ومن الواجب ان يؤدي تطور العالم الى تحرير الانسان – لا من اخيه الانسان طبعاً لان صلات البشر وتعلق بعضهم ببعض آخذان دائماً بالازدياد – بل من المادة .

وانه لمن العبث التفكير بقيام مجتمع من دون طبقات كما انه من الوهم الاعتقاد ان ثمة مجتمعاً قد خلا من الغصص والآلام لان كليهما النسيج الذي حيكت من خيوطه حريتنا التي نرومها راسخة عظيمة .

اجل ينبغي لتطور العالم ان يحمل الى الانسان تحرره من المادة التي اذا ما اصطنعتها يده كادت تسيطر على نفسه لتشده الى ارض وان كانت طائرة فانها لا تعدو عن ان تظل ارضاً وتراباً .

بله ان المرء لتواق بجميع جوارحه ، بروحه وارادته وكل كيانه الفكري والادبي الى ايجاد وحدته التي لا تتمم بالمادة .

وفي عالم تفوقت فيه نخاصة الكمية قد ارجع التقدم الاقتصادي والانتاج الانسان الى نكرة نكراء بدلا من ان يجعلاه شاعراً بالقيم الفكرية .

والظاهر ان التطور العالمي قد حمل الدولة على ان تمسك بخطام جميع الشؤون وتخضع كل امر لتقدم الانتاج من دون ان تفكر بأن لها مهمة

اخرى مقدسة ألا وهي تثقيف الشخص الانساني لتعمل كل ما يسعها ان تعمله لتسهل عليه توثيق اركانه ليكون شخيصاً أبداً .

ايه لم يأت التقدم في جميع اشكاله بالعلاج لغصص الانسان ، فالنظرية التفاؤلية : نشب جماعة « الانسيكلوبيدية » التي عززتها آراء القائلين : « دع الامور تجري في اعنتها فليس بالامكان ابـــدع مما كان » وتعاليم ذوي المذهب الاقتصادي الحر تحمل على الاعتقاد « ان التقدم محتوم » هذا التقدم الذي اسفر في النتيجة عن تلك الاطمار البالية التي وصفها اناس عـــلى شاكلة بوره « Buret » وفيلارمه « Villermé » وفيلنوف دبارجمون «Ville-neuve de Bargemont » في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

اجل انها تلك الاوضاع الباعثة على الاسى التي ارغمت الصغار على البقاء من ١٢ الى ١٤ ساعـة في جحيم ليحملوا منها بضع دريهات لذويهم . . . ليجعلوا منهم ما استطاعوا ان يجعلوا : مدمني خمرة واباحيين واوهمين جنة المملقين .

والى جانب ذلك كانت الثروة المتضخمة وعلى طرفي نقيض منها اسمال البائسين فنشأت من جراء هذا التناقض الماركسية وحل الكادحون محـل اقنان العهود البائدة .

اجل لقد تبدلت الاوضاع التبديل كله وتحسنت شروط العمل تحسيناً لا بأس به . اما العامل فما برح يضرع الى السماء طالباً الانصاف والعدل قبل ان يطوقه ارباب الاعمال باحساناتهم .

ولقد كانت البراءات الحبرية لمثل هـذه المناسبة تحمل النور الضروري وعناصر التفكير الكافية الى ذوي الارادة الحسنة الذين لا يرغبون في

ان يفقد عالمنا صورته الانسانية وتعرضها على نياتهم الحسنة وافئدتهم .

نعم ليس من الطبيعي ان يفقد الانسان الحر العاقل افضل ما لديه في الآلة لان التقدم المستجب عليه ان يخوله الانصراف الى اعمال اشد مماشاة لطبيعته .

وثمـة ذلة ما برحت مكتومة الا وهي ان يجهل الانسان الغاية من عمله وان يظل في جملة من لا يُعتد بهم .

بجل انها البراءات الحبرية التي توضح صراحة الانسجام الاساسي بين مقتضيات الانتاج الاقتصادي بأدلة العقل الطبيعية وبحسب آراء الكنيسة . اما البخل واما الصلف واما الجشع فقد كانت دائماً الحوائل دون تنفيذ هذه المبادىء .

هذا ما اوضحه مؤلف الاستاذ الياس يوسف صقر الذي اطلعت بعناية عليه فقد وضع نصب اعيننا المأساة الاليمة مأساة المادة والفكر والصراع الذي لا ينتهي بين رأس المال واليد العاملة ،

ولم يشاء المؤلف في كتابه التاريخي ان يلفظ حكمه ليدع القول الفصل للبراءات الحبرية التي اثارت الشبهة وقالت بمعزل عن تضارب الافكار واختلاف المناهج والمتناقضات كلمتها الواحدة معلنة الحقيقة لانها انعكاس الحقيقة المتجسدة .

واننا لمفتقرون في لبنان والبلدان العربية الى مؤلف يسد الثلمة وها هوذا كتاب الاستاذ صقر يرّم هذا الخلل .

ومن المفيد الى جانب التطور في جميع البلدان العربية ان يكون تحت نظر المسؤولين المستندات التي تهديهم في مقرراتهم وتوضح الاخطاء والمشاريع العملية النافعة التي ملأت تاريخ المعضلة الاجتماعية .

ولئن تمنينا امراً فاننا نتمنى رواجاً واسعاً لهذا الكتاب وان يقتنيه طلاب مدارسنا واساتذتها وجميع الذين يعنون بالمصلحة العامة أي كل من يشعر بمسؤولياته .

الاب اغناطيوس عبدو خليفة اليسوعي
مدير مجلة المشرق

١٨ ايار سنة ١٩٥٣



ملحوظات لا بد منها

ليس بين افراد البشر فرد واحد لا يشعر بما تقيمه المسألة الاجتماعية في وجهه من عراقيل.

وينبغي للانسان ان يكون اصم اعمى لكي لا يرى ويطرق مسامعه انّى توّجه وكيفما سار الضجة التي تثيرها العقود بين اصحاب الاعمال والعمال سواء أكانت عقوداً فردية ام جماعية.

ولا شك في ان الذي يتعامى عما يثار من اضطرابات وينشب من منازعات بين ذوي الاعمال والمعاهد والملتزمين وبين اصحاب رؤوس الاموال هو عائش في برج عاجي او في احد قصور الجان الشعرية ...

والا كيف يستطيع ان يغمض العين عن الحكم والقوانين التي كانت في سبيل وضع حد فاصل في هذه الامور ليرد الحقّ الى نصابه والعدل الى مستواه النسبي .. فما هي الآن هذه الحوادث ؟ وما سببها ؟ وماذا يبغي الناس من ورائها ؟

أوَ لا نرى هذه المنظمات العمالية العديدة والجمعيات الشتيتة التي يزعم رجالها ان رائدهم تبني مبادىء العدل والانصاف وانهم من انصار العامل والمزارع والصانع والمعلم لانهم مظلومون قد حل الحيف بساحتهم ويعمل كل منها مستقلاً كل الاستقلال عن غيرها وقد اتفقت جميعها في الظاهر على التضامن مع العامل لتشد ازره! فما هي هذه الفئات ؟ وما هو شعارها الحقيقي ؟ وما الراية التي تسير تحتها ؟

ان جميع هذه المنظمات لتدعونا الى اعتناق المبادىء التي تقول بهـــا وتغرينا بصحة مثلها العليا وتحاول ان تحملنا على الائتمام بهديها من اشدها تمسكاً باللون الوطني الى ابعدها عن الاخذ بالمبادىء القومية .

ولا تتهاون اية جماعة منها ايما تهاون في ان تعرض عليك وعلي مبادئها بشكل مغرٍ جذاب يخيل اليك والي في آن واحد ان مبادئها هي المبادىء المثلى التي لا يعتريها الباطل !

فالى اية ناحية يجدر بنا ان ننحاز وبأي مبدإ يصح لنا ان ندين ؟

وما اكثر النظريات التي تعترضنا وبعضها ينقض بعضاً . من مـذهب اقتصادي حر الى اشتراكي وما يتفرع عـنه كشيوعي وتعاوني . . . الخ فما هي الناحية التي نرغب في الانضمام اليها ؟ وما هو المبدأ الذي يروق لنا ان نعتنقه ؟

ولقد درج الناس عادة في كل مكان على ان يأخذوا بالرأي الذي تدعو اليه جريدتهم او مجلتهم او النشرة التي اعتادوا قراءتها غالباً ! او على ان يأخذوا بالرأي الذي يماشي مصلحتهم او مصلحة طبقتهم وعلى ان يدينوا بالمذهب الذي يتفق وميولهم وتـدفعهم الى الاخذ بـه ِ تأثيراتهـم الآنـية الموقتة ! فهل هم مصيبون ام مخطئون في عملهم ؟ ليست المذاهب والنظريات والاراء على تعددها وتباينها الا من بنات الاهواء والدعوات السياسية التي تتوخى توجيه اعظم عدد من البشر وتستهويهم البهاولو مهما بدت لي ولك انها هي الحقيقة بعينها اما اذا ما مُحصّت على ضوء المنطق الصحيح فتتبدد الشوايب التي تنطوي عليها ومدى انحرافها عن الغاية المثلى المنشودة .

فحيال تضارب هذه الاراء والاساليب والمناهج التي تدّعي جميعها انها قد اوجدت العلاج الناجع للقضية الاجتماعية وانها الطريق السوي الوحـيدة لتأمين حياة العامل والصانع والزارع وصاحب الحرفة تأميـناً قوامه حقهم

الطبيعي فيها لا نرى لنا مندوحة عن عرض اهمّ هذه المذاهب وبيان ما فيها من انحراف عن جادة العدل والانصاف .

* * *

وبعد الالماع الى هذه الوقائع الماعا مقتضباً كل الاقتضاب واستشعار الحالة الراهنة استشعاراً بعيداً عن الهوس والهوى قد اتخذنا على عاتقنا تمحيص جملة هذه التعاليم التي تدعونا الى اعتناقها عسانا ان نوفق الى بيان وجه الصواب في كل منها ومبلغ ما فيها من سداد بالنسبة الى ما هو قائم والى ما يلاقيه البشر في اعمالهم اليومية من تجاوز على حقوقهم الطبيعية التي كانت منذ ما كانوا ولم يحرمهم التمتع بها الا جبروت القوي وغطرسة الجائر والقوانين المنبثقة من مشيئة الطبقة المسيطرة التي استخدمتهم بما سنته لهم من انظمة في سبيل تأمين مصالحها وتحقيق رفاهيتها على انقاض بأسا المجموع .

ا — ما هي القضية الاجتماعية

١ — فكرتها العامة وتعريفها تعريفاً جلياً واضحاً .

ب — شدة وطأة المصاعب الاجتماعية .

٢ — الحلول المختلفة التي يزعم كل مذهب انها منطبقة على العدل والحقوق الطبيعية

أ — انحراف المذهب الاقتصادي الحر عن جادة الحق وما فيه من اخطاء .

ب — الاشتراكية وما يتفرع عنها ومواعيدها الخلب .

ج — القضية الاجتماعية في الميزان الاخلاقي الادبي .

الفكرة التي نأتم بها في بحثنا

لقد عاهدنا النفس على ان نبيّن بالادلة والبراهين الوافية ما يقوم بين

المذهبين الاقتصادي الحر « مذهب المحافظين » والاشتراكي الشيوعي « مذهب اليساريين » من هوة عميقة تفصل بينهما وتمنعهما الاجتماع على صعيد واحد وان نشير الى ان ثمت طريقاً فسيحة امينة تبلغ البشر غايتهم المنشودة لانها مجردة عن الاهواء والميول وبعيدة عن الاثرة «الانانية» والمصالح الشخصية .

« ومما لا ريب فيه ان المذهبين الاقتصادي الحر والاشتراكي الشيوعى يصدران عن بعض النقاط المشتركة لان كليهما يستند الى الفلسفة المادية . فمن المستحيل علينا ان نصرف النظر عن مفهوميهما اللذين تبنتهما كتلتان متنابذتان لان طائفة المحافظين اولي المذهب الحر ولان اصحاب المذهب الشيوعي الاشتراكي او طائفة المتقضين لا يقيمان وزنا للانسان ولا يأبهان لكرامته بصفة كونه انسانا فكلاهما يصدر من الناحية التاريخية عن مفهوم خاطيء » .

ان المذهب الاول او مذهب القرن التاسع عشر لم يكن سوى ردة فعل على مذهب الحماية الاقتصادية اما الثاني فكان ردة فعل ايضاً على الاول ولمجرد قولنا ردة فعل نعترف اعترافاً ضمنياً بان حافزهما قد كان العنف .

ولئن شاء احدهما الخروج من المأزق الذي كان فيه فقد قفز واثباً من جانب الهوة التي كانت تفصل بينه وبين الجادة فاذا به يتخطى الطريق الى جانبها الاخر اما المذهب الشيوعي فيقوم خطأه على كونه يفضي مباشرة الى تناحر الطبقات اي الى الثورة الاهلية .

ولا مفر لنا في الساعة القائمة عن ان نرانا امام هذين المذهبين : الاقتصادي الحر والشيوعي الداعي الى تناحر الطبقات وكلاهما يتجاوز على كرامة الفرد بوصفه انساناً فلذلك لا نملك النفس عن محاولة تبني نظام التجرد عن الاثرة « الانانية » الجامحة وسن القوانين وايقافها على خدمة الانسان في سبيل المصلحة العامة من دون ان يستند في جوهره الى فكرة النزاع

الطبقي ليتوخى العدل ضمن نطاق الحرية الصحيحة وسيادة التحابب بين الناس عن طريق اصلاح الاخلاق والعادات واقناع الانسان اقناعاً داخلياً بصحة تعاليمه .

ولئن انتبذنا تعاليم المذهب الاقتصادي الحر فاننا لننتبذ في الوقت نفسه انجيل المركسية لنأخذ بالتعاليم الصحيحة التي تؤدي بالمجتمع الى الطمأنينة والاستقرار .

فاليكم يا بني امي الحريصين على مستقبل اولادكم وحفدتكم ويهمكم ان تؤمنوا لهم حياة ينعمون فيها بمزايا التآخي الصحيح ويتذوقون قيمة الحرية الحقيقية ليقتربوا من المثل الاسمى المنشود ما استطاعوا سبيلا الى ذلك قد حاولت على قدر الامكان ان اضع بين ايديكم هذا الكتيب عساه ان يمهد امامنا سبيل تحقيق الكثير من المآتي الاجتماعية فلبي بهذا العمل داعي الوجدان وواجباته ، وفي سبيل تحقيق المآتي الاجتماعية وتعميم فكرتها لا مندوحة لنا عن ان نلقي في الاذهان عن طريق الدراسة الصحيحة ماهية المعضلات الاجتماعية على ضوء المبادىء القويمة ووضع التعاليم البريئة من شوايب النزعات والهوس اما اذا كان بعض النّاس قد بهرتهم في هذا الباب زخرفة القول وخدعهم تنميق الكلام واغرتهم الوعود البرّاقة فلا يقع الذنب في ذلك على عواتقهم ولكنهم معذورون بسبب جهلهم قيمة هذه التعاليم في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي.

وتجاه هذه الامور الواقعية من الواجب تعميم التعاليم الاجتماعية في كل طبقات الامة وتثقيفها تثقيفاً يخوّلها تمييز الغث من السمين في هذا الباب وذلك بالنسبة الى مستوى كل طبقة منها ولاسيما طائفة العمال التي يهمها الامر اكثر من غيرها والتي ربما كانت اوضاعها من الحوافز التي تحملها على اعتناق المبدإ الذي يجبهها للوهلة الاولى .

ولقد عاهدنا النفس على ان نزيل كل غموض يساور العقول في هذا

الشأن وتنويرها تنويراً بعيداً عن الاهواء المنحرفة لتنجز وجائبها الحيوية وتجد الطريق السوي كما يستدعي الوجدان فتحارب الشذوذ الطامي سيله في مضامير العمل والصناعة والمهنة والحرفة والتجارة والاستخدام ليقلع العامل عن الغش والصانع عن التزييف وذوي المهن والحرف عن الخداع فلا يبيع الصيدلي الكلس بدلاً من الكينا والحلاب الماء بدلاً من الحليب... متقيدين بوزائع العدل ونواميس التآخي الانساني ».

ا — ماهية المعضلة الاجتماعية

الفكرة العامة — تعريف المصلحة الاجتماعية تعريفاً جلياً

١ — المعضلة الاجتماعية هي مجموعة المشاكل القائمة في علاقات البشر بعضهم ببعض بصفة كونهم يعيشون كامة : فهي تتناول جميع الصعوبات التي تصادفها العيلة وتصطدم بها الحرفة والمهنة والدولة والامة والانسانية كلها جمعاء.

يرى الانسان النور في احضان العيلة « معضلة العيلة ».ويؤمن حياته عادة بواسطة الحرفة او المهنة « معضلة المهنة او الحرفة ». وينتمي الى امة او دولة « المعضلة السياسية ».وهو احد اعضاء الانسانية « المعضلة الانسانية ».

نعم لم يخلق الانسان ليعيش لوحده ولذلك لا يستطيع الادعاء انه لا يفتقر الى احد ولو اعتصم في قلل الجبال او مخر اليمّ منفرداً في زورق بقلب المياه...

ومما لا سبيل للريبة فيه هو اننا قد نتجاوز احياناً على حقوق غيرنا فنضرّ به وربما اتفق لنا ان عانينا نتائج بعض الاعمال الاجتماعية وتحملنا ما فيها من جور وسيئات واجحاف كارتفاع الاسعار الناجمة مثلاً عن مضاربات التجار او احدى نتائج الاضرابات التي تشلّ الحياة العامة بما تحدثه من فوضى فيها... الخ .

فماذ نستطيع ان نستنبط من مثل هذه الاعمال ؟ اننا نستنتج انه لا نستطيع ان نحيا في سبيل مصلحتنا فقط واشباع اثرتنا وجشعنا وحدهما ! بل من واجب كل منا الا يتجاوز على حقوق غيره ليضر به ولذلك لا بد للمرء من ان يجعل رائده العدل وهدفه الاخاء في علاقاته بغيره .

وفي مثل هـــذا المقام تتجلى لنا القضية الاجتماعية برمتها : اي درس الحقوق والواجبات التي تنجم عن حياتنا في المجتمع .

٢ – في سبيل الاستزادة من الايضاح لا بد لنـا من القول ان عبارة « القضية الاجتماعيـة » لقد اتخذت في الوقت الحاضر معنى ضيقاً لتدل على مجموعة المشاكل المتعلقة **بالعمل الانساني** والى طبيعتـــه وما يترتب له من حقوق وما عليه من واجبات ولاسيما قضية العامل المأجور وصاحب العمل او رب المصنع بعد ان اتسع نطاق الآليات وتعاظم الفيضان في الانتاج – اما مشاكل العيلة والمهنة والسياسة والانسانية فلن نضرب عنها صفحاً لنهمل ولو الاشارة اليها .

والقضية الاجتماعيـــة التي ننظر فيها من هذه الناحية ليست الا دراسة العلاقات القائمة بين اصحاب الاعمال ومأجوريهم في سبيل تنظيم حياة ذوي الاعمال المهنية ومستخدميهم سعياً وراء ايجاد معالم ثابتة نتفادى بواسطتهـــا عن الاضرار برأس المال وبالعمل .

ولئن ادركنا القضية الاجتماعيـة على هذه الصورة فاننا لندركها قبل كل امر اخر انها ليست قضية اقتصادية او سياسية وانما هي قضية اخلاقية في الدرجة الاولى .

ومما قاله البابا لاوون الثالث عشر في رسالته الرعائية (Graves de Communi) في هذا الصـــدد « يعتقد بعضهم ويذهب اعتقادهم منتشراً بين الناس ان

القضية الاجتماعية ليست الا معضلة اقتصادية اما الواقع فعلى العكس مما يزعمون فهي قبل كل امر اخر قضية اخلاقية دينية ولهذا السبب ينبغي لها ان تحلّ خاصة وفق قواعد الاخلاق والدين »

وبالحقيقة ليست القضية الاجتماعيـــة مسألة النقود الموضوعة في متناول رجال الاعمال فقط ولكنها امر انساني فنحن لا نشتغل لانتاج الثروات المادية وتكديس الارباح فحسب وانما لتأمين وسائل العيش : ان المنازعات التي تنشب بين اصحاب الاعمال ومأجوريهم لا تتوقف على امر العقد بينهم ولا على قضية التشريع بل هي حالة من حالات الوجدان التي قد تثير احياناً اموراً دقيقة لا بد من دراستها دراسة عميقة لايجاد حل لها ضمن نطاق العدل والمحبة. وذلك ما حمل البابا بيوس العاشر على القول في رسالته « Singulaci quadam » « ان القضية الاجتماعية وما اثير من مجادلات حول طبيعة العمل ومدته وحول تحديد الاجرة ليست من الامور الاقتصادية المحض ولا يمكن ان نجد حلا لها خارجاً عن سلطان الكنيسة » .

ومما قاله القديس توما في هذا الباب « من الوجب ان ينظم علاقات البشر بعضهم ببعض في آن واحد العدل والناموس الطبيعي والمحبة والفضيلة الفائقة الطبيعة اما العدل فتنجم عنه موجبات حقوقية تفرض السلطة العامة تنفيذها اما المحبة فينجم عنها واجب ادبي لا يمكن ملاحقته امام محاكم البشر وانما سنقدم حساباً عنه امام محكمة الديان . « Chenou » « Le rôle de l'Eglise » p. 225 ومما لا ريب فيه ان المذاهب الاقتصادية برمتها ترتكب خطأ فاحشاً باعتبارها القضية الاجتماعية كمعضلة اقتصادية محض او كنضال طبقي فقط لانه من المستحيل بالاستناد الى هذه المفاهيم تجنيب البشر مساوي وويلات هذه المذاهب فكل بناء اجتماعي لا تستند مبادؤه الى العدل والمحبة والاهتمام بالمصلحة العامة مقضيّ عليه بالاخفاق .

وصفوة القول ان العدل وحده لا يكفي لحفظ الوئام والسلام بين البشر ان لم يسد بينهم التآخي بالمحبة .

ب – خطورة تأزم الاوضاع الاجتماعية .

ليست المنازعات الآخذ بعضها برقاب بعض منذ سنة ١٩٣٦ حتى الان الا دليلا صريحا على خطورة الاوضاع الاجتماعية او بالاحرى قل هي الضائقة الاقتصادية التي طما سيلها – طبعاً هنالك بعض المحظوظين – في جميع ارجاء المعمورة وبخاصة في الشرقين الاوسط والادنى حيث باتت الحكومات اشبه بشركات تجارية مغفلة .

اجل انها لأزمة خطيرة قد تأصلت جذورها وكادت تتناول العالم بأسره لتزعزع اركانه الاقتصادية وهي اشد خطورة مما يتوهم بعضهم وهم الذين يعتقدون ان الشعب اذا ما اعوزه الخبز استغنى عنه « بالبسكوت »

واذا كان الاقتصاديون يتوقعون نشوب ازمات دورية في الماضي ويتخذون الحيطة سلفا لتلافيها فقد عمدت النازية والفاشستية قبل الحرب الاخيرة الى تجنيب بلديها البطالة بان اوجدت فيهما الصناعات الحربية والان لا نرى البشر يسيرون على غير اثرهما لاستغراق اليد العاملة في جميع البلدان على رغم تدخل الحكومات في توجيه الاقتصاديات ووضع برامج تنسيق منتجات كل امة من الامم التي انشطرت الى معسكرين تنسيقاً رائده الرئيسي تعزيز اكتفاء كل بلاد اكتفاء اقتصادياً .

فما هي اذن الاسباب الرئيسية للضائقة الاقتصادية ؟ ومـــا هي ميزاتها الخاصة ؟

ا – لا يعود تاريخ المصاعب والآلام التي ينوء تحتها المجتمع الاقتصادي

اليوم ولا سيما عالم العمل « المتاعب التي يفصح عنها التناقض الآخذ بالازدياد يوماً فيوماً بين رأس المال والعمل وبين ارباب المصانع والعمال وبين الملاكين وطائفة الشغيلة » الى ساعتنا الحاضرة .

والذي لا شك فيه ان القضية الاجتماعية لم تبدأ فجأة في القرن العشرين وانما قد كانت على ممر العصور وفي كل مكان « فهي قضية الاغنياء والفقراء الدائمة » ولكنها اخذت تتأزم منذ نهاية القرن التاسع عشر لاسباب عدة .

١ ــ الاسباب الاخلاقية الناجمة عن تراخي القواعد الادبية .

٢ ــ الاسباب السياسية وليدة المساواة المدنية التي افضت الى ايقاظ الرغبة في المساواة الاقتصادية .

٣ ــ الاسباب الاقتصادية وهي التي سنعيرها اهتمامنا في هذه الدراسة اكثر من سواها .

ومما لا يختلف فيه اثنان هو اننا نعيش اليوم في فترة انتقال من طور الى طور . وقد اصبح البشر يتحدثون عن احتضار العهد القديم الآخذ بالانهيار وعن انبثاق فجر نظام جديد آخذ بالتكوين ، حتى اصبح لزاماً على البشر بذل مجهودات جبارة شاقة لتطبيق حياتهم عليه . فلو كان ابناء يومنا من الذين شهدوا دور الانتقال في القرن الثالث عشر بعد ان حل نظام الجمعيات التعاونية محل النظام الاقطاعي او في القرن السابع عشر لما كانوا عرضة لمكابدة مثل مصاعبهم الان ولا الى مصادفة كل ما يصادفونه اليوم من عقبات لتأمين مستلزمات معيشتهم .

وانا لنجهل فيما اذا كان من حسن حظنا او من نكده ان نمر بعهد تقوم فيه مثل هذه المصائب ! واننا لا نعلم اذا كان من واجبنا ان نبتهج

له ام ان نرتدي لباس الحزن عليها ، وعلى كل لا مندوحة لنا عن ان نكون واقعيين لنمهد الطريق امام ذرياتنا المقبلة !

الاكتشافات والاختراعات

لقد اعترى العالم الاقتصادي منذ قرن ونيف تبديل غريب في بابه واستحدث فيه من المستحدثات في غضون مئة عام وبعض الاعوام اكثر مما تطور في اثناء الوف السنين . اجل لقد ظلت المنتجات تتبع طريق التدرج الطبيعي حتى القرن الماضي وحسبنا الاعتبار بالمنسوجات الفينيقية التي اكتشفها التنقيب لنراها انها قلما تختلف عنها في نهاية القرن الثامن عشر اي الى العهد الذي ظهرت فيه اداة الحياطة الميكانيكية لتبدل فوراً جميع اساليب النسيج القديمة وتقلبها بطنا لظهر .

وفي سنة ١٨٨٠ كان يفتقر المسافر من بيروت الى دمشق الى ان تستغرق رحلته ثلاثة ايام بعربة « الديليجانس » اما اليوم فالمنتقل من نيويورك الى طوكيو بالطائرة فلا يقتضي له مثل هذا الوقت .

اجل انها الاكتشافات والاختراعات التي بدلت فجاة اوضاع الحياة الحديثة لتجعلنا في منعطف كبير من المنعطفات التاريخية !

لقد اوجد البخار المصنع الكبير الذي قضى على ذلك المعمل العيلي الصغير فكان لوجوده ردة فعل كبرى من الناحيتين الاخلاقية والاجتماعية لانه قطع ما كان يقوم بين صاحبه وبين العامل من علائق الالفة الاهلية. فحل محله المصنع الهائل فاصبح لا سبيل للعامل فيه لكي يتعرف برب العمل الا بواسطة التقيد بانظمة جافة جامدة تستوجب اتيان عدة مراسيم تبدأ من الموظف الصغير لتمر بعدد عديد من ذوي المراتب الذين يتلو بعضهم بعضاً بالتدرج .

٢ - الكهرباء - وضعت الكهرباء مع الفحم الابيض قوات احتياطية لا ينضب لها معين في متناول الصناعة واستطاع البشر ان يتصل بعضهم ببعض بواسطة الهاتف واللاسلكي باقل من لمح البصر ولو كانوا في انأى الاقطار العالمية فغدت الصفقة المالية المعقودة في نيورك تحدث ردات افعالها في اسواق لندن وباريس وبيروت ودمشق وطوكيو بعد بضع دقائق فقط من عقدها حتى باتت الحياة في كرتنا الارضية اشبه بالخيال منها بالحقيقة .

٣ - وسائل النقل - لقد قضي على المواصلات القديمة بواسطة القطر الحديدية والسيارة والطائرة فزالت التخوم الوطنية وحلّت محلها الحياة الاقتصادية الدولية وذلك قبل ان يتمكن الناس من اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتفادي ردات افعال هذا الانتقال المفاجيء .

وقبل هذا التطور الذي سار ويسير بخطى الجبابرة كانت المنافسة التجارية تقوم بين البلدان المجاورة اما الآن فغدا البرتقال الذي تنتجه طرابلس وصيدا وانطلياس يتناوله الاوربي والاميركي على مائدتها بعد بضع ساعات من قطافه وباتت المنتجات التي تخرجها المصانع الانكليزية والاميركية يرتديها السوري والهندي والصيني واغنياء افريقية فوراً بعد خروجها من معاملها .

وقديماً كان صانع الاحذية يجهز جزءاً من حيّه او يجهز قريته الصغيرة برمتها اما اليوم فاصبحت مصانع باتا وحدها تقوى على تجهيز العالم كله باحذيتها .

فعند اي حد سيقف هذا التقدم العلمي ؟ واذا كان يخيل لبعضهم ان هذا التقدم قد كان آفة على البشر ففي الواقع ان هذه الاشواط التي قطعها الناس في مضامير التقدم والارتقاء ليست ضرراً بحد ذاتها . اما من لا يرى في نزول الاليات الى ميادين الصناعة واسواق العمل عوامل جديدة تفضي الى استعباد الانسان من جديد فانه يتعامى عن الحقيقة لكي لا يأخذ

الاحتياطات الكافية للمحافظة على الحرية الفردية !

ومن المؤكد ان تجهيز الصناعات بالاليات قد ادى الى هـــذا التنافس الجهنمي تنافساً كان وقعه اشد فتكا من قنابل المدافع .

ولئن شئنا في مثل هذا المقام عدم شجب الالة فلا نستطيع في الوقت نفسه ان ننظر الى الامر الواقع الا بعين الجزع لنهتم له ولاسيما بعد ان ادى اتقان الاليات الى اثارة معضلات جدية : كتدني قيمة مقدرة الانسان والاغراق في الانتـاج وافلاس قواعد الاقتصاد السابقـة فيما يتعلق بناموس العرض والطلب واشتـــداد الازمة التجارية والزراعية وتضييق الخناق على العمال بسبب تفشي البطالة والاستغنـــاء عن ايديهم وتنظيم اوقات فراغهم وراحتهـم .

ويتجسم ضرر الاليـات تجسيما جلياً في الاستغراق باستخدامها لاستغلال انتاجها الى ابعد حد ممكن في سبيل المصلحة الفردية ويا ليتها كانت موقوفة على خدمة التآخي الانساني وذريعة من ذرائع تشـــديد اواصر المحبة بين البشر لكي لا نأخذ عليهـــا المآخذ ولا نرغم على شجبها « فهي بحد ذاتها ابتداع الله بواسطة الادمغة الانسانية لمصلحة البشر فلا اخشى شرها » « Kagawa »

ب ـ الاسباب الاخرى

ويقوم الى جانب هذه التطورات الفجائية التي دخلت الميدان الاقتصادي عن طريق الاكتشافات والاختراعات الحديثـة اسباب اقتصادية اخرى هي من عـوامل الازمة القائمـــة ولست اعني بها الا انتشار ـ القروض ـ الدين بالرباء والاتجار بالسندات المالية والشركات المغفلة .

ولا يخولنا المقام التوسع في بحث ردأت افعالها الاقتصادية ولا الدخول في تفاصيلها لان ذلك يستوجب ابحاثاً فنية دقيقة تستلزم مؤلفاً ضخما كاملا

وانما سنكتفي بالاشارة الى ما لها من فوائد واضرار فقط .

اجل ان الحرب الكونيــة الاولى افضت الى ايجاد الخلل في النظام الاقتصادي السابق خللاً كان بعيد الاثر جد البعد اذ بينما كان ٤٧ مليوناً من البشر منهمكين في ساحات القتال كان يقوم وراءهم احتياطي يؤمن لهم ما يفتقرون اليه من مواد تقتضيها الحرب ومن محصولات غذائية لا بد منها لسد حاجات الاهلين ولذلك دعت الضرورة حتما الى توسيــع نطاق الاليات توسيعاً عظيما .

وعقب تسريح تلك الجيوش وعودتها الى العمل كان في متناولها اليــات مستحدثة متقنة مكنتها اصلاح ما تهدم في فرصة وجيزة حتى كان الفيضان في الانتاج .

وما ان وضعت الحرب الثانية اوزارها بعد ان جهد البشر جهودهم في اثنائهــا لاكتشاف آليــات جديدة وابتداع ادوات مبتكرة في التسابق والاسراع لايجاد الاسلحة الفتاكة وتجهيز المقــاتلة بعتاد حديث في حتى ازداد اتقان الآليــات لدى الكتلتين المتنافستين الغربيــة والشرقية ونزعت كل منها الى حشد الانصار حولها وتزويدهم باتقن ما ابتكره العقل البشري تعمل جميعها على انتاج الاسلحة الفتاكة الجديدة في الدرجة الاولى .

ولم يقف الامر بين الكتلتين المتطاحنتين عند حدّ صنع الذخــائر والاسلحة الحربية فقط بل شرعت كل واحدة منها تحض انصــارها الذين حشدتهم في صفها على اتباع منهج اقتصادي يهدف قبل كل امر الى ان تكتفي كل امة نفسها بنفسها مؤونة تجهيزها بالمعدات والادوات التي تفتقر اليها في شتى المضامير حتى اذا مـا اندلعت — لا سمح الله نيران حرب جديدة — لم تبقَ كلاً على عاتقها مما حمل كل دولة على انتهاج طريقة اقتصادية قلما تختلف عن المناهج التي اتبعوها في اثناء حالة الحرب فكان هــذا لانكماش في انتاج الكماليات — وانما هـذه الاساليب الجديدة قد اشتدت

ردات افعالها اشتداداً زاد في تضييق الخناق على بقية الفروع الاقتصادية بعد ان عمدت كل دولة الى تنظيم مرافقها على اساس التسابق في ميدان التسلح واوجدت لها نظاماً اقتصادياً لا يأبه لغير هذه النتائج .

ولئن زعم كل من المعسكرين المتطاحنين انه اوجد الاعمال في بلاده لاستغراق اليد العاملة فيها فانهما لم يتبعا في هذا الباب الا المنهج الاقتصادي نفسه الذي انتهجته من قبل النازية والفاشستية لايجاد الاعمال الموقوتة لصناع بلادها ولم تكن نتيجته الا تلك المجزرة الضروس والحالة المضطربة التي ما برح البشر يكابدون نتائجها المريرة الاليمة .

واذا تسنى لكل فريق من هذين الجانبين ان يحشد مرافق بلاده وينظمها على قاعدة توحيد معسكره توحيداً حربياً فانه يعجز عن تنسيق جميع مناحي الحياة الاقتصادية في كل المضامير تنسيقاً يفضي الى ايجاد الانسجام الطبيعي بين المنتج والمستهلك وبين اصحاب رؤوس الاموال والعمال انسجاماً قوامه العدل ورائده الانصاف الاجتماعيين .

ومما هو ملحوظ ان الكثير من الدول تحاول في الدرجة الاولى تأمين التوازن بين صادراتها ووارداتها ولو خالفت في ذلك رغبة الكتلة المنتمية اليها ليشتد التنافس الاقتصادي بين اعضاء الجماعة الواحدة وتتأزم المزاحمة الاقتصادية كما كانت في السابق مما افضى الى التشويش الاقتصادي في داخل البلاد نفسها وخارجها : هذا في بلاد الناس اما في الشرق الادنى فلا محل لامر يقال له العدل الاجتماعي فهنا الجشع الفردي الذي لا يكبح جماحه كابح وهنا التهالك على الاثراء على نفقة الجمهور لتتكدس الثروات بين ايدي رهط - قيل فيهم انهم المحظوظون - بدون وازع او رقيب غير وازع الاثرة الفردية - فقد سخرت جميع المصالح لخدمتهم وسنت القوانين لتسهل عليهم اقتناص فريستهم فانقضوا عليها من شاهق وافترسوها - حتى باتت الامة طبقتين لا

ثالث لهما : الاولى طبقة هؤلاء الشواهين وهم الاقلية القليلة والثانية طائفة المحرومين ويكادون يكونون الامة بكاملها ـ طبعاً خلا النفر القليل ـ

اجل ان جشع رأس المال لا يعرف حداً ولا يعدم وسيلة تبلغه سؤله والا فما هو هذا القطع النادر او الذريعة المبتدعة في إيد الشركات المغفلة اسواء اكانت تحت ستار وطني ام اجنبي ـ وما هي النتائج التي افضى اليها ؟ اهي شيء اخر غير تزييد شقة التفاوت الطبقي بين ابناء الامة ؟! وما هي مظاهر هذه الفخفخة التي اصبحت وقفاً على نفر قليل الى جانب بؤس الاكثرية الساحقة التي اوشكت ان تعجز عن تأمين مقتضياتها الحيوية ؟ ومهما قيل لنا ومهما سعى الساعون لتبرير اثرائهم فانهم لم يبنوا هذه القصور الشاهقة ولا امتطوا هذه السيارات الانيقة اولا حققوا هذه الرفاهية الناعمة الا على نفقة بؤس البائسين واملاق المدقعين ! اهذه هي الوسائل العدل التي يقوى البشر بواسطتها على تلافي مغبة مفاجاءات الغد ! . . . ان النظرة الواحدة في قوانين العمال والمأجورين كافية لتعطينا فكرة عن مدى احقاق لانصاف الاجتماعي في هذه الرقعة من الارض التي ما برحت تطبق منها في القرن العشرين انظمة القرون الوسطى وقوانينها .

ب ـ ميزات الضائقة الاقتصادية

البطالة والبؤس هما اخص ميزاتها الواقعية !

هي الفوضى الضاربة اطنابها في النظام الاقتصادي لتجعل الانسان عبداً للاليات تتحكم بمصيره وتقضي عليه بالحرمان والتمتع بما خلقه الله لاجله واوقفه على خدمته وذلك الى جانب الاغراق في الانتاج حتى بات بالنسبة الى ما تنتجه يداه ـ كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول ـ او كما قال عمرو بن العاص كماسك البقرة بقرنيها ليستدرها غيرنا . حتى صحت بهذا

الباب كلمه الكاردينال فرديه ١٩٣٢ «هو البؤس في وسط الثروة» . ولئن استحكمت الازمة الاقتصادية كل هذا الاستحكام فلان ثمة ازمة اخلاقية قد نشبت اظافرها في الحياة الفردية .

وخاصة الازمة الثانية تقوم على كونها عالمية لان الراسمالية في تطورها قد تهالكت على استخدام الاليات ونظمت قضية انتاج الجماهير من دون ان تأبه لتنظيم استهلاكه فاخفقت في عملها الجديد لان استهلاك الجماهير لم يكن موضوع اهتمامها ولان تكالبها على المغانم والمكاسب قد اعماها عن ان ترى ان المنتجات قد خلقت للانسان ولم يخلق الانسان لها وفي الوقت نفسه قد فاتها انه لن تقدّر الحياة لمنهج اقتصادي اذ لم تكن له فائدة اجتماعية اسمى من مغانم المنتج الفردي او المرابي .

واخطر مظهر لهذه الازمة الاقتصادية هو البطالة التي ولدها التسابق على التسلح بطالة تستشعر شدة وطأتها جميع الشعوب لتشل صناعاتها ومتاجرها وتزرع البؤس والشقاء في ارجاء العالم قاطبة ، اذ ان ثمّ ملايين البطالين الذين ينتظرون عملا وهم عاجزون عن تأمين خبز زوجاتهم واولادهم اليومي حتى عم الاملاق وساد القلق وخيبة الامل وبات الجمع عاجزين عن توقع نهاية هذه الضائقة .

ومما لا يترك سبيلا للشك فيه هو ان هذه الفوضى العالمية التي يكابد البشر نتائجها مردها الى التطرف في امور كثيرة فهل باستطاعتنا الاشارة الى اهمها ؟

وحسبنا ان نشير في هذا البـاب الى شجب البابا تسابق الامم على التسلح ! «الا نستطيع القول ان النشاط الانساني قد تحول برمته الى اتخاذ مظهر التهالك على التسلح ؟ اجل انه التطاحن في التسابق على انتاج الاسلحة الفتاكة بواسطة استخدام الاليات الحديثة للتفوق على الخصم ! انه التسابق على تكديس الثروات الضخمة التي تأتي عملها بصورة عمياء سواء أكان

ذلك عن طريقة التلاعب بالاسعار ام عن طريقة المضاربات المالية لتجعل مستحيلة تلك القروض القديمة التي كانوا يسمونها قروض ذوي العيال وكانت في متناولها والسبب في ذلك هو كونها غير منتجة .

« وفضلا عن هذا التطاحن فقد اخذت الارياف تقفر من سكانها الذين شرعوا يؤمون المدينة فخلقوا بين عشية وضحاها معضلة من ادق المعضلات لتنظيم سلامة حياة هذه الجماهير مادياً ومعنوياً » « يخيل الينا ان هذه الحمى الصاعدة حمى اشباع الرغائب الجامحة التي لا حدود لها قد اجتاحت كل الشعوب فبدلت قاعدة الاثراء والعادات العيلية والحياة برمتها » « لقد خرج النشاط الانساني بسيره الخالي من الحكمة عن الطريق التي اختطها الله والطبيعة له على حين ان من الامثال التي كان يتناقلها جدودنا امثالا عديدة محمودة كامتداحهم مثلا التروي والفطنة والثبات وانسجام صلة الحاضر بالمستقبل :

ولقد كانت فلسفتنا ترغب في ترديد العبارة التالية : ان الطبيعة لا تعرف الوثب وهي لا تحب التحول العنيف فالحوادث تقول لنا بكل صراحة : اننا لا نخالف نواميس الطبيعة واتجاهاتها من دون ان تقتص منا » « من اقوال البابا »

هذه هي الصورة التي تمثل وضعنا الاجتماعي الذي لا نستطيع ان نمني النفس بقولنا فيه : لابدّ من ان تنتهي الازمة ! ولقد شهدنا كثيراً من مثيلاتها فلم تدم !

ولا مندوحة للبشر حيال هذه المصاعب الاجتماعية التي اشرنا باقتضاب الى خطوطها الرئيسية من الامعان في التروي الدقيق !

أوَ ليس من الواجب ايجاد حل لها ؟ اجل ! ولكن امامنا حلان لا ثالث لهما الاّ الذي يتطلبه العدل واعني به الحل المجرد عن الميول والنزعات والشهوات الذي يستطيع ايجاد الاستقرار في آن واحد في النظام الاقتصادي والاجتماعي .

حلول القضية الاجتماعية الثلاثة

لقـــد عرضنا بايجاز تعريف القضية الاجتماعية واوضحنا باقتضاب ميزاتها العالمية الباعثة على اسف تنقض منه الجوانح وتوجد له المراثو ولاسيما في مثل هـذه الظروف الغاشمة التي شدت الخناق على البشر لتجعلهم في قلق مقيم وتقض مضاجعهم بعد ان ضيقت عليهم سبل المعاش وارهقتهم بضروب الاجحاف لتتنكر لحقوق الفرد بصفة كونه انساناً !

فما هي الحلول التي ارتأها البشر لفض هذه المعضلات الاجتماعية الخطيرة الشديدة التعقيد ؟

ان ثمة مذهبين رسميين يقوم احدهما على طرفي نقيض من الآخر اما الثالث فهو الحل المستند الى القواعد الاخلاقية والى مستلزمات العدل والانصاف الاجتماعية والى ما شرعه الخالق من حقوق للانسان ولكن من سوء الحظ لم تدعمه غير القوة الادبية التي قلما يأبه لهـا من لا يهمه الا التفوق المادي والسيطرة القائمة على وفرة الثروة .

أ ـ المذهب الاقتصادي الحر

ب ـ المذهب الاشتراكي - الشيوعي

ج ـ المذهب الادبي المستند الى الحقوق الطبيعية العدل

اما هـذا الاخير فلا تقع عليه تبعة الاوضاع القائمـة لان المجتمعات

الانسانية اوشكت ان تغمض العين عن اخذه بعين الاعتبـــار في تنظيم شؤونها واوضاعها الاقتصادية على حين ان المذهب الاشتراكي الشيوعي لم تتبــلور قواعده وترسخ انظمتـه الا بعد زوال الفاشستية والنازية امـــا المذهب الاقتصادي الحر فقـد ترسخت اسسه منـذ اكثر من مئة وعشرين سنة واستحكمت استحكاماً غيّر حياة البشر الاقتصادية الحديثـة وسيطر عليها واستخدم الاختراعات والاكتشافات العلمية الكبرى لخدمة الصناعات الثقيلة وقد قال الاسقف جرمان « Germain » في هذا الشأن « في الوقت الذي وصلت فيـه الصنـــاعة الى حد الاتقان وبات يقتضى لها تعليم وطيد الاركان يكون حرزها الحريز لم يضع في متناولها النظام الاقتصادي الحر الا قانون العرض والطلب القانون الوثني الذى يسلم الضعيف غنيمة باردة الى يد القوة » .

وسنعرض بايجاز لمحة تاريخيـة لهذين المذهبين ولتعليمها الرئيسي فنبين ما فيهما من محاسن ومساوي من دون ان نتعـدى الى درس التفاصيل درساً علمياً مستوفياً لاننـــا عاهدنا النفس على تقريب هذه الشؤون الخطيرة من من افهـــام الجمهور اما من شاء ان يكون رائده العـدل الاجتماعي فهو مفتقر الى ان يلم بكيفية نشأة هذين التيـارين ليستشعر في حياته العملية حيال هذين المذهبين ما يوحي به الوجدان الصحيح العدل والناموس الالهي القائم على حقوق الانسان الطبيعية .

الفصل الاول

خطل النظام الاقتصادي الحر

من اسباب الازمة العالمية الآخذة بتلابيب البشر خطل المنهج الاقتصادي الحرّ الذي ما برح يسير شؤوننا الاقتصادية ، ونظام حياتنا في علاقاتنا بغيرنا ويقرر اساليب عقودنا واعمالنا الاجتماعية حتى بات الكثيرون عاجزين عن الاقلاع عن فطرتهم الملتوية الموروثة .

وشرعوا يأتون اعمالهم اتياناً لاشعورياً على قاعدة هذا النظام بالرغم من التنبيهات التي يوجهها اليهم ذوو الوجدان الحي الذين يصدرون عن قلب سليم وعقائد راسخة اقتنعوا بصوابهـــا فاصم ما في النظام الاقتصادي الحر من اثرة الاذان عن سماع اقوالهم لتقيم بمساويهـــا العمال على ارباب العمل وتقسم البشر الى طائفتين متناحرتين لان هذا النظام لم يكن في البدء الا ردة فعل النضال الطبقي الثوري .

١ـ كيف نشا النظام الاقتصادي الحر

لقد اتخذ هذا النظام وهو شعار الراسمالية المالية « البورجوازية » طبقة الاغنياء العقلى منشأه من فلسفة القرن الثامن عشر الالحادية ومن الثورة الفرنسية التي حطمت معالم المنهج التعاوني ليتحكم بالتنظيم الاقتصادي الحديث ولم تكن نظريات اقتصادي القرن الثامن عشر الا ردة فعل على النظام التعاوني الذي كان يلقي مهام الامور على الدولة لتسير الشؤون الاقتصادية

وتنظم الصناعة على قاعدة تصنيفها تحت حمايتها بحيث كانت المعامل الملكية تتمتع بكثير من الامتيازات » واشهر اولئك الاقتصاديين كانوا في انكلترا

ادام سميث « Adam Smith » وريكاردو « Ricardo » وستوارت مل « Stuwart Mill » الذين اوجدوا رابطة « منشستر » واطلقوا عليهـا اسم المذهب الاقتصادي التبادلي . وفي فرنسـا كسناي « Quesnay » مؤسس مذهب الفيزوقراطيين وساي « Say » وباستيا « Bastia » .

لقد كان منهج الجمعيات التعاونية الاقتصادي في القرون الوسطى يقوم على تنظيم الحرف والمهن تنظيماً مستنداً الى دراستها دراسة مستوفية ولم يكن التفاوت الا قليلا جداً بين اولي المصانع والعمال وكان الفارق بينهما غالباً فارقاً موقوتاً من حيث المساواة سواء أكان من حيث مركزهما ام من حيث ثروتهما اذ كان في مقدور العامل ان ينتقل بسهولة الى عداد اصحاب العمل اذا ما جمع رأس مال صغير يخوله ان ينشىء لحسابه عملا مستقلا خاصاً به وكانت للعامل مكانته في حرفته فيساهم في اصطفاء مدرائه ويلاقي في رفاقه عونا معنوياً ومـادياً له وكانت الحرفة التي ينتمي اليها تؤمن له كما تؤمـن لصاحبها التدريب المهني الكافي سواء اطالت مدته فيها ام قصرت فكان ذلك خير ضمان لرواج منتجاته في نظر زبائنه

ومن نكد الدهر لم تخضع تلك المؤسسات العمالية لسنة تطور الانظمة الاقتصادية فكان بسبب النظريات الحقوقية المستحدثة مـن جراء التطور الاقتصادي وتحت تأثير الاراء القائلة باستيلاء الدولة على جميع المهام وبداعي الاكتشافات المستجدة وانتقال النظام الاقتصادي الى منهج « شركات المناجم الكبرى » بدء انهيار تلك الجمعيات وتضعضعها لانها وقفت جامدة في مكانهـا ولم تعر سنة النشوء اهتمامها وتخلت عن الروح التي كانت تنفخ فيها نسمة الحياة الا وهي روح الاخاء الانساني القائمة على العدل فانهارت من تلقاء ذاتها .

واول من انزل الضربة القاصمة بتلك الجمعيات كان تيرغو « TURCOT » « سنة ١٧٢٧ - ١٧٨١ » فوضع مؤلفه الشهير « نظرات في تكوين الثروات وتوزيعها » وادام سميث « Adam Smith » عقب وضع كتابه « ثروات الامم » سنة ١٧٦٦ الذي بشر فيه باطلاق حرية العمل فالغت سلطة ارباب الاعمال مبدأ التنظيم التعاوني الاساسي .

ولما نشبت ثورة ١٧٨٩ كانت شوايب ذلك المنهج بلغت حداً من الخلل كان لا بدّ معه من اللجوء الى ادخال اصلاحات جوهرية عليه لانه لم يبق في مقدور التعاونيات مماشاة المجهود الصناعي مع اكتشافات القرن التاسع عشر.

وقال احد مؤرخي الانقلابات الصناعية في هذا الشأن ما مآله : « لقد جهلت الجمعيات التعاونية توسيع دستورها ولم تهضم تطور التقدم ولم تعرف ان توضح معالم الطريق امامها لتأمين سيرها نحو افاق جديدة... فبدلاً من ان تطبق انظمتها على ما استجد من نظريات وتدخل فيها مرونه كافية فتفتح في وجه المخترع الابواب على مصاريعها وتعمد الى منحه المكافأة فقد اقتصرت على جمودها لتطالب بالغاء الامتيازات التي اقرها القانون للذين يدخلون الصناعات الاجنبية الى البلاد اي انها عمدت الى خنق التقدم في مهده »

« L'histoire de Corporations Martin Saint - Leon »

ان الجمعيات التعاونية التي اوصدت ابوابها في وجه التطور لم تشأ ان تماشي سنة التقدم وتجاري سير الصناعة الجديد قد قضت بنفسها على نفسها قضاء افضى الى زوالها .

* * *

لم يطلع القرن الثامن عشر حتى حمل معه مفهومه الجديد وهو المفهوم القائم على اساس الفردية :

وجاء في القانون الصادر في ١٤ و١٧ حزيران سنة ١٧٩١ المادة الاولى «بناء على انه من احدى قواعد الدستور الفرنسي الجديد الاساسية الغاء كل انواع الجمعيات التعاونية التي انشأها مواطنون ينتمون الى حرفة واحدة انه محظور اعادة انشائها باية ذريعة كانت وتحت اي شكل آخر كان».

وجاء في بيان المقرر لاشابليه «LECHAPELIER» «لا يجوز للمواطنين من اية حرفة كانت الزعم انهم يجتمعون باسم مصالحهم المشتركة. ففي الدولة لم يبق مكان قط لجمعيات تعاونية بل للمصلحة الفردية والمصلحة العامة ولا يسمح لاحد بان يوعز للمواطنين بتعاطي مهنة اخرى»

وهذا المفهوم القانوني الجديد قد اشتمل على افدح ضروب الاخطار بغموضه والتباسه لانه لم يدع بين الدولة والفرد سوى صورة الانسان فقط ليقع تحت سيطرة ديكتاتورية النقود فلم يكن النظام الاقتصادي الحر الا ردة فعل على العراقيل التي كان يقيمها منهج الجمعيات التعاونية التي لم تماشي التطور الفكري الجديد فانتقل بالبشر بقفزة واحدة من جانب الهاوية الى الجانب الثاني منها. فما لبثت معاهد الحقوق ان بشرت بالتعليم الجديد وجعلته من موادها الاساسية الاقتصادية السياسية فوجهت على غير علم منها كما يغلب على الظن سير جماعات ارباب الاعمال وجرائد المحافظين وذرائع طبقة اولياء الشأن وذلك بالنسبة الى الامور الاجتماعية فكان هناك انصار هذا التعليم والمدافعون عنه في الندوة النيابية واحزاب المحافظين وسار عليه العالم التجاري الصناعي منذ اكثر من قرن وربع القرن.

٢ – مبادىء المنهج الاقتصادي الحر الرئيسية

من مبادىء هذا المنهج الرئيسية انه يجب ان ندع باب الحرية مفتوحاً على مصراعيه في وجه الاعمال التجارية والصناعية فاتخذ اسمه بالنسبة الى مبدئه

هذا « على ان هذه الثقة العمياء بالحرية تفرض الايمان بجودة الطبيعة الانسانية « روسو » وصرف النظر عن كل اكراه خارجي .

ويعلّم المذهب الاقتصادي الحرّ ان القضايا الاجتماعية هي التي تجد الحلول لنفسها بسببُ الحرية الكاملة التي تترك لكل فرد حق التمتع بها ضمن نطاق التملك والقروض والعمل فقانون العرض والطلب وناموس المزاحمة الحرة كفيلان بتسيير الامــور من يوم الى آخر فعلى الدولة الاّ تتدخل في الشؤون الاقتصادية . وقد تبنّى شعار كورناي « COURNAY » القائل : « دع الامور تجري في أعنتها » .

ويرى انصار المذهب الحر الاقتصادي في هــذا الشعار النظام الطبيعي لتسيير كل الامور ، ومن اقوال « ارتور دجاروان » « Arture DES-JARDIN » ان اسهل القواعد واضمنها هي ان ندع الحرية تصلح شوايب الحرية »

وجاء في الجزء الثاني الصفحة ٢٢٦ من كتاب (وور كس) « Works » المطبوع سنة ١٧٧١ : ما من تخيل باشد وهما من ان نتصور انه بالامكان تنظيم الشؤون التجارية بواسطة القواعد فمن الواجب ان ندعها تتبع مجراها الطبيعي » وقــال جوزف كارنيه « Joseph CARNIER » في اقتصاده : « العدل في الشؤون الاقتصادية مردة قانون العرض والطلب » وقال بول لروا بوليو « Paul. LEROY - BEALIEU » : « توجع المزاحمة الشاملة بدون قيد ولا شرط كل انسان الى خير مقام يستحقه وتوصله الى اجرة عمــله العادلة فلتمتنع الدولة عن اقل تدخل في قضية مصالحة الناس ولتدع الحريه الكاملة للملكية ورأس المال والعمل والمبادلات... فيبلغ انتاج الثروة اوجه وذلك ما يحقق اعظم قسط من الرفاهية .

* * *

ب ـ ان عدم تدخل الدولة هو المبدأ الثاني في هذا المنهج الاقتصادي : اقصر الدولة دورها على دور الحاكم او الدركي فلا تتدخل من تلقائها في الامور المهنية فلا حق ولا صلاحية لها بذلك مما يفضي اذن الى اطلاق .

١ ـ حرية المبادلة « من صادرات وواردات » بدون معارضة ومن دون رسوم جمركية

٢ ـ حرية العمل اي ان يشتغل الرجال والنساء والاولاد كما يعن لهم وفي اي مكان يريدون وبالشروط التي يشاؤن عندما يجدون عملا يشغلهم .

٣ ـ حرية التعاقد ـ اي ان العمل الذي يجب انجازه والاجرة التي يجب ان تدفع ينبغي ان يبت فيهما بين صاحب العمل والعامل وحدهما .

٤ ـ حرية التزاحم والمنافسة : اي ان كمية الانتاج واسعار البيع لا تحددهما الا المصلحة الخاصة .

٥ ـ حرية التمتع اي انه يجب ان لا يؤخذ بعين الاعتبار حاجات غيرنا الا متى نصت عليها مواد قانونية رسمية .

ج ـ يعتبر قانون العرض والطلب نقطة الدائرة في المنهج الاقتصادي الحر اي انه اذا كنت صاحب عمل وكان علي ان اكتري مئة عامل فتقدم الي خمسون منهم فقط فان الطلب يفوق العرض مما يتوجب رفع الاجور لان الطالب قد رأى نفسه مرغماً على تزييد ما يعرض عليه من اجرة .

اما اذا كان صاحب العمل يفتقر الى خمسين عاملاً فتقدم له مئة عامل فالعرض يفوق الطلب مما يستدعي تخفيض الاجرة ويرى الطالب نفسه مرغماً

على ان يرضى باجر زهيد .

ولو كنت مثلاً بائع طيب وكانت (القنينة) منه غالية الثمن فيتضاءل عدد الشارين مني ولو كان الامر على العكس فتلاقي طيوبي رواجاً كافياً يخولني رفع سعرها .

هذا هو قانون العرض والطلب الذي يزعم انصار المذهب الاقتصادي انه سيفضي بواسطة الموازنة بين شقيه الى اقرار العدل على قدر ما يستطاع ان يكون ثمت عدل في الارض لانهم مؤمنون بتوازن القوى الاقتصادية اما قضية تحديد الاجرة المشروعة بنفسها مع صرف النظر عن المنافسة وبالاستناد الى مستلزمات العامل الحيوية فذلك في زعمهم ارهاق من القواعد الاخلاقية التي اصبحت كلاً على عواتقهم فلا شأن لها في ميدان العمل وسوقه لانها من الامور العاطفية فقط ولا محل للعاطفة في الشؤون التجارية .

وبالاستناد الى ذرائعهم الجوفاء هذه جعلوا من قاعدة العرض والطلب البربرية المنافية للقواعد الادبية الاساس الذي لا يسمو عليه اساس لانهم يزعمون انه القاضي بتوازن القوى في سوق العمل لكي لا يصلح غيره ان يكون قاعدة التعاقد بين المستهلك والمنتج ورب المصنع والعامل : اذ تنبغي المحافظة على الحرية التامة لكي ندع المنافسة تأتي اعمالها من دون مانع او حاجز « دع الامور تجري في اعنتها » .

ويرى اصحاب المذهب الاقتصادي الحرّ في هذا القانون كأنه مكتوب بايدي الاله لذلك اكد عدد كبير من علماء الاقتصاد الحر ومن جملتهم باستيا « Bastia » انه من الخطأ عدم التقيد بقانون العرض والطلب .

والذين يرون فيه انه ضرورة لا محيد عنها وكأن يد العناية قد خطته والذين يعتبرونه كأنه من مآتي القدر المحتومة مع ما فيه من بواعث على الاسف والحسرة يجمع كلاهما على الاعتقاد ان قانون العرض والطلب هو

مشروع صحيح .

ويعلق انصار المذهب الاقتصادي الحر امالهم في اقامة التوازن في الانتاج على قانون العرض والطلب الطبيعي فهو ايضاً يضع حداً للازمات الـــتي ضاعفت الحكومات خطورتها في تدخلها وبسط حمايتها على الشؤون الاقتصادية.

ومما جاء في كتاب « القضية الاجتماعية والواجب الاجتماعي الصفحة ٣٥ المطبوع سنة ١٩٠٣ » لمؤلفه جورج بنوديل « Georges BHONDEL » الذي ينطبق على طائفة العمال في فرنسا ينطبق الانطباق كله على جميع البشر ولا سيما في بلادنا . ومما قاله في هذا الشأن : ان طبقة المتمولـــين الفرنسيين لم تبرهن على زكانتها في الشؤون الاجتماعية اكثر مما اقامت الدليل عليها في القضايا الاجتماعية فقد خدعتها عبارة باستيا « BASTIA » التي كانت شعار المدرسة الاقتصادية الحرة بما فيها من تفاؤول فاراحت ضميرها ببعض اعمال الاحسان على زعم منها انه اذا شكا العمال الفقراء فالذنب في ذلك ذنبهم ولا صحة لكل الذرائع التي يحتجون بها على المجتمع واعلنت بكل صراحة ان غاية الصناعة تقوم على تحقيق الثروات لانه على قدر ازديادها تزداد رفاهية الانسانية .

فيا لها من اقوال ومزاعم تبعث على الاسى لانها لا تزعم فقط ان التنافس لا يفضي الى تحقيق التقدم المـــادي بل الى تحقيق التقدم الادبي ايضا .

د ـ الاعمال الصناعية والتجارية ومناقضتها للمباديء الادبية

من خير ما يمثل روح الاقتصاد الحر في اول نشأته ما كتبه برنارد ديمانفيل BERNARD DEMANVILLE « سنة « ١٦٧٠ — ١٧٣٣ » وهو احد الرجال الذين ساروا في طليعة ذلك النظام الانكليزي الحر لانه بين بصراحة تفكير ابناء امته فيما يتعلق بالاقتصاد الحر فقد قال : من اعمال المحافظة على ازدياد

عدد الامة وازدهارها . وابقائها راتعة في رخائها اذا ابعدنا عنها ما نسميه البؤس سواء اكان ذلك من الناحية المادية او المعنوية ... اجل تستطيع الفضائل ان تجعل الامة الصغيرة صالحة ولكنها لن تجعلها ابداً عظيمة (الصفحة ٣٢٦).

« اذ شئتم ان تجعلوا الامة كبيرة قوية دبوا التنافس بين اعضائها وقسموا الاراضي ولو مهما كانت مجزأة . فتملكهم العقارات الضئيلة يشحذ عزائمهم ويوقد نار الحمية في افئدتهم ...

دربوهم في التجارة والصنائع وبثوا في انفسهم عقارب التحاسد والغيرة ومحبة التزاحم في آن واحد (الصفحة ٦٤٠) ... ان ما في المرء من شغف بحب الزهو والظهور بمظاهر الابهة يملك على الوف الفقراء اوقاتهم ويثنيهم عن الشغل ... ان ميل البشر الجنوني الى التهام المآكل الشهية والتفاخر بتأثيث منازلهم لهو خير باعث لاعدادهم وتلقينهم خير اساليب الكلام المغري في السوق التجارية (صفحة ٦٤١) . « ما من وسيلة تدفع العمال وتشحذ عزائمهم ليشتغلوا لغيرهم بافضل من احتياجاتهم الشخصية ، اجل انه من الحكمة التنفيس عنهم ولكنه من الحمق شقاؤهم ، فاذا رغبنا في ان نراهم من رجال النشاط والجد فلا تجعلوا في متناولهم نقودا وافرة ، ولئن كان القليل من النقد يبعث اليأس في افئدة بعضهم فان الاجور المرتفعة تحمل العامل على التهاون والكسل (الصفحة ٦٤٣).

« من الواضح ان الامم التي الغت الرق ولم تعد تسمح به في بلادها لم يبق لديها ضمان لثروتها خير من وجود جمهرة من الفقراء المجتهدين فهذه الجماهير هي مغرسة خصبة لتستمد منها رجال البحرية والجنود اذ بدونهم تزول كل بهجة ولا تظل قيمة لثروات العالم . فلا بد في سبيل توفير سعادة الامة والشعب من ان يظل عدد عديد من البشر مهما كانت

الظروف . في حالة من الجهل والفقر لان رغائب البشر ومتمنياتهم تتعاظم وتتكاثر بقدر تعاظم معرفتهم واتساعها فعلى قدر ما تكون رغبات المرء قليلة استطاع بسهولة تامين ضرورياته فلذلك تتطلب مصلحة كل دولة او مملكة حصر علوم عمالها الفقراء ضمن نطاق اشغالهم كي لا تتعدى الامور التي تقع تحت انظارهم فيما هم مدعوون لعمله . فالراعي والفلاح والعامل كلما اتسعت علومهم وعرفوا اموراً خارجة عن دائرة اعمالهم كلما ابت عليهم النفس قبول متاعب اعمالهم ومشقاتها (الصفحة ٦٤٣) .

ولئن جرى بالكاتب قلمه ليقول ما قاله بكل جرأة فلانه كان مقتنعاً كل الاقتناع بصحة ما اعرب عنه فكان مسوقاً اليه سوقاً بمنطقه الباطني كالمؤمن الذي يصدر عن نفس مشبعة بعقيدتها الايمانية .

وهذه الاقوال التي المعنا اليها ويندي لها اليوم جبين الراسمالية الحرة خجلا ولا يستصوبها حتى انصار المذهب الاقتصادي الحر انفسهم ويعترفون بضرورة الحد من قانون العرض والطلب ويذعنون لتدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية ولا يستطيعون الا ان يشجبوا (مساوي تشغيل النساء والاحداث) ما برحت قيد العمل بموجبها في رقعتنا الشرقية ، على ما فيها من اجحاف بحق الفرد والمجموع .

ولقد اتصل بنا من اوثق المصادر ان بعض المتزعمين يأبون نشر التعليم في المناطق التي يتزعمونها وان جمهرة كبار الملاكين سواء اكانوا اشخاصاً طبيعيين ام اشخاصاً معنويين يحرصون كل الحرص على ان يظل (مرابعوهم) في حالة فقرية وان لا ينتشر العلم بينهم حتى درج عامة هؤلاء الناس على القول (حسب ابننا من العلم ما يكفيه قضاء حاجاته) .

ولئن ادركت الراسمالية ضرورة تخفيف وطأتها وهي في ابان تطورها فلا يسعنا الا ان نلفت النظر الى هؤلاء المتطرفين في المطالبة باطلاق حرية

رأس المال تحت ستار نظام الحرية الاقتصادي المعدل وذلك لكي يتسنى لهذه الحرية بلوغ خير النتائج التي يهدف اليها المنهج الحر لان اذعانهم لتدخل الدولة لا يقول باطلاق يدها كل الاطلاق وانما يبيح لها التدخل في شؤون طفيفة لكي لا يتناول مفهومها الاقتصادي المنافي للقواعد الادبية ولا حرصها على مضاعفة الاهتمام بتنظيم المؤسسات الصناعية تنظيما لتزييد الانتاج ولتطبيق استخدام الاليات ولاحلال المزاحمة والتنافس واسعار البيع في المحل الاول فلا يتناول المسؤولية التي تقع على عاتق ارباب الاعمال فيما يتعلق بحياة العمال الاخلاقية الذين انتزعوهم من محيطهم الطبيعي وحشودهم في مباءة المصنع وفي وسط اعماله الاجتماعية الفاسدة اما اذا ارتأوا اتيان بعض اعمال الاحسان فلكي يتولاها ارباب الاعمال وحدهم حتى تكون مآتيهم معارضة منظمة بعض التنظيم لحرية العمال النقابية ولكل شكل من اشكال التعاون الشخصي في ادارة المصنع .

٣ — المساوي التي افضى اليها المذهب الاقتصادي الحر

كانت نتائج سيطرة المنهج الاقتصادي الحر « البؤس الذي لا تستحقه » طائفة العمال « لاون الثالث عشر « Rrum novarum » .

ولقد اخذنا على النفس عهداً ان لا نداري احداً وان لا نصدر عن باطن نغل في بيان مساوي الراسمالية التي تستطير لها اصلد القلوب وتستشعر خشيتها المريرة !

الاجرة — قلما يتقاضى العامل اجرة تخوله ان يدخر منها بعض الوفر وذلك اذا لم نقل انها لا تكفيه لسد حاجاته الضرورية فان معدل الاجرة للعامل اليدوي لا يزيد على اربع ليرات في المدينة وثلاث ليرات في الارياف فاذا اخذنا بعين الاعتبار اسعار المواد الغذائية فقط كالخبز واللحم

لا غيرهما فان ما يتناوله يومياً يكاد لا يكفي لتأمين اكله وشربه وحده اما اذا كان صاحب اسرة ما برح اعضاؤها قاصرين فهناك الطامة الكبرى .

ولقد نظرنا الى اشد ضروراته الحيوية من دون ان نشير الى اجرة منزله وما يفتقر اليه هو وذووه من ملبوس واعتبرنا انه بمأمن مع ابنائه وزوجته من غائلة الامراض ومن البطالة .

ولئن قلت العامل فانا اعني به ايضاً معلم المدرسة والشرطي والجندي وجميع اصحاب الحرف المعاشية فهؤلاء جميعهم لا يتقاضون مرتبات في معظمهم تزيد عن اجرة العامل البدوي اليومية . وحاجاتهم الضرورية هي الحاجات نفسها . فان مرتبات المعلمين الرسمية ورجال الشرطة والجنود لا تخولهم مطلقاً ان يكونوا في مأمن من حرمان انفسهم اشد مستلزماتهم الحيوية .

وليست اجور موظفي عمال التجارة والفنادق والخدمة عامة تفوق اجرة مرتبات هؤلاء الموظفين .

اوضاع العمل وشروطه

حسبنا ان ننظر الى هؤلاء العمال في ذهابهم يومياً الى مقر اشغالهم صباحاً يتأبطون تحت ثيابهم البالية التي اكل عليها الدهر وشرب طعام الظهر وهو كناية عن بعض خبزات من النوع المنحط مع القليل مما يؤتدم به ليعملوا طوال ثمان ساعات كما ينص على ذلك قانون العمل . اما المعاملة التي يعاملون بها فلا حاجة الى التذكير بها ولا الى الزرائع التي يلجأ اليها ارباب المعاهد والمعامل واصحاب الاعمال للتهرب من دفع اجورهم وما قرره القانون لهم من نفقات عيلية وتعويضات فهي بغنى عن التعريف بها .

وليست اوضاع عمال الزراعة ولاسيما « المرابعون » بافضل من اوضاع هؤلاء : عمال الصناعات والمستخدمين ، فاوليـاء الاراضي الكبيرة واصحاب

العقارات الواسعة قلما تختلف معاملاتهم لمزارعيهم عن معاملات اصحاب المصانع لعمالهم .....

وهذه الاقوال التي المعنا اليها ويندى لها جبين الرأسمالية الحرة خجلاً اليوم ولا يستصوبها حتى انصار المذهب الاقتصادي الحر انفسهم ليعترفوا صراحة بانه من الواجب الحد من عمل قانون العرض والطلب وليقبلوا ان تتدخل الدولة في كبح جماحه فلا يطلبون ابعادها عن الميدان الاقتصادي كما كانوا يفعلون في الماضي وما برحت قاعدة الرأسمالية الرئيسية وما زال العمل بموجبها يجري كما كان يجري في إبان سيطرة المنهج الاقتصادي الحر قبل الحرب الكونية الاولى ولاسيما في البلاد الشرقية .

وعلى رغم جميع هذه المساوي وما ينجم عنها من مضار في كل مضامير الحياة وبخاصة في الامور الصحية لم تستوح الحكومات انظمة العمل، فيها الا من منهج الاقتصاد الراسمالي الحر ولم تغير من روحه الا بعض النصوص تغييراً ظاهرياً فكانت « كمن رش على الموت السكر » على حد الاغنية الشعبية .

وفي اثناء سيطرة النظام الراسمالي الحر حيث كان البشر لا يرون نظاماً غيره صالحاً للحياة وكانوا يعتقدون ان نواميسه هي النواميس الطبيعية التي لا يعتريها الباطل لم يكتم كثير من رجال الفكر ما ساورهم من مخاوف من نتائجه . وحسبنا ان نقرأ في هذا الشأن « نشيد القميص » لاحد شعراء الانكليز : الذي مضته رؤية الاعمال المنزلية الشاقة واجورها الزهيدة ونتائجها الاليمة وما تقضي اليه من اضرار بالامهات وباطفالهن .

« هنا تجلس امرأة اثقل النعاس اجفانها ولاشى الونى اصابعها فاحمرت عيناها وهي ترتدي اطماراً بالية لا تليق بامرأة لتواصل جذب ابرة خياطتها خاوية البطن تحف بها الاقذار وقد عضها الجوع بنابه .

ومع ذلك كانت تتغنى بنغم حزين مشجٍ بانشودة القميص وتقول ثابري يا يدي على عملك لتدأب في شغلها بدون انقطاع وقد اخذ الديك بصياحه وبانت لعينيها النجوم من فجوات منزلها .

ولئن كانت هذه هي اوضاع المرأة المسيحية فما هو يا ترى مدى عبوديتها لدى الشعوب البربرية حيث يعتقدون انها بدون نفس لتسعى لخلاصها .

فيا ايها الذين تعز عليهم اخواتهم .ويا ايهــا الازواج ومن لهم امهات انكم لا تستنفدون القماش وانما تستنفدون حياة مخلوقات انسانية .

انها ما برحت في فقرها وجوعها ومصائبها تواصل اجتذاب ابرتها لتخيط في آن واحدٍ وبخيط مزدوج كفنها والقميص » .

واليك ايضاً « شكوى الاطفال » وهي القصيدة التي وضعتهــا سنة (١٨٦٠-١٨٦١) اليزابت باريت برونتغ «Elisabeth BARETT BROWNING» لترفع صوتها محتجة على استخدام الاطفال الشاق في المعامل والمصانع :

« هل سمعتم يا اخواني ! الاطفال يبكون قبل ان تحلّ الاحزان بساحتهم مع السنين ؟

فان دموعهم لا تتوقف عن الانهمار وان اسندوا رؤوسهم الى صدور امهاتهم !

هناك الحملان الصغيرة ثاغية في مراعيها

وفراخ الطير مزقزقة في وكناتها

والزهر الصغير فاتح اكمامه وقد حوّل وجهه نحو الشرق

اما الاطفال — هؤلاء الاطفال الصغار

فما برحوا يبكون بكاءً مريراً

ايها الاخوان !

انهم يبكون - وسنهم في بلدان الناس سنّ اللعب والمرح
انهم يبكون قائلين يا للتعب
اننا لا نقوى على الركض والقفز
واذا ما اجتذبتنا الحقول اليها
فلكي نسقط على حشيشها ونرقد فوقه
واذا ما حاولنا ان نتقدم اكبينا على وجوهنا
فاجفاننا الثقيلة التي لا تنطبق
ترى صفراء، الزهر البادي امامها اشدّ احمراراً
لاننا جررنا حملنا الثقيل المضني
طول النهار عبر نفق الفحم المظلم
وعملنا طول النهار في فتل دواليب المصانع الحديدية الثقيلة
فلا تبرح وجوهنا تستشعر قعقعتها وما تولده من نفحات هواء
فكأنها لم تنفك عن الدوران وكأن رؤوسنا لا تزال طائشة منها
واننا لنرى الجدران تدور على ذاتها
ويخيل الينا ان السماء ترتجف فوقنا من النافذة المرتجّة
ها نحن نشهد النور يتساقط عمودياً على الحائط
وها الذباب الاسود يطوف في زحفه على السقف
انها الدواليب المدوية طول النهار
وما كان اشد رغبتنا ونحن نشرق بالدمع
ان تقف عن دورانها ولو يوماً واحداً
وكم ضرعنا اليها لترفق بنا
وقلنا لها رحماك ايتها الدواليب
احمني اليوم فقط
احمني ! عسى ان يسمع احدنا، ولو دقيقة واحدة تنهد رفيقه

وتصافح يدنا يده فنحن قائمون وجهاً لوجه بعضنا الى بعض!
ولتستشعر هذه الشبيبة النضيرة! لتستشعر ان هذه الحركة المعدنية الباردة
انها حركة الالات لا حركة الحياة: حركة اعدّها الله وابرزها الى
حيز الوجود
ولئن سيطرت ايتها الدواليب على هؤلاء العملة ولئن توحدت رغبتهم ضدك
فانت لا تعبئين بهم وانما تستمرين في دورانك طول النهار
لتسحقي ابناء الحياة وتحوليهم عن هدفهم
وتقضي على نفوس الاطفال التي يدعوها الله نحو الشمس
انك لتثابرين على دورانك الاعمى في الظلمة».

ولشد ما كان وقع هذه الاقوال على جمهرة المثقفين في انكلترا...
بحيث عدّل القانون المتعلق بشغل الاطفال فوراً وهذا ما اشاروا الى
مدلوله بكلمة «System Sweating».

* * *

ليست هذه الشوايب التي تقض مضاجع البشر وليدة افئدة مريضة ولا
من بنات نياتهم الميتة ولكنها ربيبة التنظيم الاقتصادي الحر الذي يهدف
الى تزييد الانتاج فقط.

ولم تعزب هذه المعرّات حتى في مطلع عهد الرأسمالية عن الانظار
واليك العلاج الذي ارتآه فيلرم «VILLERME» في هذا الشأن:

«يشوقني ان اقول ان جماعة عمال الالزاس قد حاولوا وضع حد
لهذه الوساوس الشائنة «لا ارهاق في تشغيل الاطفال» ولكن ما فائدة
اخلاص الافراد؟ ان الواجب يقضي بتوحيد جميع رجال الصناعة لا في
منطقة واحدة بل في جميع العالم وبان ينضم بعضهم الى بعض انضماماً صحيحاً
وحتى في البلدان التي تباع فيها البضائع فيضعوا حداً لهذه الشوايب بدلا

من ان يستغلوها لمصلحتهم .

وبديهي أننا لا نقوى على ان نرجو ذلك منهم لانه لم يتفق لاية طائفة كانت لا في فرنسا ولا في غيرها ان تقدم على هذا العمل وليس العلاج الذي يحول دون استنفاد قوى الاطفال في المصانع وانها كهم في المعامل الا من صنع قانون ينظم اعمالهم ويحدد مدتها بالنسبة الى سن كل فئـــة منهم » « الجزء الثاني ، ٩٢ » .

وبما ان منهج النظام الحر يقوم على التطاحن بدون هوادة ويحتقر كل ما هو انساني فنحن لن نرى لنا مخرجاً يخوّلنا الاستغناء عن تشغيل الاحداث .

« يسلـّم جميع النـــاس بان استخدام الاحداث في المصانع هو من الضرورات التي لا محيد عنها في الامور الاقتصادية ... لان ما يناط بهم من اعمال لا يقوى غيرهم على انجازه بسبب ما لايديهم من المرونـة في فتل الخيوط وما لاجسامهم من الليونــــة التي تخولهم الانطواء على انفسهم على عكس الرجال الكبار » « الجزء الثاني الصفحة ١١٩ »

ومـا عدا هذه الشوايب والمعرات التي المع اليها عندمـــا تصدى الى الكلام على تشغيل الاحداث والنساء وكلها معرات تتصل مضارهـا بالصحة العامة ولهـا تأثير كبير في كثرة الوفيات ونقـــائص اخرى ليست باقل خطراً الا وهي اختلاط الجنسين معاً والسلفات بالفـائدة التي يعطيها ارباب العمل للعمال واكواخ السكن ثمة مساوي عديدة :

« من عاداتهم في المصانع الكبرى : اولاً ان لا يفصلوا بين الرجال والنساء في مصانعهم وثانياً ان يرغموا الاحداث على الشغل طويلاً وثالثاً ان يقرض اصحابهـــا النقود لعمالهم رباً فاحش تحت اسم « سلفيات » على اجورهم . فالاولى مفسدة للاخلاق والاداب والثانية هدامة للصحة والثالثة باعثة على البؤس والاملاق وجميعها عادات تصم الاخلاق العامة بوصمة العار . .

« ... ومما يضع حداً لهذه الاضرار الفادحة سن قانون خاص يقضي بفصل النساء عن الرجال في اثناء العمل ويحدد ساعات عمل الاحداث ويعين الحد الاعلى للقروض التي يسجلها اصحاب المصانع على دفاتر شغل كل عامل حتى اذا ما تجاوزت الحد الموضوع لها اعتبرت لغواً » . «الجزء الثاني الصفحة ٣٥٥»

وثمة من المآخذ على مساكن العمال «اكواخهم» الشيء الكثير، وقد جزم فيلرم «VILLERME» في تقريره : بان العمال يتكدس بعضهم فوق بعض في المدن الكبرى ليقطنوا ازقة مظلمة ضيقة ومنازل قذرة لا تعرف النور والهواء تنتشر فيها الاوبئة المعدية ولا سيما الامراض الجلدية . اما النساء اللواتي يشتغلن في بيوتهن فاجورهن زهيدة تكاد لا تكفيهن .

هذه هي المآخذ الرئيسية والشوايب التي لازمت النظام الاقتصادي الحر في مطلع عهده وتكاد تكون هي هي في يومنا الحاضر اما اذا طرأ عليها بعض التعديلات فليست باكثر من تعديلات ظاهرية ليس الا .

ومما اعتقده القس غوستاف مونود « Gustave MONOD » ان نتائج البؤس الذي يسببه النظام الاقتصادي الحر تؤول الى ازدياد الفجور لدى النساء ودهورتهن في مزالق الدعارة ولاسيما اذا كن يتقاضين اجوراً زهيدة او عاطلات عن العمل، واذا لم نجاره في رأية الرومانتيكي فان البؤس هو من دون شك من العوامل القوية التي تدفع بالنساء الى تعاطي الفحشاء .

ومن بواعث الاسى ايضاً ما نشهده من عدم اهتمام ارباب الاعمال واصحابها بمسؤولياتهم الادبية . فهم في الغالب يسيرون سيرة ملتوية امام عمالهم ولا يحاولون اية محاولة ان يتخذوا التدابير والاحتياطات التي من شأنها صيانة الآداب والاخلاق !

وقلما يترفع ارباب الاعمال عن التلفظ بالعبارات البذيئة على مسامع النساء والفتيات اللواتي يعملن في مصانعهم ! وربما شهدوا امام اعينهم اعمالا ملتوية فوقفوا

امامها لا ينبسون ببنت شفة ولا يبذلون اقل مجهودات للحيلولة دونها .

ومن المؤكد ان ضروب البؤس والحرمانات التي كابد آلامها العمال وما برحوا يتجرعون غصصها قد أجج في افئدتهم نار الثورة على اوضاعهم وحاولوا لدى كل سانحة الانتقاض على الانظمة والتمرد على القوانين التي اعتبروها من عوامل شقائهم وتعاستهم .

ولم تقم الاحزاب المعارضة ولا سيا الاشتراكية منها الا بعد ان أصم الرأسماليون اذانهم عن الاصغاء الى صوت الوجدان وتعاموا عن طلبات العمال الحقة التي طالما نادى بها هؤلاء وحاولوا تحقيقها ، وكانت قوة الاطماع تصدهم دائماً عن بلوغ امنياتهم .

ولو لم تصادف هذه الاماني نزعة الى تحقيقها لدى معظم الجماهير لما استطاعت احزاب غير المحافظين عندما وصلت الى الحكم ان تحقق تنظيم عمل الاحداث وتحديد ساعات شغل الكبار ولما اعترفوا بشروعية النقابات ودفع اجور الفرص واقرار العقود الاجتماعية : بين اصحاب الاعمال والنقابة .

وهذه الاصلاحات المشروعة التي لا يستطيع انكارها حتى اشد المتعصبين للنظام الاقتصادي الحر قد اقرتها القوانين والانظمة في معظم البلدان ولكنها لم ترسخ بعد في قرارة النفوس .

٤ - نقد المنهج الحر

اجمع رجال الفكر من كل الطبقات على شجب مبادىء الاقتصاد الحر ولم يكتموا ما خالجهم من شكوك حولها فلذلك عمدت الديموقراطيات تواً بعد انتهاء الحرب الاخيرة الى الحد من مساويها واطلقت نوعاً يد حكوماتها في التدخل بالشؤون الاقتصادية تخفيفاً لما يصحب المنهج الحر

من اوهاق وتجاوز على حقوق العمال .

واليك بعض اراء هؤلاء المفكرين التي جاهروا بها قبيل الحرب الاولى:

«ليست ازمة الاقتصاد الحر بنت ساعتها القائمة فقد كانت مساويها بادية للعيان قبل سنة ١٩١٤ كالشمس في رائعة النهار وان تعامى عنها اصحاب المطامع وذوو الاثرة ارباب الصناعات والاموال فتاريخ منشئها قد بدأ مع بدء الاحتكارات القومية والدولية الكبرى : اي منذ تمّ حشد الصناعة وبخاصة منذ اندمجت الرأسمالية الصناعية بالرأسمالية المصرفية «البنكية» لتكوّن الرأسمالية المالية فمن تلك الساعة شهد البشر زوال مبدإ الاقتصاد الحر الاساسي الا وهو المنافسة الطليقة ليدخل هذا المنهج دفعة واحدة في عهد التأزم .

ولقد فتح العهد الذي كان قبيل الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٩) منا العين على بوادر هذه الازمة ومن ثم كانت الحرب التي جاءت تزيد في خطورة المأساة بسبب عاملين رئيسيين : هما اتساع الاحتكارات اتساعاً لم يكن للناس عهد به ومن ثم توحيد القوى القومية توحيداً كان من طراز رأسمالية متقنة كل الاتقان فنشأت صناعات كبرى في اوستراليا وكندا والمستعمرات والبلدان الاوربية الجديدة التي برزت الى حيز الوجود بعد مؤتمر فرسايل . واعترى سير منهج الاقتصاد الحر الخلل بسبب هذين العاملين واخذ البشر يستشعرون ضغط الازمة الاقتصادية التي اختلفت عوارضها عن سابقاتها لينقضي معها زمان الاقتصاد الحر « لماذا مات النظام الاقتصادي الحر » (الصفحة ٣٠) « ... ثمت بطالة فنية واعني بها البطالة التي ولدها انتشار الآليات اي ازدياد الانتاج ... »

ولذلك لا انفك عن القول ان الظروف التي كانت سبباً لانتشار المنهج الحر قد استبقته . لان التقدم الآلي والاجتماعي ولاسيا المزاحمة - وهي اسس هذا

المنهج - تفضي الى حشد الصناعة وتكبير الاعمال . فمن البديهي انه في سبيل صنع السيارات بسعر زهيد لا بد لنا شئنا ام ابينا من ان نتبنى قاعدة ايجاد المصنع الجبار اما تحشيد الصناعة فمن شأنه ان ينزع الى الاحتكار . وهذا ما يخالف كل المخالفة مبادىء الاقتصاد الحر الاساسية .

« ... يقوم المنهج الاقتصـادي على ان يختار « اوتوماتيكياً » خير الامور المنتجة وهذا الاصطفاء لا سبيل اليه اليوم او انه لن يكون بدون صعوبة جدية : لانـه لم يبق في الامكان الاستغناء عن المصانع الجبارة التي تستخدم الوف العمال ، ولا سبيل ايضاً للاستغناء عنها لحيـاة المجموع : كوجود الشركة الفلانية للنقليات او كالمصرف الفلاني او كالورشة البحرية او المصنع الآخر .

وعلى رغم اخفاق جميع هذه المؤسسات بات من الواجب المحافظة عليها مهما كلف الامر ولو على نفقة الدولة لان استمرار عملها من الامور التي تتطلبها المصلحه العـامة ... « وفي مثل هذا المقـام قد استبقت الظروف المنهج الحر لانـــه لم يبق لديه سبيل لاختيار خير مـــا يفضي الى تزييد الانتاج باقل النفقات . »

واذا ما انتقلنا الى بحث قانون العرض والطلب الذي يفرض قيـام عاملين متناقضين من شأنهما في تنـاقضهما ان يحافظا على الموازنة في تنـاسق الاسعار : السعر الادنى الذي يخول المنتج ان يعيش والسعر الاعلى الذي يمكّن المستهلك من الشراء فنرى ان العرض قـد اعتراه الشلل والطلب قد انهار لينقضي بذلك عهد النظام الاقتصادي الحر ، ولئن تذرع المتذرعون « بحجة الازمة » فالواقع هو غير ذلك لان الاستهلاك لا بد له من حدّ ولا سيما في المنهج الحر الذى لا يعرف غير الحـاجات القابلة للاستهلاك

« Le libéralisme est depassé P 411 ».

« في عضون اخريات القرون الوسطى عرف الانتاج الصناعي منهجين اقتصاديين : تدامج الجمعيات التعاونية والنظام الاقتصادي الحر : فكان قوام الاول التضامن الاجتماعي بين رب المصنع وعماله وبين مختلف الحرف والمهن وكانوا يعمدون الى تلافي مضار الالة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تخلق البطالة بعدم استخدامها وبالاكثار من الاعياد الدينية مما يقابله اليوم الضريبة على الاختراعات واسبوع الاربعين ساعة اللذين نعتبرهما كامور جديدة .

ولئن تساءلنا لماذا حل المنهج الحر محل الجمعيات التعاونية ؟ فالجواب على ذلك هو ان تقدم وسائل تداول المنتجات قد قطع شوطاً تجاوز معه حدود تقدم وسائل الانتاج .

وفي الواقع ان الجهود الشخصية والحرية الفردية هما اللذان استبقا ذلك النظام كما سبقا التعاون الاجتماعي لتقوم الاثرة الحرة في المقام الاول فيعمل كل لنفسه ويهتم القوي بمشاغله والضعيف بشأنه كالاسماك في البحار يأكل قويها ضعيفها .

« وفي الحقيقة ان الاقتصاد الحر قد تذرع بهدف الانتاج الغامض الا وهو الاستمرار في ايجاد المنتجات باقل ما يمكن من الوقت ولكنها المنتجات التي تؤمن الارباح فلم يدع لارباب العمل الوقت والوسائل والحق بان يهتموا باجور العمال بل كانوا مصفدين بقيود التزاحم والمنافسة !

وماذا كانت القوانين التي تنظم قواعد الربح ؟ انها ايجاد اعظم عدد من الزبائن فاحتاج الاقتصاد الحر الى أسواق استهلاك كبيرة فكان على الاقتصاد القومي ان يعد للمنهج الحر المواد الاولية وان يشتري منه منتجاته لان المستهلك لم يبقَ من هو كائن ضمن المصنع بل من هو في خارجه .

« وتمكن الاقتصاد الحر في غضون مئة سنة ان يتسع على نفقة الاقتصاد

القومي حتى كانت السانحة التي تجاوز فيها عرض المنتجين طلب المستهلكين : فازداد الانتاج وتدنّت قـوة الشراء ونشبت الضائقة الاقتصادية وكانت الانتقاضات العمالية سنة ١٩٤٠ .

ولا شك في ان النظام الاقتصادي الحر لا بد له من التخلي عن مكانته ليقوم نظام اخر محله « Travail et liberté, Agonie du libéralisme p 111 »

واليك ما قاله البابا بيوس الحادي عشر في فقرة من رسالته الرعائية : لقد استطاع رأس المال مدة طويلة ان يحقق ارباحاً طائلة واراد ان يستولي على مجموع الانتاج والارباح لوحده وكاد لا يترك للطبقة العاملة شيئاً تقوى معه على استرداد قوتها والمحافظة عـلى بقائها ، ومما اكدوه ان القانون الاقتصادي الذي لا مندوحة عنه يعمل على تكديس رأس المال في ايدي الاغنياء وهو الذي يقضي على العمال بان تكون حياتهم واهية وفي املاق دائم .

بيد ان الواقع لم يحقق في كل مكان قواعد منهج منشستر الحرّ ونحن لا نقوى على الانكار ان النظام الاقتصادي الاجتماعي لم ينزع الى ايجاد حركة مستقرة في الناحية التي يزعمها « Quadragesimo anno N° 60 »

وجاء في الرسالة الرعـائية « Divini Redemptoris » : لقد مهدت الرأسمالية الطريق امام الشيوعية « واذا مـا شئنا ان نعرف كيف نجحت الشيوعية وقبلتها جماهير العمال من دون بحث وتفحص لا بدّ لنـا من ان نذكر انهم كانوا قد اعدوهم لقبول هذه الدعاية عن طريق الاهمال الديني والادبي اهمالا ابقاهم المنهج الاقتصادي الحر يرتعون في احضانه بحيث لم يدع حتى الوقت اللازم لانجاز اهم وجائبهم الدينية ولم يكلف الرأسماليون النفس ان يبنوا الكنائس بقرب مصانعهم ليؤمها العمال ايام الآحاد والاعياد ولا سهلوا على الكاهن مهمته وانما على العكس من ذلك قد شجعوا العلمانية واكملوا عملها فلذلك نجني ميراث الفساد الذي طالمـا ندّد به سافاؤنا كما

نندد به نحن انفسنا ، وليس من المدهش ان ينتشر الضلال الشيوعي انتشاراً واسعاً في عالم ابتعد كل الابتعاد عن المسيحية (N° 16) .

ولقد المعنا في بيان مساوي النظام الاقتصادي الحر الى مختلف الآراء من اشدها تطرفاً الى اكثرها محافظة لننتقل بعدها الى نقد هذا المنهج نقداً يتناول

ا ـ خطأ هذا المنهج الذي لا يعرف الحرية الا بالظاهر .
ب ـ الاثرة الجشعة التي هي من اسسه الجوهرية .
ج ـ اتخاذه المادة هدفه الاول بدلا من ان يجعل هدفه الانسانية .
د ـ ديكتاتورية النقود فيه .

* * *

ان النظام الاقتصادي الرأسمالي ليس فيه من الحرية الا ان يقول عن نفسه انه المنهج الحر

قال الكردينال مانينغ « MANNING » ان الحرية التي افضت اليها الثورة الفرنسية ليست الا حرية الموت جوعاً .

وقال البابا لاوون الثالث عشر : انها « الحرية » التي جردت العامل وجعلته تحت رحمة سادة قُدّت قلوبهم من صخر جلمد « لا يعرفون معنىً للانسانية » لتتركه بدون دفاع بقية غائلة البؤس لان اولياء الاعمال دأبهم ان يتزاحموا مزاحمة لا كباح لها « Rerum Novarum » .

وبحق لقد اطلقوا على هذه الحرية اسم « حرية الادغال » لانها تقوم على طرفي نقيض من الحق في العمل والحياة .

« يرى الجيل الجديد في البديهية القائلة بان الحرية الاقتصادية كفيلة بشفاء جميع الجراح التي تحدثها خيبة امل الظن الانسانية ، ومن المؤكد ان كل

تشريع ينص على تدخل الدولة لا يبلغ هدفه يكون من جملة التدابير التي اتخذت قبل اوانها او من التدابير التي لم يحكم امرها او انها قد كانت شديدة التطرف . وعلى كل من الخطأ القول ان تدخل القانون لا فائدة له لانه تجاوز لا مبرر له على عمل النواميس الطبيعية وعوامل التنسيق الاقتصادية المحتومة هذه النواميس المفيدة طبعاً . اجل ان الحرّية التي زوّدت القوانين بها الهيئة الاجتماعية في القرن التاسع عشر لم تكن الا حرّية الالم «Martin de SAINT - LEON histoire des Corporations et des métiers p. 764»

ولا يملك العامل المنفرد حريته اذا ما تقدّم من صاحب عمل كبير واراد ان يعقد معه « مقاولته » كند لند لانه يتقدم منه طالباً منه ان يشغله عنده وركبتاه تصطكان عندما يفكر في زوجته واولاده ليقبل مرغما شروطه التي يفرضها عليه وذلك لخوفه من تعريض ذويه للموت جوعاً . فاذا شئنا ان نمكّن العمال من التعاقد « كقرين لقرين » مع صاحب المصنع او المعهد او المؤسسة انبغى لنا أن نسمح لهم بانشاء النقابات التي اعترفت كل القوانين بحق انشائها لان تعديل شروط العمل وفق رغبة فريق واحد من المتعاقدين وبدون انذار سابق وعدم الاهتمام بما يفضي اليه تبديل هذه الشروط من بلبلة في ميزانية العامل بسبب انقاص اجرته من دون علمه وبدون ان يأخذ صاحب العمل مستلزماته الحيوية العيلية بعين الاعتبار افتئات صريح على خصائص العقود بين فريقين .

« وقد يجوز تنزيل اجرة العمال موقتاً الى اقل من حدها الحيوي اذا ما حلت بساحة المصنع ضايقة اقتصادية وذلك لانقاذه من الافلاس . اما اذا لم ينجح في تفادي الازمة وبات يبحث عما اذا كان يواصل عمله او لا فمن الواجب عليه ان يتدارك بطريقة اخرى مصلحة اليد العاملة « بيوس الحادي عشر « Quadragesimo Anno »

وللعـامل الذي يبذل حياته في المصنع الحق بتحسين اجرة عمله الذي يخوّله ان يعيش هو واسرته ومتى انقطع المصنع عن ان يكون لخدمـــة الحق في الحياة زال كل سبب لبقائه ، كما له الحق ايضـاً ان يقيم وكلاء عنه من اعضاء نقابته على ان يكونوا من ذوي الاختصاص الفنيّين الخبيرين بالمهنة لكي يستطيعوا ان يناقشوا مندوبي اصحاب الاعمـال مناقشة المطلع على الامر اما اذا رفض اصحاب المصانع والاعمال الا ان يفـاوضوا عمال مصانعهم مباشرة فما ذلك منهم الا مغـــالطة صريحة اي التمسك بعقليـة اصحاب المصنع القديم العيلي اما في الصناعات العصرية الكبرى فمثل هـذه المحاولة ليست الا تجاهلاً عملياً للتنظيم النقابي .

ومن مصلحة العامل ان يقدم مطالبه بواسطة احد مندوبي نقابته لانه يكون عادة اكثر كفاءة منه واشد استقلالا حيال رب المصنع .

ب — الاثرة المتأصلة في المنهج الاقتصادي الحر

من اركان التعليم الاقتصـادي الحر الاثرة « الانانية » الفردية النـاجمة عن مبدأ حرّية الاختيار : « ان استحكام الافكار الفردية وسيطرتها قد كانت من الاسباب الرئيسية للمظالم التي قاست اوصابها طائفة العمال وكان مسؤولا عنها اصحاب الاعمال .

« GARRIGUET » Introduction à l'étude de la sociologie P 290 »

« ان مبادىء الاثرة الفردية المشؤومة المسلم بها قد تناست « خـاصة الحياة الاقتصادية والاجتماعية » فهي الجشع الساعي وراء فائدته المفضي الى توزيع الثروات هذا التوزيع المجحف كل الاجحاف « Quadragesimo Anno N°59 »

فرب المصنع الذي يعترف بوجود الحق المطلق لا يعترف به الا على شرط ان يجد فية مصلحته وان يوجّه تجارته بخبرته من دون ان يهتم لمعرفة اذا كان هذا العمل سيخدم عماله او المصلحة العامة اولا .

« وهاك المثل على ذلك : لقد خيل الي ايجاد واسطة جديدة لانشيء معملاً صناعياً رابحاً اذ خطر لي انني لو بنيت محلاً في الوادي الفلاني حيث تتدفق المياه لاستغنيت عن دفع ثمن زيوت القوة المحركة التي احتاج اليها ولكان باستطاعتي ايجاد العمال باجور زهيدة من القرى المجاورة فهم لا شروط لهم ثقيلة وانما يقبلون الاجرة التي اعرضها عليهم وغاية مصنعي هي ان اصنع اللحف من الخرق البالية وعندما ارى ان المعمل الذي انشأته لجني الارباح التي حلمت بها قد خيب ظني ولم يأت بالفائدة المادية التي كنت اتوخاها منه اعمد الى تصفيته فاسرّح عمالي واغلق ابوابه وليس لاحد ان يعارضني في عملي هذا لانه من حقي المشروع »

هذه هي قاعدة طبيعية من قواعد النظام الاقتصادي الحرّ : اي اجتناء الربح الشخصي فقط . اما أيعتبر مشروعي نافعاً حقاً للمجتمع ؟ او هل يؤدي خدمة صحيته للعمال والمستهلكين او هل البلاد في حاجة للحف تصنع من بقايا الخرق البالية وفيها كميات من القطن كبرى فذلك امر لا تأبه له! فذريعة النظام الاقتصادي الحر وبرهانه انه من حق الفرد ان يقتنص الارباح كيف تسنى له اقتناصها طالما يجد من يشتري منتجات هذا المصنع وهو لا يحتاج الى تبرير انشائه الى براهين وذرائع اخرى .

اما — هل يجد العمال فائدة جدّية من المشروع واما حرمان قريتهم ايديهم النشيطة فذلك امر لا شأن له به طالما قبلوا باختيارهم الانضمام الى العمال وارتضوا عن طيبة خاطر بالاجرة التي تدفع لهم وطاب لهم ان يأتوا الى المدينة .

اما تعريض صحتهم واخلاقهم الى الخطر باقتلاعهم من محيط اباءهم ووسط عيالهم وبيئتهم الاخلاقية ليعيشوا في مصنع يرتادون عن طريقه الخمارة ودور السينما الخلاعية فذلك امر ليس ذا بال !

وقد يكون جواب القائلين بمبادىء النظام الاقتصادي الحر" مالنا ولهذه الاختبارات ؟ ! ونحن اذا ما اخذنا بها فما هي النتيجة التي تؤول الينا ؟ أيرومون منا مساعدات لانشاء مدرسة او لايجاد مستوصف في مدينتنا العمالية ؟ اننا احرار ان نفعل أولا نفعل وما من احد يجبرنا على ذلك .

ولئن انعمنا النظر في صحة منطق الاقتصاد الحر والمنطق القائم على الاسس الاخلاقية لرأينا الثاني اقرب جد القرب من الحقيقة الراهنة لانه يقيم حيال الطمع بالربح المصلحة العامة ويعارض سلطة التفرد المطلقة بالمسؤوليات الادبية والاجتماعية ويضع فوق انشاء المشروع حيـــاة العامل ومستلزمات الصالح العام .

ومن لا يدرك ان ادخال الالة الى المصانع لا يؤدي الى كارثة اذا كان رئيسه لا يأبه لجميع ردات افعاله الاجتماعية لكي لا يأخذ بعين الاعتبار الا ما يقتضيه التزاحم ومصلحته الشخصية ؟

ولا يسعني في هذا الباب الا ان استشهد بما روته احدى الصحف الفرنسية سنة ١٩٣٤ وذلك بمناسبة انشاء احد المراكز الجديدة لتوليد الكهرباء في كمب « Kembs » من اعمال الالزاس . فقد طرح السيد كايو « Caillau » على اصحاب ذلك المشروع الاسئلة التالية : بماذا تقدرون نفقات هذا المشروع الذي تقومون به ؟ ... بمئة وخمسين مليوناً تدفع منها الدولة سبعين والباقي اسهم وسندات ! مـــا هي المنطقة التي سيتناولها تنويركم ؟ — حتى تروا « Troyes » ست او سبع ولايات — ان في هذه الولايات مشروعـــات كهربائية سيفضي عملكم الى اقفالها ! ومـــا هو عدد العمال الذين يستوعبهم مشروعكم ؟ مئة وخمسة وعشرين عاملاً — ان ثمَّ الفاً ومائتي عامل فانكم ستلقون .منهم الفاً وخمس وتسعين عاملاً ؟ وهل يكون سعر تياركم الكهربائي ولو على الاقل ارخص من السعر الحالي ؟ هذا مما لا نستطيعه .

هذا انموذج من نماذج انشاء المحال التجارية الذي قضى على الف عامل والقاهم في احضان البطالة من دون ان يحقق اية فائدة للمستهلك ! فيا له من تطور وتقدم !

وما هو مصير العمال اذا ظل كبار رجال الصناعات يتفانون في التسابق والتزاحم بواسطة الآليات التي يزداد اتقانها يوماً فيوماً بتفوق احدهم على منافسه وبالقضاء على مصنعه بواسطة استخدام الطريقة الميكانيكية الفلانية او الفلانية ليقضي في الوقت نفسه وفجأة على ثلاثة او اربعة عمال او على تسعة من عشره منهم او اكثر ! ؟

ومهما يكن من امر فان الآليات اصبحت امراً واقعياً وان التطاحن في التزاحم لا ينفك عن ان يدفع بصاحب العمل الى استخدامها حتى اذا ظل اتقانها آخذاً بتقدمه اصبح لا يفتقر ارباب المصانع الا الى عدد قليل من العمال لانتاج ما كانت تنتجه جمهرة كبيرة منهم قبل سنوات قليلة .

ولا يعنى ارباب الصناعات ابداً بمسؤولياتهم الاجتماعية فلذلك لا يترددون ايما تردد عن احداث اي خلل كان في سوق العمل عن طريق الاستغراق في استخدام الآليات من دون اي قيد ولا شرط استخداماً قد يكونون فيه من المسيئين فعلاً الى المصلحة العامة .

وليس السبب الذي حداهم الى التسابق في استخدام الآلة الا لكون النظام الاقتصادي الحر قد جعل محوره المنفعة الشخصية وفتح باب التنافس في التزاحم على مصراعيه من دون اي اعتبار آخر كان ، فهو لا يهتم لحاجات العامل الحيوية ولا لمصلحة المستهلك والمجتمع الحقيقية حتى بات اولو البصائر واصحاب الوجدان الحي ينكرون عليه هذا المفهوم لان الاقتصاد السياسي القديم القائم على قاعدة دع الامور تجري في اعنتها لا يكفي لحل

القضايا الآخذة بالتعقيد يوماً فيوماً ولا تصلح الا ان تكون قاعـــدة علم الانتاج والاثراء على حين انه يقوم الى جانب هذه المعضلات المادية ووراءها قضايا قانونية واجتماعية . فثمة الواجب وثمة العدل .

ج — تفضيل الارباح والمنتجات المادية على الحقوق الانسانية

يقوم صاحب رأس المال في يومنا الحالي في حلقة جهنمية مفرغة بعد ان جرفه تيار الشؤون التجارية وهي تضغطه ضغطاً لا حدود له فكلما ازدادت ارباحه ازدادت اطماعه اذ انه بدلاً من ان يعمل في سبيل اسداء الخدمة النافعة قد توصل الى ان ينتج في سبيل الانتاج لا اكثر ولا اقل حتى بات البشر في وسط مادية عمياء لا قيمة معها لشيء آخر .

لقد اصبحت المادة المصنوعة تتحكم بصانعها الانسان ، وغـدت المنتجات المصنوعة هي التي تخلق الحاجات وصارت المنافسة هي التي تقرر الاجرة ، وصفوة القول ان الشؤون التجارية هي التي تسير اصحاب الاعمـــال حتى اصبح رب المصنع عبداً له لا رئيساً عليه ، ولم يتحقق كمصنع في سبيل خدمة الانسانية فغايته وهدفه لا يقومان على خدمة الانسان وانما على تحقيق الارباح وتزييد المصنوعات ليس الا .

وان توزيع العمل بطريقة التسلسل قد ارجع دور الانسان الى ان يكون آلياً وحد من ذكائه بعد ان اصبح اتقان المصنوعات وتزييد المنتجات يحتلان المقام الاول في ابتداع الآلة فالعامل الذي يخرج من المصنع الذي كان يشتغل فيه لا يستطيع ان يأتي عملاً آخر يؤمن له حياته بعد ان ارغم على ان يتقيد بصنع جزء صغير من الآلة التي يخرجها مصنعه فمن كان مختصاً مثلاً بصنع طرف مسمار فقط لا يستطيع ان يعرف شيئاً عن جملة الاداة التي يصنع ولذلك قال البابا بيوس الحادي عشر : تخرج المادة مشرقة من المصنع اما الانسان فينحط فيه ويتدنى «Quadragesimo anno N° 146»

ولقد نشأت الآلة وكان هو مخترعها واما المختبر الذي صنعت فيه فملك الصناعي الاكبر الاقوى الذي يرمي الى ان يتفوق على سواه تفوقاً لا يبدو له ممكناً الا عن طريق تحطيم القوى التي تنافسه ... فجميع وسائل نجاحه تتخذ كلها وجهة واحدة : لتتحول الى الربح لا الى الخدمة .

ولا ريب في ان تصورنا استخدام التقدم الآلي وجعل المكتشفات التي اوجدها العقل لا تعنى الا بالمادة هو تصور « اناني » وتكالب في التهالك على اجتناء الارباح ولا شيء فيه انساني اجتماعي على حين انه كان بالاستطاعة استخدام الآليات استخداماً مفيداً بالاستناد الى فكرة اعدل بالنسبة الى الفرد الانساني اي بالاستناد الى حترام حرية العامل والى انه صاحب نفس عاقلة فيقوى آنذاك هذا الفرد على بذل معظم قواه العقلية فيتذوق عمله ويندفع اليه بكل جوارحه اما الآن فقد اصبحت وظيفته من الوظائف العريقة في استمرارها وحملته على ان ينظر الى عمله على شاكلة الانسان الذي يتطلع الى جلاده .

وارباب المصانع وذوو رؤوس الاموال يحاولون غالباً الفوز باكبر كمية من الانتاج ولا يبحثون عن انتاج اصناف جديدة حتى بات من الضرورة عدم تقدير اليد العاملة التي بدلاً من ان يقوم صاحبها بعمله مستنداً الى عقله وحذقه لتحسين ما يصنع، اصبح مرغماً على الاسراع فيه لينجزه بطريقة سطحية لا تستلزمه الا اتيان حركات تكاد تكون فطرية فيه من جراء تعودها لتكون ملكة من ملكاته .

* * *

ثمَّ ضرر آخر وهو ان المصنع بدلاً من ان يكون وليد حاجات الامة اخذ يجهد جهده لابتكار حاجات جديدة كمالية مصطنعة ويحاول بطريقة الاعلانات المغرية اجتذاب الزبائن لشراء هذه الكماليات .

والتاجر الذي لا يهتم الا لجمع المغانم يتوخى اغراق العالم كافة ببضائعه حتى يأتي يوم يكون فيه التزاحم بينه وبين زملائه على انتاج بضائع واحدة مدعاة الى الافلاس لانهم ارتأوا تشييد مصانع عديدة فلم يتورعوا عن انشائها وكان انتاجها يفيض كل الفيضان عن حاجات البشر .

وقبل الحرب العالمية الاولى كانت اميركا قد تجهزت لتنتج مليون سيارة اكثر مما يستوجبه الاستهلاك العالمي وان تصنع من الاحذية ثلاثة اضعاف ما كان يفتقر اليه سكانها .

وتمشياً على قانون العرض والطلب دفع الاستهلاك لقليل المنتجات ارباب المصانع الى المطاحنة بينهم في التزاحم فاستخدموا الاعلانات المشوقة في الدعوة لشراء بضائعهم ورواجها .

وبالنظر الى الازدياد المستمر في اتقان الآليات لا بد للنفقات التي ينبغي ان نتوقعها للاطفاء بالاضافة الى ما يستلزمه تشييد المعامل من الاموال ان تبلغ رقماً من المستحيل غالباً تخفيضه بسهولة في اثناء الضائقات الاقتصادية الا على حساب العمال وذلك اذا ما رأوا انفسهم امام افلاس يتهددهم فلا يأبهون الى ما يسمى بالاجر الحيوي اما اذا ما عجز المصنع عن تأمين حياة عماله فيعمد الى توزيع خسائره على مأجوريه ويشركهم فيها اما الارباح فيوقفها على توسيع دائرة اعماله .

واذا كان دولاب الاعمال سائراً سيره المعتاد فيتعاظم دخل المعامل يوما عن يوم على عكس ما يجري في عهد الضائقة الاقتصادية لتحمل هذه الارباح الطائلة رجال الصناعة على انشاء فروع جديدة تزيد الاغراق في الانتاج وهكذا دواليك . ارباح ضخمة تفضي الى انشاء مصانع جديدة من طراز جديد لانتاج بضائع جديدة كما اتفق للحرير بعد ظهور النباتي منه فادى ذلك الى اقفال مصانع الحرير القديمة والقضاء على الحرير الطبيعي .

وفي السنين السمان قد يتحول المصنع الى منظمة جبارة وذلك بان يحشد لحسابه كل ما يلزمه من المواد الاولية مع ما يقتضي له من وسائل نقل واسباب اخرى يتصرف بها تصرف المالك بملكه .

« فالصناعي الالماني ستين « STINNES » قد تمكن بخطة محكمة كل الاحكام بترويج اعماله وبفضل الارباح التي جناها في غضون خمسين شهراً ابان الحرب العالمية الاولى من جراء صنع الذخائر ان يشتري لحسابه مناجم فحم « كوك » وينشىء لنقل موادها الطرقات الحديدية وان يشتري عدة جرائد وسفن ويؤسس مصانع الورق لتموين صحفه ويحتكر غابات عديدة لانشاء مراكبه فقفزت ثروته التي كانت خمسين مليون مارك سنة ١٩١٤ الى خمسة مليارات فرنك في سنة ١٩٢٤ .

وما وصلت معامل فورد قبل الحرب العالمية الاولى الى ان تخـــرج يومياً عشرة آلاف سيارة حتى استغنت حكما عن الوف العمال ، وقد جاء في كتابه « حياتي وعملي » « ان المصنع الجبار لا يستطيع ان يكون انسانياً » .

ولما مات كروجه ابن احد اصحاب مصانع الكبريت البسيطة خلف ثروة اكثر من خمسة مليارات .

وعندما كانت السوق الداخلية تستهلك في فرنسا من مئة وخمسين الف سيارة الى مئتي الف في السنة وكانت معامل سيتروين « CITROEN » تخرج ثلاث مئة وخمسين الف سيارة اصدرت كراساً صغيراً بمناسبة صنعها طرازاً جديداً من السيارات دعته « صالون » جاء فيه « ان مصانع سيتروين تعول اكثر من ثمانين الف عيلة » وبعد ان تدنت صادرات السيارات التي كانت سنة ١٩٢٩ تسعة واربعين الفاً ومائتين وثمانين سيارة الى ٢٦ الفا سنة ١٩٣٩ اعلنت هذه الشركة انها اصبحت مرغمة على تصفية اعمالها » .

ان المشروعات الكبرى التي تضني اصحابها بما يلازمها من اتعاب ومشقات

تدفع بهم الى الهوس وتحملهم في السنوات السمان على الاغراق في الانتاج اما في غضون الضائقات الاقتصادية فتحرم عمالها اجرتهم العدل اذا لم تجبرهم على البطالة وترغم اصحابها على الافلاس وربما تدفعهم الى الانتحار .

ولئن كان تجمع الثروات في ايدي عدد قليل فلربما كان في اميركا بين ايدي نفر اقل منهم بالاستناد الى ما ذكره ارثور بريسبان « Arthur BRISBANE » وهو احد كبار رجال الصحافة ومن اصحاب الملايين اذ قال : في الولايات المتحدة ثلاثة اشخاص تقدر ثروتهم بخمسة مليارات دولار على حين انه قبل الاغراق في الانتاج قد كان في الولايات المتحدة زهاء الف شخص من اصحاب الملايين وكانت الثروة الكبرى تقدر بمائتين وخمسين مليون دولار اما الآن فثمت ثروتان تبلغان ثمانية اضعاف هذه القيمة وهناك مئات الافراد تبلغ ثروة واحدهم ٢٥٠ مليوناً اي ان الثلاثة في المئة من الشعب يملكون نصف مجموع ثروة البلاد .

ان هذه القوة المالية التي يتمتع بها فرد واحد تدفعه الى ان يكون ذا نفوذ ومقام لم يكن ليحلم بهما فيستخدمها في سبيل مصالحه . فقد كان للصناعي ستين « STINNES » الالماني خمسون جريدة يوجه بواسطتها الرأي العام وكان اول من سعى لتخفيض سعر المارك تخفيضاً كبيراً فوراً بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى .

ولئن شاء رجال العصر الماليون استخدام ثرواتهم في سبيل مصلحة المجموع لوجب عليهم ان يكونوا من اولياء الله ولكن من نكد الدهر لقد اصبح القديسون اندر من الكبريت الاحمر في يومنا الحالي !

وهاك ما قاله البابا بيوس الحادي عشر في هذا الشأن : « ليس الذي يلفت نظرنا هو تكديس الثروات فحسب وانما استيلاء نفر قليل من الناس على قوة اقتصادية هائلة بيدها الحل والربط قد اودعت فقط في ايديهم الا

وهم منظمو رأس المال الذين يتصرفون به ».

« انها لقوة هائلة ولاسيما لدى الذين يستولون على المال : سادته المطلقين ليتحكموا باقراضه كما يطيب لهم وبحسب مشيئتهم فيكونوا كمن يوزع الدم على الجسم الاقتصادي الذي قبضوا على حياته بايديهم بشكل لا يستطيع ان يتنفس معه احد من دون ارادتهم »

« ان حصرهم القوة والموارد الطبيعية الميزة الاقتصادية العصرية ليس الا نتيجة طبيعية لمزاحمة لا تعرف هوادة ولا حدوداً لكي يظلوا وحدهم وقوفاً لانهم الاشد قوة مما يفيد غالباً انهم هم الذين اشد منافسة لكي لا يعبأوا الا قليلاً بشأن وجدانهم . « يؤدي حصر القـوة والثروة الى المكافحة في سبيل الاستيلاء عـلى السلطة الى استخدام ثلاث ذرائع : الكفاح لاحراز السيطرة الاقتصادية ومن ثم التأثير على السلطة السياسية التي يستغلون مواردها وسلطانها في كفاحهم الاقتصادي وانتقال هذا النزاع الى الميدان الدولي فالدول على اختلافها تحشد مـا لديها من قوى وسلطة سياسية اما لخدمة مصالح رعاياها واما لتستظهر بها على حسم خلافاتها السياسية » « Quadragesimo anno N° 113-116 »

والباباوات بصفة كونهم اصحاب اكبر سلطة ادبية في العالم قد حملوا على ديكتاتورية المال التي اصبحت سيدة البلدان الكبرى في عصرنا الحالي وعلى هذه الاقطاعية الجديدة السائدة لتبلغ ما بلغته من القوة وهي لا قلب لها.

وبمنطق سديد اوضح البابا بيوس الحادي عشر كيفية التنظيم المالي المثلثة الذي يدب الاضطراب في الحياة الاقتصادية والسياسية والدولية اذ قال : انها مراسيم شكلية لا مفرّ منها : فبالمال يستأثرون بالصحافة وبالرأي العام وبالمـال يؤثرون على سياسة البلاد وبالسياسة على الحياة الدولية ! فما اكثر الحروب التي كانت اسبابها المضاربات المالية !

« وفي مثل هذا المقام ظهرت نتائج الانانية الفردية في الحياة الاقتصادية فتحطمت المنافسة الحرة من تلقائها ، وقامت الديكتاتورية الاقتصادية على انقاض السوق الحرة والتطاحن على المغانم قد شغر مركزه فحلت محله اطماع السيطرة الجهنمية فاصبحت جميع الحياة الاقتصادية صعبة كل الصعوبة وقاسية لا تطاق وزد على ذلك البطالة المخوفة الناجمة عــن التباين بين الموجبات السياسية والموجبات الاقتصادية ولكي لا نذكر الا اشدها خطورة نقول : ان **السلطة قد فقدت حقوقها** بعد ان كان من واجبها ان تحكم وقد ترفعت كسلطة عليا من دون اي تحيز كان وفي سبيل المصلحة العامة فقط والعدل فلقد نزلت الى مصاف العبيد واصبحت اداة طيعة بيد جميع الاهواء والمطامع النفعية .

« في حقل العلاقات الدولية ينبثق من المصدر نفسه تياران آخران احدهما العنصرية او بالاحرى الاستعمار الاقتصادي وثانيهما الذي لا يقل عن الاول شؤماً وكراهية وهو الدولية او الاستعمار المالي الاممي القائل انى **تكن الثروة فهناك الوطن** « Quadragesimo anno N° 117 »

هذه هي الحلقة الجهنمية المفرغة التي استنكرها البابا بيوس الحادي عشر بقوة وقال في شأنها « ان وجود عدد كبير جداً من العمال الفقراء من جهة وعدد قليل جداً من الجهة الثانية وهم الاثرياء القابضون على ثروات طائلة يدل بوضوح على ايجاد الثروات بكثرة وافرة في عصرنا الصناعي ولكنها **موزعة توزيعاً سيئاً** ولم تستخدم استخداماً يتناسب وحاجات شتى الطبقات » (Quadragesimo anno N° 67).

ولقد رأينا من خلال استعراض الحالة الراهنة اخطاء النظام الاقتصادي الحر واوضحنا منشأه وافكاره الرئيسية والمظالم التي افضى اليها والمعنا الى نقد اسلوبه وزيف الحرية التي انتسب الى مسماها والى ما يلازمه من جشع

قد تاصل في مبادئه وكيف يتخذه البشر قاعدة فضلى ليتمشوا عليه وذلك من الناحية المادية لا من الناحية الانسانية وديكتاتورية المال وكفى بما يرافقه من المساوي لتقع عليه التبعة الكبرى للضائقة التي يتخبط فيها البشر .

هذا الذي كان في بلاد الناس اما في بلادنا فان الذين كدسوا الاموال واستولوا على الكثير من الاطيان لم تكن ذرائعهم بانبل من ذرائـــع الرأسماليين الاوروبيين لانه كان يكفي لنيل رضاء السلاطين واكتساب عطفهم ان يكون المنعم عليه من الماهرين في النخاسة ليحقق على نفقة الجمهور اقطاعات كبرى يذل فيها القرويين والفلاحين ويسترقهم ويستخدمهم لقضاء كل شهواته ومآربه .

ولا اقول قولاً إذاً اذا ما تصديت الى اولئك الذين قـــام نبلهم على حساب المجموع عندما حاولوا استرضاء عمال العثمانيين الذين كانوا غالباً من الذين لا يعرفون للانسانية معنى وكفى بالجزار ان يكون واحـــداً منهم لندرك ما كان عليه العدل في ذلك العهد المظلم .

فما اكثر الفلاحين الذين تخلوا عن املاكهم لزعيم كي يتفادوا عن الغزوات والضرائب ونكبات الحكومة في تلك الايام ... ومـــا اوفر عدد الذين حـــاولوا التقرب من عمال العثمانيين آنذاك باحط الذرائع واسفل الوسائل ليقطعوهم ارضاً او ينعموا عليهم بوظيفة « حوالي » جاب يتمكنون بواسطتها من انتزاع ملكية الفقراء والاستيلاء عليها . . . حتى كاد يصح بهم قول بريدهوم المأثور « الملكية هي السرقة » .

ولئن امسكت عن ذكر اولئك الذين جعلوا من انفسهم سادة غيرهم فلكي اتفادى عن نبش الداء الدفين الذي تسوّد له كثير من الوجوه سواء أكانت وجوه اشخاص طبيعيين ام معنويين .

وهل يقوى منكر مهما بلغت به الجرأة على ان يدحض تلك الوقائع ؟

أو هل يستطيع الادعاء بان مرافق البلاد المالية والاقتصادية هي الآن موزعة توزيعاً عادلاً بين افراد الامة ؟ أوَ ليس في هذا التفاوت القائم بين افراد الامة بالنظر الى ضروب النشاط الاقتصادي ما يحمل على الاعتقاد ان المصالح العامة اصبحت موقوفة على بضعة افراد ليسيطروا عليها سيطرة اوليغارشية ؟

وقد ادلى السيد دالادييه قبيل الحرب الاخيرة بتصريحات في خطاب جاء فيها ان مئتي عيلة في فرنسا تقبض على جميع مرافق البلاد الاقتصادية والمالية وقدم برهاناً على سيادة الاحتكارات بان ضرب مثلاً مآله ان مصرفي باريس وهولاندة عندهما مدراء مشتركون مع ثمانية مصارف وسبع شركات حديدية ومع شركة قناة السويس وخمس شركات تأمين على الحياة وثمانية مشروعات صناعية كبرى اي مع ٣٩ شركة ، ولا اعتقد ان تلك الاوضاع التي تخبطت فيها فرنسا قبل كارثتها تختلف كثيراً عما هي الاوضاع عندنا الآن.

وحسبنا ان نشير الى آفات هذه الاحتكارات ونمسك عن ذكر الاسماء والاحصاءات عسى في ذلك تذكرة لقوم يبصرون ليعمل عقلاء الامة على تلافي هذا التفاوت القائم بين طبقاتها درءاً لما قد يسفر عن نتائج ربما كانت اشأم مما يدور بخلدهم ! مهما بلغ مبلغ تماسكهم وتضامنهم ، وان كان لا يتم امر من الامور الا بارادتهم ووفق رغائبهم !



الفصل الثاني

لم نتورع عن الالماع الى مساوي المنهج الاقتصادي الحرّ القائم ولا حاولنا التحيز لغير الحقيقة فقد اوضحنا المسؤوليات التي تقع على عاتقه وما نجم عن تعليمه من آثار سيئة حتى شجب مبادئه البابا لاوون الثالث عشر ومن ثم خلفه البابا بيوس الحادي عشر ولم يهادنا في بيان اضراره واجحافه وما نتج عنه من مظالم اجتماعية واقتصادية .

فحيال المظالم وضروب الاجحاف والمساوي وليدة النظام الاقتصادي الحر أينبغي لنا ان ننحاز الى الاشتراكية ام الى الشيوعية عسانا ان نجد فيهما دواءنا الناجع فنتخلص من شرور الحرية الاقتصادية ؟

ان معظم الناس يميل الى الاعتقاد انه خيرٌ لهم الانحياز الى الاخذ بهذه الفكرة . فما هي الاحلام التي تعد بتحقيقها الاشتراكية والشيوعية ؟ افليست برقاً خلبا ام هي حقيقة امنيات واقعية تؤول بالانسانية الى النهوض من كبوتها والخلاص من آلامها ؟

وربما دُهش القارىء اذا ما رآنا لا نفرّق الا بعض التفريق بين الاشتراكية والشيوعية وان اختلفنا اختلافاً بينا في مناحي عدة لان انصار كل منهما لا يروم ابداً التخلي عن استقلاله في العمل مما حمل تروتسكي الزعيم الشيوعي المشهور على القول : لم تبقَ الاشتراكية تلك الاعتصابات التي كان اصحابها يجتمعون بدون رابطة بل غدت من المنظمات المستقلة التي تسير وراء اهداف معينة لتتذرع بوسائل العنف التي تمليها الثورة « مؤتمر الدولية الثالثة ٧ - ١٩ آب ١٩٢٠ »

ويلوح لنا انه بالاستناد الى هذا القول ان الشيوعية والاشتراكية ينهلان من مصدر واحد ومن البديهي انه اذا ما نظرنا الى الناحية العملية نرى انفسنا حيال كتلتين الاولى كتلة المحافظين وهي التي تستوحي عملها من اخطاء المذهب الاقتصادي الحر والثانية الكتلة الثورية الاشتراكية الشيوعية التي تعتنق الوهم القائل بان الثورة هي العلاج الوحيد الناجع للخلاص من مأزق الحالة الاقتصادية القائمة .

ولئن عرضنا الى المقارنة بين اخطاء المذهب الحر والوهم الاشتراكي الشيوعي لشعرنا فوراً بفكرة المنهج الاول الحسابية التي تنتزع عن كل عاطفة وبتحمس المذهب الثاني وبثقته بجودة الطبيعة الانسانية حماسة وثقة يتفاوتان بالنسبة الى اقتناع الانصار كما نشعر ايضاً بما للثورة من قيمة تجديدية اي اننا نشعر « بانانية » باثرة المذهب الحر وبغيرية المذهب الاشتراكي الشيوعي الذي يسعى اصحابه الى ان يبعثوا في صدر الجماهير ضربا من الصوفية يحاكي تلك الاماني التي كان يعلقها الإسرائيليون على مجيء المسيح لينقذهم مما كانوا فيه من ذل واحتقار ويعيد تشييد مملكتهم .

والحقيقة الواقعية ان كلا الحزبين يسعى الى تحقيق هدف طبقته وان ضرب صفحاً عن التصريح بذلك فالاولون يدعون انهم يريدون الدفاع عن النظام والآخرون انهم يتوخون احقاق العدل بيد ان من يحاول الدفاع عن الاحتفاظ بما في النظام القائم من مزايا لا يجد من الوجهة العملية مناصرين على قدر من ينادي بشجب المظالم واستنكار المساوي وضروب الاجحاف ، وفي الواقع ان مبلغ تعلق الطبقات الثرية بالحفاظ على مقتنياتها لا يعدل ابداً مبلغ الآلام التي تنزل بساحة العمال من جراء الجور والظلم .

واذا لم نضع فارقاً بينا بين الشيوعية والاشتراكية فلان كليهما يستمد اساسه من مبدإ المادية الماركسية ويثق كل منهما نفس الثقة بالمنهج الثوري .

ويتناول بحثنا دراسة الاشتراكية والشيوعية على الصورة التالية :
ا - اللمحة التاريخية .
ب - ما فيهما من مبادىء رئيسية .
ج - النقد .

ا - اللمحة التاريخية .

لقد كانت الاشتراكية ردة فعل على المذهب الاقتصادي الذي كان هو ايضاً ردة فعل على النظام التعاوني القديم وعلى النظرية القائلة باطلاق يد الدولة في كل الشؤون الاقتصادية .

ولقد انتقل المجتمع من النظام التعاوني القديم لانه حاول التخلص مما كان فيه من ضغط الحرية الفردية فسعى السعي الحثيث لتهديمه وكان في طليعته اولئك الهداة القادة الذين قدسوا الحرية الفردية فاعلنوا حرية المنافسة والتزاحم بدون قيد ولا شرط فافضت هذه الحرية الى سلطان رأس المال المطلق « ديكتاتورية رأس المال » .

وفي سبيل ازالة ما في النظام الرأسمالي من ارهاق ومظالم كانت الاشتراكية التي ترتأي اللجوء الى الثورة الاجتماعية لتغيير الحالة الاقتصادية القائمة .

سلطان المال المطلق

لم تنقض سنة ١٨٤٠ التي ضج فيها العمال في كل ارجاء اوروبا وانقضوا على اصحاب رؤوس الاموال حتى كتب جورج ويل (Georges WEILL) مصوراً اوضاعهم سنة ١٨٤٥ فقال : « ما بدأت الثروة العامة تزداد ازدياداً مستمراً حتى اخذ البؤس يزداد في اشتداده فانتشار الاعمال التجارية واتساع المؤسسات المالية وامتداد الخطوط الحديدية قد اوجدت عدداً كبيراً من

الثروات الجديدة الضخمة واوجدت هذه الاقطاعية المالية ، فاصبحت سوق باريس المـــالية «البورصة» الثانية في اوروبا واخذت رؤوس الاموال بالتكدس يوماً فيوماً في العاصمة الفرنسية فابتلع مصرف فرنسا كل مصارف الولايات وعندما جدّد امتيازه بدون دفع رسوم اضافية سنة ١٨٥٧ افضى ذلك الى ارتفاع اسهمة ارتفاعاً عظيماً وتحولت مؤسسات التسليف وهي مصارف نيفر « Nevers » ومارسيليا « Marseille » وباريس « Paris » الى مؤسسة واحدة ولم يبق من اثنتين واربعين شركة للخطوط الحديدية الا ست شركات شرع بعضها ينافس بعضاً .

وقد كان لبعض رجال المال المشهورين ضلع في كل الشؤون الاقتصادية، وكتب احد الاشتراكيين قائلا ان عدد الاشخاص الذين كانوا يسيطرون على الشركات الكبرى كان ١٨٣ شخصاً يستولون على عشرين ملياراً من الاسهم والسندات المالية وكانت مراكزهم كمدراء الاعمال تخولهم ان يجعلوا مراقبة المساهمين منهم في حيز العدم فكانوا يقبضون على زمام الصحافة اما عن طريق شرائهـــا اما عن طريق ارغام الحكومة على العمل لمصلحتهم لتدعوها بانذارات شبه رسمية الى السكوت عن اضرار مصارفهم. (Histoire du Mouvement social. 1852 à 1910 P. P. 16 - 17 alcan Paris 1911). فازداد تكديس الاموال وازداد نفوذ اصحابها منذ ذلك التاريخ وغدت مراكز « المدراء » لكبريات الشركات موزعة بين عدد قليل من الماليين . وحسبنا ان نقلب صفحات الدليل التجاري السنوي لتقع انظارنا على بعض هذه الاسماء وقد ورد ذكرها على التكرار كمدراء لاكبر المؤسسات التجارية .

وهذه الملحوظات والاساليب التي كانت سائدة في مطلع عهد الرأسمالية التجارية والصناعية قد كانت هي هي تقريباً في العهد العثماني وانما كانت هنا اقطاعية العقارات بينما كانت في اوروبا الاقطاعية المالية .

ولم تكن الذرائع التي توصل فيها الاقطاعيون في المملكة العثمانية الى امتلاك العقارات الواسعة الا من هذا النسيج ولقد كان لا بد من ان يسبق ايجاد النظام الشيوعي الاشتراكي رجال النظريات الذين لم يكونوا قليلي العدد فتضاربت آراؤهم واشتدت مجادلاتهم حتى كان آخرهم كارل ماركس « Karl MARX » الالماني وحتى تطورت مبادىء هذين النظامين تطوراً كبيراً وتبدل برنامجها مرات عدة تعقدت من جرائها دراستها .

وهذه المرونة في التطور قد اوضحها هنري دمان « Henri de MAN » في كتابه « ما وراء الماركسية » وطاب له ان يشبهها بتطور المثالية المسيحية المتبلورة .

وقبله قارن جوراس « JAURES » بين الفكرة التقليدية التي كان يدين بها باريس « BARRES » وفكرة التقدم الاشتراكي ومما قاله في هذا الشأن « لقد خص باريس الذين طواهم الزمان اولئك القديسين بضرب من العبادة والورع الجامدين اما نحن ايها السادة فنقدس الماضي بيد ان منهجنا لتكريم الجدود وتمجيدهم لا يقوم علـى ان ندير وجهنا نحو العصور السالفة لنحلم بسلسلة طويلة من الاوهام فوسيلتنا الحقيقية في احترامهم هي ان نتمم في اتجاه المستقبل عمل تلك القوى الحية التي اشتغلت في الغابر » .

« ان الذين كافحوا في الماضي من اي حزب كانوا والى اي معتقد انتموا وباية عقيدة كانوا يدينون قـد كانوا رجالاً يفكرون ويرغبون ويتألمون ويفتشون عن سبيل للخلاص فجميعهم وحتى الذين كانوا في المعارك منهم وان من المحـافظين كانوا بحكم الحياة التي لا تقهر قوى حركة واندفاع وتطور اما نحن فسنظل اوفياء لعملهم الماضي كما تظل الانهار امينة لمنبعها في جريها نحو البحار « ايها السادة نحن لا ننفك عن التمسك بالماضي وانما لم يكن من العبث ان سطعت تلك الاجيال بذرياتها ورهجت ، فتلك هي نحن

لانا نسير ولانا نكافح في سبيل مثالية جديدة . وتلك هي نحن لانا ورثة اثرة الجدود وقد حملنا المشعل اما انتم فلم تحتفظوا لكم الا برفاتهم «خطابه في الندوة النيابية (٢ كانون الثاني ١٩١١) .

ومن الملحوظ ان الاشتراكية اذا ما وصلت الى الحكم انقلبت الى حزب حكومي لتطالب ببعض الاصلاحات ولتقلع عن ان تكون نزاعة الى الثورة .

اما الشيوعية فقد اعتمدت الاساليب الرأسمالية بسبب الصعوبات التي لاقتها وتلاقيها لتتراجع عن المبادىء الاشتراكية شيئاً فشيئاً .

وقد استطاع غالباً وفي بعض الظروف ان يتظاهر القادة الشيوعيون بانهم من المغالين في القومية ومن المهادنين للاكليريكية وبانهم اشد تسامحاً بذلك من الاشتراكيين الذين اذا ما وصلوا الى تسنم المناصب الحكومية بدوا اشد « بورجوازية » من محافظي الاحرار القدماء ، وعلى كل فالتعليم الشيوعي يعول في جوهره على العنف اكثر مما تعول عليه الاشتراكية وكلا التعليمين يتصل احدهمـــا بالآخر كتياري نهر واحد ليكوّنا مجراه ويدفعا بالجماهير الى الثورة ولقد اقتصرنا على هذه اللمحة التاريخية العجلى بسبب ضيق المقام ولكي لا نتعدى نطاق البحث الذي اتخذنا على العاتق معالجته .

* * *

ولقد كانت بذور النظريتين الاشتراكية والشيوعية ملحوظة في بعض مبادىء الثورة الفرنسية « يولد الناس ويظلون احراراً ومتساوين في الحقوق » (اعلان حقوق الانسان ١٧٩١) .

اجل ان الثورة السياسية قد كانت تمهيداً للثورة الاجتماعية لان الاشتراكية الفطرية وجدت من افصح عنها ونفخ في بوقها على صفحات الجرائد كبابوف « BABEUF » وصحيفة « Le Père DUCHESNE » .

وفي مطلع الربع الاول من القرن الاخير كان سان سيمون «SAINT SIMON» وفوريه «FOURIER» من المبشرين بالاشتراكية الوهمية العاطفية القائلة بتحسين شروط الطبقات الفقيرة باسرع ما يمكن من الوقت .

وجاء بعدهما بريدهون «PROUDHON» (١٨٠٩ – ١٨٦٥) فلم يثق بالمثقفين فطلب من العمال انفسهم ان يأخذوا قضيتهم بيدهم لكي يتسنى لها النجاح اما منهجه فكان ناقصاً ومشوشاً فلم يشاء المناداة بنضال الطبقات لا بالاشتراكية وان اعلن ان الملكية غير مشروعة وقال كلمته المأثورة « الملكية هي السرقة » .

وثم كان انتقاض بلاندي «BLANDI» السياسي واشتراكية الدولة وكانت المصانع القومية مع لويس بلان «LOUIS-BLANC»

وقد تبلورت التعاليم الاشتراكية مع كارل ماركس الالماني واطلق عليها اسم الاشتراكية العلمية (١٨١٨ – ١٨٨٣) واتخذ اسس الدولية من المادية التاريخية : « لقد قررت الاوضاع الاقتصادية من صناعية وتجارية وانتاجية وتبادلية الحضارات والعادات والمنظمات السياسية والمؤسسات الاجتماعية » وبالاستطاعة تلخيص تعليم كارل ماركس كما يلي : « الثورة الاشتراكية وليدة العمل التطوري المحتوم . فرأس المال سائر الى ازدياد التكدس ازدياداً يفضي الى الازمات الاقتصادية واملاق الجماهير، ومقارنة هذا الادقاع الذي تكابده الاكثرية الساحقة بثروة العدد القليل الضخمة يؤول الى نزاع الطبقات نزاعاً تتفوق الاغلبية فيه ويؤتى فيه النصر للقوة الجماهيرية ذات العدد العظيم على الاثرياء ذوي القوة المالية وتصبح قوى الانتاج وموارده في متناول الجميع وتبيت الاشتراكية حتماً امراً واقعياً » . ويعتبر تعليم كارل ماركس انجيل الاشتراكية .

وقد كان من قادة اصحاب النظريات الشيوعية في فرنسا جورج سوريل « G. SOREL » الذي استمدت الفاشستية الايطالية مبادئها من نظرياته بالنسبة للشهرة التي كان يتمتع بها قبل الحرب العالمية الاولى ولاسيما بعد اصدار كتابه : «خطرات بشأن العنف» « Réflexions sur la violence » الذي غالى فيه بشأن ما تخيله من مفاعيل الاعتصاب العام ليضرم في صدر الجماهير الشعبية حماسة ثورية حقيقية شبهها بحرارة الايمان المسيحي في مطلع عهده وبحماسة جنود نابوليون الحربية ورجال الثورة الفرنسية .

ومن اقواله التي اطرى بها الاعتصابات « بوسع النقابيين ان يحلوا كل الحل « قضية تكييف نفسية الجماهير » وذلك اذا ما حشدوا كل المنظمات الاشتراكية في مأساة اعتصاب عام ... ومن الواجب ان نتخذ هذا المفهوم كوسيلة مادية عملية ... ومحصل هذه المفاهيم يشتمل على الاشتراكية برمتها » وليست الاضرابات الموضعية الا تدريب على اتيان الثورة لانها تعود الجماهير ترسيخ مفاعيل الاعتصاب العام في اذهانهم وتجعلهم يشعرون بقوتهم وتحطم ما رسخ في الذهن من العادات النفسية التقليدية « فالاضطراب الموضعي الذى نأتيه كتدريب ثوري صريح من ثمرته ان يحدد مصالح جماهير المأجورين وطرق تفكيرهم افضل مما تفعله وقائع الحياة اليومية ... فتتخذ جميع اشكال المتنافضات ميزاتها الواضحة كل الوضوح وذلك اذا ما افترضنا ان المنازعات « بين العمال وذوي رؤوس الاموال » قد توترت توتراً افضى الى اعلان الاعتصاب العام الذي يفصل الامة فصلاً صريحاً الى معسكرين « سوريل ص ٧٧٣ » « Cité par Martin Saint-Léon »

وسنة ١٨٦٤ اسس كارل ماركس في لندن الدولية الاشتراكية الاولى التي كانت تستوحى نصائحه وارشاداته ووضع بيانه الاول كما يلي : « يجب ان يكون تحرير الطبقة العاملة من صنع يديها ، والهدف الاعظم الذي تخضع

له كواسطة كل حركة سياسية ليس الا تحرير هذه الطبقة اقتصادياً » . وجاء هذا البيان بعد ان مهد له بيان ماركس انجلس سنة ١٨٤٨ يشير الى الطريق الواجب نهجها « لا يخسر الكادحون شيئاً سوى احقادهم وانما سيربحون كل شيء فاتحدوا ايها الكادحون في جميع الاقطار » .

ويحل الاشتراكيون « فكرة الطبقة العاملة التي تتشابه مصالحها في جميع ارجاء الارض محـــل فكرة الوطن ولذلك ينبغي لهذه الفكرة ان تتحقق لاعلانها حرباً شعواء على العدو المشترك الا وهو الرأسمالية » .

ولقد كانت غاية جمعية العمال الدولية « ان تصهر كل الطبقة العامـــلة الاوربية والاميركية في جيش هائل (انجلس) بيد ان القضاء على كومونة باريس سنة ١٨٧١ قضى على الدولية الاولى اما الدولية الاشتراكية الثانية فولدت في العاصمة الفرنسية واطلقوا عليها اولاً اسم دولية بروكسل لانهـا اتخذتها مقراً لها حتى كانت الحرب العالمية الاولى فبددتها واستؤنف تجديدها سنة ١٩١٩ في امستردام ومـن ذلك العهد ما برحت تتعاظم وتزداد حتى كانت تضم في مؤتمر مرسيليا سنة ١٩٢٥ اربع وثلاثين امة .

اما الدولية الثالثة او دولية موسكو الشيوعية فقد انشأهـا لينين سنة ١٩١٩ ، واذا كان ماركس قد انتقل بالاشتراكية من مفهوم وهمي الى مفهوم علمي فان لينين قد نقلها من المضمار العلمي الى المضمار العملي فحقق على رأس البلاد الروسية الواسعة حلم ماركس بديكتاتورية الكادحين .

وقامت الدولية الجديدة على تعليمي كارل ماركس وانجلس المبشرين بثورة الكادحين ، ومهمتها ان تعمم ديكتاتورية الكادحين الثورية وان تنقذ هذه الحركة مما يخالطها من العناصر الانتهازية والاشتراكية الوطنية وتوحد جميع القوى للاضطرابات في العالم لتمهد لانتصار الثورة الشيوعية في العالم كله اجمع « البيان الدولي الشيوعي الى عمال العالم برمته » .

وفي سنة ١٩١٧ سار لينين على رأس الثورة الروسية فاعلن الغاء الاملاك الخاصة وامم جميع الصناعات والاراضي واستولت الدولة عليها ونفذ تنفيذاً حرفياً برنامج ماركس المثالي وجعل العمل عسكرياً .

ومما قاله تروتسكي آنذاك «كل عامل هو جندي عمله فلا يحق له التصرف بنفسه واذا ما تلقى امراً بنقله من مركزه عليه ان ينصاع اما اذا تمرد فاعتبر كفراري من الجيش وانزلت به العقوبة» .

ولما توصل لينين الى تبوأ كرسي الحكم بسبب انهزام جيوش القيصر وبفضل الحرب اقر بالعنف ديكتاتورية الكادحين وانشأ لجنة «التشيكا» «Tcheka» وعهد اليها بمكافحة خصوم الثورة التي قدر عدد ضحاياها بـ ١٧٥٠٠٠٠ نفس .

ومنذ ذلك العهد ما برحت تتطور التوجيهات الاولية «فعقب ثورة اذار سنة ١٩٢١ عندما رفض الفلاحون تسليم محصولاتهم لتموين الموظفين والجيش» تراجعت السياسة الشيوعية تراجعاً ستراتيجياً لتدشن السياسة الاقتصادية الجديدة فعوضاً من مصادرة المحصولات اقروا الضرائب العينية واستنجدوا برؤوس الاموال الاجنبية لاستثمار ثروات البلاد الطبيعية واطلقت حرية التعاونيات .

ولقد مات لينين سنة ١٩٢٤ فاحتفلوا بدفنه احتفالاً رسمياً مهيباً وتولى مكانه جوزف دجوغا شفيلي من جورجيا واطلق عليه اسم ستالين اي الرجل الحديدي وهو في نظر الشيوعيين رجل الانقلاب الاجتماعي العالمي .

ب – المبادىء الاساسية

ان كلمة اشتراكية تلقي في الذهن فكرة الاشتراك والشيوعية توحي الى النفس معنى حياة الاشتباع – ولقد قال البابا لاوون الثالث عشر في

رسالته الرعائية « Rerum Novarum » « يحث الاشتراكيون الفقراء على بغض اصحاب الاملاك ويدفعونهم الى الحقد عليهم ويزعمون انه من الواجب ازالة كل ملكية خاصة والغاءها لارجاع ما يملكونه الى الاشتياع العام فتتولى البلديات او الدولة ادارتها ويمنون النفس انهم بتحويل الاملاك هذا التحويل وبتوزيع الثروات على هذه الشاكلة يحققون الرفاهية على السواء بين المواطنين ويأتون بالعلاج الناجع للمساوي القائمة »

وجاء في رسالة البابا بيوس الحادي عشر الرعائية « Quadragesimo anno » « لتعليم الشيوعية وعملها هدف مزدوج تسير وراءه ... على وضح النهار وبجميع الذرائع وحتى باشدها عنفاً : كنزاع الطبقات والغاء الملكية الخاصة الغاءً كاملاً ، وفي سبيل بلوغ امنيتها هذه لا تستنكف عن استخدام اية ذريعة كانت كي لا تحترم امراً ، فحيثما تسلمت السلطة اظهرت قسوة بربرية بصورة يصعب علينا ان نتصورها لغرابتها كما تنبيء بذلك المذابح واعمال التهديم التي كدستها في البلدان الشرقية الاوربية الكبيرة واسيا فهي خصم الكنيسة المقدسة – وعدوة الله اللدود . ويا له من باعث على الاسف ! ان كل شيء يبرهن على ذلك جلياً كما يعرفه الجميع كل المعرفة » « رقم ١٢٠ »

والاشتراكية المتئدة وان لم تتخلَّ تماماً عن فكرة النضال الطبقي والغاء الملكية الخاصة لتعتدل بعض الاعتدال بالاستطاعة القول - انها لم تلجأ الى اعتدالها هذا والتخفيف من غلوائها في استخدام الذرائع العنفية الا بعد ان رأت ما كانت نتائج اقرار الشيوعية فلذلك التفتت الى التعاليم التاريخية المسيحية حتى كاد يصح فيها القول انها اصبحت قريبة منها .

ومهما يكن من امر لا نستطيع النكران ان ما تطالب به يشبه شبهاً كبيراً ما يتمنى تحقيقه الذين يودّون اصلاح المجتمع وفق المبادىء

المسيحية .

« اذا عدل النضال الطبقي عن اللجوء الى الاعمال العدوانية وتبادل الحقد والبغضاء ليتحول الى بحث المصالح ومناقشتها مناقشة مشروعة سعياً الى اقرار العدل فانه يستطيع - وان لم يحقق السلام الاجتماعي المنشود الذي نتمناه جميعاً - ان يكون نقطة الانطلاق للوصول الى تعاون الحرف تعاونا متبادلا - فالحرب الشعواء التي شنت على الملكية الخاصة قد اخذت بالخمود شيئاً فشيئاً لكي تقتصر في النهاية لاعلى ملكية مصادر الانتاج نفسها التي كانت موضوع المهاجمات وانما على بعض مالها من السلطان الكبير الذي انتزعته هذه الملكية من دون اي حق كان واختلسته ، وعلى هذه الشاكلة ندرك بدون كبير تعب ان فكرات الاشتراكية المعدّلة لا تختلف ابدا اختلاف عما يرجوه ويتطلبه الذين يسعون الى اصلاح المجتمع على اسس المبادىء المسيحية » « Quadragesimo anno N^os^ 122 -123 »

ولقد حرصنا على الاشارة الى هذه الفقرة الطويلة من براءة البابا بيوس الحادي عشر لنبين لمعتنقي الاشتراكية المعتدلة ان ما تنشده هو تقريباً ما تنشده المسيحية والتعاليم الكاثوليكية وانه لا يصح لنا ان ننبذ جملة التعاليم الاشتراكية وذلك بالاستناد الى اقوال البابا نفسه .

واننا لن نحجم عن ان تتلخص من الاشتراكية ذات الشكل المشروع ما فيها من افكار رئيسية وان لم يكن الامر سهلاً كما يلوح للقارىء بسبب ما لها من اشكال عديدة ، من اشتراكية تقول بارجاع كل شيء الاشتراك الى القائلة باشتراكية الدولة الى التعاونية فالزراعية . . . اذ يبشر زعيم كل فئة منها بمذهب خاص ويدخل على المبادىء العامة بعض الاراء لكي لا يظل ثمة تعليم ثابت مستقر وانما سنة تطور لترتدي لكل اوضاع لبوسها وتلبس للاحداث التي تعيش في وسطها ما يلائمها .

ومن الملحوظ منذ بضع سنوات ان وصول الاشتراكيين الى الحكم افضى بهم الى انتهاج خطة سياسية عدلت جداً من تعاليمهم فلذلك اختلف الاشتراكيون الانكليز عن اخوانهم الفرنسيين اما الشيوعيون فلهم منهج واحد يتطور في كل الاقطار وفق خطة واحدة اما ما طرأ من تطورات على طراز الحكم في روسيا فكان جهوداً اقتضتها الاوضاع الزمانية وهذا ما يسمونه « انتهاج سياسة علمية »

ولقد اوضح زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي ذلك في قوله التالي : « في سبيل فهم الحزب الشيوعي يجب ان تتخذ نقطة الانطلاق من الواقع اي ان المتجمعات تتكيف بتأثير القوى الاجتماعية الراهنة تكيفاً لا سبيل لصده فالمجتمع الاقطاعي قد حبل بمجتمع الرأسمالية الجديد وهذا بدوره يحبل بمجتمع جديد الا وهو المجتمع الذي لا طبقات فيه : ان الحلم بمجتمع بدون طبقات تعوض رفاهية المجموع فيه عن انقسام البشر الى فئتين غنية رافهة وفقيرة مملقة ليحاكي في قدمه قدم الانسانية وقد عاد الى الظهور في القرن التاسع عشر عندما تعاظمت الضائقات الرأسمالية وجسمه البؤس تجسيماً ملموساً بحجم عظيم لتجعل المقارنة بين املاق بعضهم وثروة البعض الاخر شديدة التباين .

« اما المصلحون الاجتماعيون كسان سيمون « SAINT-SIMON » وفوريه « FOURIER » واوين « OWEN » فلم يكن بمقدورهم ان يدركوا كل الادراك القوى التي كانت تعمل عملها في قلب المجتمع الرأسمالي لانبثاق المجتمع الجديد ، اجل ان حلمهم بالتطور الاجتماعي كان راهناً ولكنهم جهلوا الوسائل العملية التي تجعل هذا الحلم ينتقل الى الواقع ولهذا السبب كانوا في عداد الاشتراكيين الوهميين .

« اما ماركس وانجلس فقد حللا تطور الرأسمالية والنواميس التي تسير

بوجبها فرأينا في انتقاضات سنة ١٨٤٨ وكومونة باريس الاشتراكيـــة العلمية التي جاءت الشيوعية تتممها .

« ان الشيوعية هي التي تتناسب مع مقتضيات الظروف القائمة لتغير شكل المجتمع فهي القوى التجددية التاريخية التي توصلت الى ان تدرك ادراكاً كاملا قيمة المهمة التي تقع على عاتقها فالحزب الشيوعي هو الحزب السياسي الوحيد الذي يرى السياسة علماً يطبقه كما يطبق المهندس علمه ولذلك يعرف الحزب الشيوعي ان يميز الهدف الاسمى للغد عن اهداف عمل اليوم .

« ومثل الشيوعيين الاسمى هو تحرير المجتمع الجديد السجين في قلب المجتمع الحالي الذي سبقه التطور التاريخي وهو لا ينفك عن مقاومته اما المجتمع الجديد فمن الواجب ان ننظر اليه من الوجهات الاقتصادية والسياسية الثلاث « . . . وهدف الشيوعيين يقوم على تحويلهم الانسانية ان تحقق بعملها في القوى الاقتصادية التقدم الذي حققوه بعملهم في القوى الطبيعية »

وعلى رغم ما يعتور هذه الاقوال من غموض والتباس يخيل الينا اننا نستطيع ان نوجز مبادئها الرئيسية على الصورة التالية :

١ – التعويض من الملكية الخاصة بالملكية الاشتراكية .
٢ – نضال الطبقات واعداد الثورة الاجتماعية .
٣ – المادية الوثنية والخطة المبينة حيال الاديان .
٤ – الصوفية الثورية .

١ – التعويض من الملكية الخاصة بالملكية الاشتراكية

يعتبر الاشتراكيون ان الخلل الجوهري في النظام الاقتصادي الحر هو في جعله المصلحة الفردية المحور الذي تدور حوله كل الشؤون ، ويقولون ان الرأسماليين لا بد لهم في سبيل مضاعفة منافعهم الشخصية من ان يندفعوا

في مضمار منافسة لا هوادة فيها فيحولوا الملكية عن هدفها الاجتماعي ويسيروها تسييراً مناقضاً للمصلحة العامة .

١ – تتفق جميع المذاهب الاشتراكية على شجب التنظيم الاقتصادي القائم لانه يفضي عملياً الى التفاوت البين في توزيع الثروات اذ يجعل من جانب فئة الاغنياء القليلة العدد لتحتكر بما تجعله الثروة في يدها من قوة وسلطان جميع المرافق والموارد ومن الجانب الآخر فئة الفقراء الضعفاء المحرومين حتى الموارد التي تؤمن لهم ضروريات حياتهم .

٢ – يرى الاشتراكيون على اختلاف مبادئهم ان نظام الملكية الخاصة والاجور التي ليست الا من بناته وحرية التنافس هي من اسباب هذا التفاوت والمظالم الاجتماعية الرئيسية .

٣ – يود الاشتراكيون الغاء الملكية الخاصة ليحلوا محلها الملكية المشتركة التي تتولاها الجماعة او الدولة او المقاطعة او الشركة ويرمون الى التعويض من جملة المشروعات الخاصة القائمة او قسم منها بمشروعات اشتراكية تتولى زمامها الدولة او المقاطعة او الشركة .

وصفوة القول ان العداء الذي تظهره الاشتراكية للملكية الخاصة والمشروعات القائمة في سبيل اجتناء الفوائد هو من اظهر ميزاتها لانها تروم احلال الملكية الاشتراكية محل الملكية الخاصة .

وهذه بعض اقوالهم في هذا الباب :

بريدهوم – « الغوا الملكية مع الاحتفاظ بالحق فيها . وبتعديل مبدئها هذا تبدلون كل ما في القوانين وتجتثون اصول الشر من الارض » مؤلفة « ما هي الملكية ؟ » تبدلون الحكومة والاقتصاد ، وعبارته في هذا الشأن « الملكية هي السرقة عبارة مأثورة »

جول كود « Jules Guesde » — « الملكية الفردية لا تستطيع ان تجد لها مبرراً لا عن طريقة وضع اليد ولا عن طريقة العمل » « لقد كانت الملكية ورغبة الانسان ان يكون ملاكا وما برحت من احد حوافز الانتاج في مجتمع جعلها شرط الرفاهية والاستقلال الوحيد وهو لا ينفك عن المحافظة على هذا المفهوم : اي انه بدون هذا الشكل لا تحترم المنفعة الخاصة الانتاج ما عدا الذين يرجون ان يصبحوا ملاكين ولديهم الوسائل التي تبلغهم هذه الامنية وهم الاقلية القليلة من البشر ، ولقد دلّل التاريخ على ان الذي حفز نشاط الانسان هو الملكية وان كانت محصورة بهذه الاقلية بيد ان نشاطها قد كان لاستعباد المنتجين واستثمارهم اكثر مما كان في سبيل الانتاج نفسه » (التعليم الاشتراكي . ص ٤٣)

كارل ماركس — « يتصل نقد ماركس للحق في الملكية بنظريته بشأن القيمة فالمنتجات المصنوعة تستمد قيمتها فقط من العمل الذي تجسم فيها ولا تستطيع ارباح رأس المال ان تتكوّن من اقتطاع جزء من اجرة العامل . »

رابوبورت — « Rapporport » — « بسبب ما في نظامنا الاقتصادي من خطأ فادح لا يقرّه عقل وما فيه من أفك لا يقره رأي سديد تتخبط الانسانية في جحيم اجتماعية حقيقية فالبشر بدلاً من ان يتعاونوا في تشييد البيت المشترك الصالح للسكن لا يهتمون الا بان يفترس بعضهم بعضاً وبان يدس احدهم السم للآخر مما يفضي الى تبذير قوة الافراد والمجموع تبذيراً مخيفاً اما الشيوعية ففي ازالتها سبب النضال والمزاحمة نفسها — الملكية الاحتكارية — فانها ستشيد مجتمعاً جديداً قاعدته الاسس المعقولة للتعاون والتبادل والاقتصاد « Précis du Communisme p. 107 »

هنري دمان « Henri de MAN » — « تهدف كل اشتراكية الى ايجاد نظام اخوي عادل او بعبارة اخرى تصبو الى تشييد نظام اجتماعي يكون

فيه الجهد العام في خدمة المصلحة العامة عن طريق الملكية العامة كما يشير الى ذلك مدلول لفظ الاشتراكية « Idée socialiste p, 376 »

وهذا هو لباب الفكرة الاشتراكية الذي لا يحول ولا يتغير في كل مراحل تطورها « هنري دمان » ان تطور الملكية الخاصة الى ملكيـــة مشتركة ضرورة لا محيد عنها لان مساوي الراسماليه لا تمكن الاشتراكية من تمهيد الطريق امامها « ولقد بلغ المجتمع الذي نعيش فيه الى هذه الدرجة من تطوره فاصبح بسبب كمية الانتاج لا يستطيع ابداً ان يرمي الى اهداف فردية او طبقية بل عليه ان ينتظم تنظيما يخوله تحطيم القواعـــد القانونية القائمة التي لم تتطور معه كما فعل سنة ١٧٨٩ ليمكن النظام الراسمالي من النمو . ولهذا السبب تبدو الاشتراكية اليـوم كحل وحيد ضروري لوضع حد للامور الراهنة في مدة ربما كانت كانت اقصر جداً مما كان يتصوره بالامس اولئك الذين لم يقدروا تماماً نتائج الحرب والثورة الروسية، فمهمتنا الجوهرية التي على تقع عاتقنا نحن الاشتراكيين الذين لم يكن لهم مثل اعلى قريباً تحقيقه ـ كما قال كارل ماركس ـ ولا يهمهم باية صورة الا ان يحققوه ـ ان تستنبط من قلب المجتمع الحالي عناصر المجتمع الجديد المكنونة فيه نواته لنعد الطبقة العاملة لمصيرها . فاذا شئنا ان نحل الحماسة للعمل محـــل شهوة الربح بالنسبة الى الانتاج واجتناب البيروقراطية التي اكل الدهر عليها وشرب وهي لا تعرف غير الخمول والاعتباطية وان لا يبتلع ربح الرأسمالي مـا كان يبتلعه بالامس ينبغي للشعب برمته ان يحيي بعقله وقلبه « الانقلاب » الكبير ويشرف عليه ، وليست مهمتنا الا ان نوقظ فيه المعنى الاجتماعي الذي ندعوه بكلمة شريفة جد الشرف « الشعور الطبقي » (SPINASSE) « محاضرته سنة ١٩٣٢ في ٢٤ شباط بالاتحاد الاشتراكي الدولي الشيوعي »

* * *

اننا لنتساءل كيف يتم تطور الراسمالية الى اشتراكية ؟

لا شك في ان المذاهب الاشتراكيه يختلف بعضها عن بعض بالنسبة الى ما تجيب به في هذا المقام على المعضلات التي يستوجبها هذا التطور .

١ — على اية شاكلة يجب ازالة الملكية ؟

ا — تقول الشيوعية بالغاء الملكية واجتثاثها من اصولها من دون هوادة.

وجاء في احـــد بيانات زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي السيد موريس توريز وذلك طبعاً بالنسبة الى مماشاة الظروف الراهنة ما مآله : « لا يريد الشيوعيون مطلقاً الغاء الملكية العقارية والتجارية والصناعية الصغيرة » على حين ان البولشفية تقول انها انتقال ضروري من النظام الراسمالي الحالي الى النظام الشيوعي .

ب — تميز الاشتراكية طائفتين مـــن الملكيات : ملكية الاستهلاك الضرورية للاحتياجات الشخصية المباشرة والتي ينبغي لها ان تظل ملكية خاصة وملكية ذرائع الانتاج « كالعقارات والمصانع والمناجم والمصارف والخطوط الحديدية والمتاجر الخ » التي يجب ارجاعها اشتراكية وتسليمها الى المجتمع او « النقابة او المقاطعة .

ج — يرى القائلون باشتراكية الدولة من الافضل الابقاء على الملكية طالما لا تستوجب المصلحة العامة التعويض عنها بالملكية الاشتراكية .

٢ — ومن يستثمر هذه المشروعات ؟ الدولة ام الجمعيات، فالاشتراكيون والنقابيون يقولون ان جماعات العمال المنظمة هي التي ستتولى ادارة المشروعات الرأسمالية القديمة اما التعاونيون فيأملون ان تلغى ويعوض عنها بشركات تعاونية من دون اللجوء الى الثورة ولا الى تجريد الملاكين من املاكهم .

٣ — وماذا يكون دور الدولة فيهـــا ؟ يبغي الشيوعيون الغاءها تماماً

كعامل اقتصادي او كسلطة سياسية ويود التعاونيون الاستغناء عنها على قدر الامكان اما الاشتراكيون فيريدون استخدامها لقلب المشروعات الرأسمالية الى مشروعات اشتراكية فلن تتعدى وظيفتها في المستقبل وظيفة المدير العام من الوجهة الاقتصادية اما القائلون باشتراكية الدولة فيعولون على السلطة التشريعية لحماية المصالح العامة والدفاع عن الطبقة العاملة وليصلحوا بواسطة الضرائب التفاوت العظيم في الثروات .

وثمت عدد كبير ومن جملتهم رجال بارزون بين الاشتراكيين يحاولون اليوم دفع التهمة عنهم بانهم ينتمون الى اشتراكية الدولة لكي لا يقال فيهم انهم من مناصري المبادىء الفاشستية ويزعمون ان مفهومهم الجديد الدولة لا صلة له بمفهومها الاوتوقراطي الذي يجعلها السيدة المطلقة .

ومهما يكن من امر اننا لنحار كيف يستطيعون التفادي عن هـــذه الشوايب في النظام الجديد وهي التي اخذوها على النظام القديم ؟

« الاشتراكية تقوم اولا على احلال النظام القائم على المصلحة العامة محل النظام القائم على الربح وثانياً هي تنظيم العمال انفسهم للقيام بالعمل امـــا اشتراكية الدولة الروسية فلا اعتبرها الا بمثابة مرحلة ربما كانت ضرورية في ظروف معينة فانا اشتراكي اذاً انا خصم اشتراكية الدولة SPI- NASSE. ibid. p. 228 »

ويتضح لنا مما رأينا ان عدداً قليلاً من الاشتراكيين يقول بالغاء كل ملكية خاصة الغاء كاملا اما الشعار الرسمي لخطة اتحاد نقابات العمال فيقتصر على طلب تأميم ادوات الانتاج والغاء ملكية الصناعات ذات المنفعة العامة.

٢ — النضال الطبقي واعداد الثورة

في سبيل النظام تحويل الراسمالي الى نظام اشتراكي لا بد من الثورة التي

يعدها نضال الطبقات الناجم طبعاً عن مساوي الرسمالية ما بسبب تضاعفه من تكديس الثروة في ايدي نفر قليل ليختصوا بما بيزهم عن سواهم وبما تفضي الى بؤس الجماهير « بوساً لا تستحقه »

وسنة ١٧٨٩ كانت الثورة البورجوازية على النبلاء اما الثورة الاجتماعية المقبلة فستكون ثورة الطبقات الكادحة على البورجوازية . فالعامل في نظر كارل مارکس هو من كان موضوع الاستثمار فلذلك كان لا بد من قيام نضال الطبقات المشروع ليؤدي حتما الى جعل الراسمالية هباء منثوراً .

ويعتبر هنري دمان « Henri de MAN » « ان نضال الطبقات يستمد مبدأه من شعور استثماري مزدوج الاول يتأتى عن فقدان التوازن بين حاجات العامل الآخذة بالازدياد وبين ما يفتقر اليه لتأمين احتياجاته والثاني عن خوفه من البطالة ومن دفع اجرة زهيدة له تنسيه بهجة عمله القديم وفرحه »

ويرى لينين ان النزاع الطبقي هو نتيجة محتومة للنظام الراسمالي وذلك بالاستناد الى تعليل كارل ماركس لنزاع الطبقات وفقاً للمادية التاريخية .

« لقد كان عملي الجديد :

ـ البرهان على ان نزاع الطبقات لا يرتبط الا بمراحل التطور التاريخي التي قررها الانتاج .

ـ يؤول نزاع الطبقات حكما الى ديكتاتورية طبقة الكادحين .

ـ لن تكون هذه الديكتاتورية الا برهة الانتقال الى الغاء الطبقات لانشاء مجتمع بدون طبقات [1] »

يفرض نزاع الطبقات بمقاومته سيطرة الطبقة الحاكمة تعليم المساواة

(1) Lénine. Marx, Engls, Marxisme. p. 208 (Bibliotheque Marxiste, aux Editions sociales internationales, 1935).

الكاملة لجميع الناس واذا ما تصوروا ذلك كان لا بد من العودة الى استئناف النظر في الفكرات التي تدين بالوطن والامة، وكان لا مندوحة عن ان يؤول هذا التصور الى قيام اممية العمال في كل الارض لان النزاع الطبقي يكون اولا لالغاء الراسمالية اذ يشعر عمال المسكونة برمتهم بانهم اشد اخاء بعضهم لبعض مما هم اخوان لاصحاب الرساميل في بلدانهم هؤلاء الاعداء الذين يأكلون اتعابهم ويستثمرونهم ليقولوا ان التعاطي مع المتاجرين بالمدافع ومع الشركات والمصارف الذين يتشوقون الى الثروة الفلانية او الفلانية في احدى نقاط الارض يشطر البشر شطراً اصطناعياً الى كتل ويدفعها الى التحارب تحارباً دورياً « وينظر العمال الى ان الحدود الجغرافية تتغير وفق مشيئة اصحاب الملكيات ولا يعتبرون الا الحدود الاقتصادية التي تفصل بين الطبقتين العدوتين . طبقة العمال وطبقة الرأسماليين « مقررات مؤتمر مرسيليا تشرين الاول سنة ١٩٠٨ ».

ان النضال الطبقي هو رحلة ضرورية حتى اذا قدر له الفوز اضمحل الرأسماليون لكي لا يبقى الا طبقة العمال وحدها وهذا الانقلاب يؤول الى توحيد الاوطان والقضاء على الحروب « ومما قاله توريز الزعيم الشيوعي المعروف : للشيوعيين هدف اجتماعي اسمى وهو قيام مجتمع لا يعرف التفاوت الاجتماعي ولا يمزقه نضال الطبقات .

« فالمجتمعات المنقسمة الى طبقات حيث الاقلية تستغل الاكثرية وتعيش على ظهرها قد ظهرت لتحل محل الشيوعية التي كانت منذ ازمان سحيقة قدميتها .

ويسعنا ان نقول بدون اغتباط ان مجتمعنا الراهن ينقسم الى طبقات هي طبقة المملقين الكادحين وطبقة المتوسطين وطبقة الرأسماليين ، وفي هذا العهد الرأسمالي الاحتكاري تتولى الاقلية الطفيلية الصغيرة كل الصغر استثمار

الاكثرية الكبيرة في البلدان الرأسمالية .

« ففي العهود الغابرة كان تقسيم الامة الى طبقات ضرورة تاريخية بسبب نقصان نمو القوى الانتاجية وافتقارهــا الى الاعمال المثمرة فآل ذلك الى التفاوت اي الى تقسيم العمل وتقسيم المجتمع الى طبقات .

« واذا كان نمو القوى الانتاجية وتقدم العمل آل الى تقسيم المجتمع الى طبقات يتفاوت بعضها تفاوتاً عميقاً عن بعض فانهما قد اعدا في الوقت نفسه زوال هذا التفاوت اليوم لان التاريخ قــد استبق النضال الطبقي اذان ازدياد طاقة القوى الانتاجية وتقدم العمل الانساني قد اوجبا ـ بعد ان جعلا من الممكن ـ قيام مجتمع بدون طبقات » .

والذي يدل على ان البشر لا يستطيعون الحياة في ظل نظام طبقي ما يقاسونه من آلام بسبب الضائقات الاقتصادية ووحشية الحروب الاستعمارية فلذلك يقتضي ان يقوم مقام نفوذ العمل الحديث نظام اجتماعي جديد لا طبقات فيه .

* * *

ويؤخذ من اقوال توريز سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي ان الشيوعيين يفهمون بنضال الطبقات انه عمل ونتيجة محتومان لسنة تطور لا مفر منها فلذلك ربما نظلمهم اذا ما اخذنا عليهم انهم يدعون الى حرب اهلية .

وقبل البلوغ الى الثورة المحتومة كما يقولون لا بد من ان يرافق النضال الطبقي اجراءات اليمة فمن الضعف وخور العزيمة ان لا نحاول ابعاد شبح هذه الثورة وان كانت الثورة الاجتماعية تبدو لهم كحرب عادلة ولا محيد عنها .

ومما قاله بول فور « Paul FAURE » : « ينبغي ان لا نخشى الشيوعية اكثر من خشية الاشتراكية اذا كانت تدل على نفس المفهوم الاجتماعي

وانا اعلم ان الجبناء تخيفهم بعض الكلمات فلفظة الشيوعية توقظ في اذهانهم قصوراً تلتهمها النار ، اجل لا اجهل ابداً ان الثورة الشيوعية والعمالية قد رافقتها احداث مؤلمة ، ولكن هل تمركزت الفاشستية بدون عنف ؟ وهل الحروب التي يهيئونها لنا هي نزهات بهجة ؟ الم تجر الاديان نفسها الدماء انهاراً فالحروب الدينية ـ وما الدين بجوهره الا تعليم محبة واحسان ـ كانت لها على طول العصور محارقها واضطهاداتها وحروبها » « Reformisme inutile »

واذا كان لا مفر من نشوب الثورة الاجتماعية بالاستناد الى ما يقوله التعليم المادي المنطقي فمن الواجب ان نستعجل اندلاعها لانها شرط من شروط التطور المجدي فلا نخش شرها .

« في المجتمع الانساني قوى حية واعني بها القوى المنتجة بعملها وفيه قوى جامدة اي القوانين والعادات التي تقف عقبات كؤود في وجه تقدم العمال وكما ان التقدم لا يتم في الطبيعة الا بالنضال والتطورات الفجائية فكذلك في المجتمع لان التقدم ليس ممكناً الا بواسطة نضال الطبقات والثورة » .

وهذا الشعار يدفع بالشيوعيين والاشتراكيين الى عدم التعويل على الاصلاحات والا يتكلموا على السلطة التشريعية والتنظيم التعاوني لادخال الاصلاحات التي يرون انها ضربة لازبة وانما يميلون شيئاً فشيئاً نحو الثورة ويعولون على العمل المباشر : الاضراب العام والثورة لكي ينزعوا ما في ايدي الطبقة المسيطرة من امتيازات واملاك على اعتبار منهم انها لا مبرر لها .

* * *

هل يجب التأهب للثورة الاجتماعية عن طريق تنظيم النضال الطبقي ؟

ان النقابات هي الاحزاب المعارضة ، وما الاضراب الا نوع من انواع التعبئة المحلية وتمرين من تمارين الطبقة العمالية الكبرى .

« لقد قيل ان الحروب الطويلة اوجدت فكرة الوطن وعززتها وكذلك الاضراب الموضعي اذا ما تواتر فانه لا ينفك عن اضرام الفكرة الاشتراكية في قلوب طبقة الكادحين ليقوي فيهـا شعور البطولة والتضحية والاتحاد ويحفظ لهم امالهم بالثورة حية على شاكلة ما يتغنون به في انشودتهم الثورية « Georges SOREL : Matériaux d'une théorie de prolétariat ».

« هو الكفاح الحاسم ـ لنوحد جمعنا منذ الغداة .. وستكتسح الاممية الجنس البشري » .

وان ما يعلقونه من امـل على توجيه الطبقه العاملة يقوم على النضال الرهيب الناشب بين العمال وقوى ذوي رؤوس الاموال في العالم برمته .
وحسبنا رؤيتهم يتبجحون بانشودة « الحرس الفتيان » « La jeune garde » لندرك مدى ما يعلقونه من امال على الثورة الاجتماعية المحتومة :

نحن فرنسا الفتية ـ شباب المستقبل ـ قد درجنا في الغصص ـ لقد اصبحنا نعرف كيف نحيا ونموت ـ واننا لعاملون في سبيل القضية الصحيحة ـ لننقذ النوع الانساني ـ ولا يهمنا ان تصبغ دماؤنا بلاط طريقنا ـ نحن ابناء البؤس وقوة ثورة الغد ـ سننتقم لامهاتنا ـ فقد استغلهن اللصوص ـ ونأبى ان نكون فريسة الجوع ـ فمن يعمل يجب ان يكون لديه خبز ـ فغداً نستولي عـلى المصانع ـ فنحن رجال لا كلاب !

اللازمـــة

انتبهوا
ايها الجلادون والاغنياء والكهنة ويا ايها النهمون
انتبهوا الى شباب الطليعة
فها هوذا الكفاح الحاسم يبتدىء
انه لاثئار لجميع الذين ماتوا جوعاً
انها الثورة بضوضائها الصاخبة
وربما اندلعت غداً

هذه هي الصورة التي يتأهبون بها للاضراب العام الائل الى الثورة والى الامسية العظمى التي يعقبها انبلاج فجر عهد جديد لينقطع ما يصل بين الاثرياء والكادحين انقطاعاً مادياً قد سبقه كما يقول سورل انقطاع ادبي ومثالي ، وهكذا يجب ان تبعث الروح الانقاضية المقبلة اعــداداً للثورة . فروح الاشتراكية مكنونة في فكرة الاضراب العام « BERTHE, le mouvement socialiste avril 1904 »

الوثنية المادية وخطتها المبيتة ضد الدين

تستمد الشيوعية والاشتراكية مفهومهما حكماً من مادية ماركس الفلسفية وهو يؤول الى نقض المبادىء الادبية برمتها وهو من حيث جوهره على طرفي نقيض والاديان اما اذا تلبس احياناً برداء التسامح الديني فما ذلك منه الا خطة مبيتة ، الغاية منها استعجال الزمان للقضاء على كل معتقد .

ويؤخذ من اقوال لينين نفسه ان تعليم كارل ماركس يتصل اتصالاً وثيقاً بمادية المدرسة الفرنسية الفلسفية للقرن الثامن عشر

« لم تكن فلسفة القرن الثامن عشر الفرنسية ولا سيما المادية الفرنسية لمناضلة المؤسسات السياسية الراهنة كما كانت لمناضلة الدين واللاهوت فحسب بل كانتا تنقضان علم ما وراء الطبيعة برمته . « LENINE, Marx, Engels, Marxime p. 15 »

ويفسر ماركس التاريخ بموجب مفهوم مادي تطوري اذ قال : «يجب ان نوفق بين العلم والمجتمع . . . بحسب القاعدة المادية . . . فتفسير اساليب علم خاص وما يعرب عنه احد الفنون والحرف بوضح عمل الانسان حيال الطبيعة اي محصل انتاج حيــاته المباشر بالاستناد الى اوضاعه الاجتماعية

ومفاهيمه العقلية المنبثق منهـا ، فالبشر يدخلون في شؤون محدودة محتومة مستقلة عما لديهم من ارادة بانتاج حياتهم الاجتماعي ، وهذه الشؤون تنسجم مع احدى درجات تطور قواهم الانتاجية المادية لوقت ما. اما جملة هذه الامور المادية فتكوّن بناء المجتمع الاقتصادي : اي القاعدة « الواقعية » التي يشيد عليها شكل البناء الحقوقي والسياسي الاسمى الذي يماشي اشكالاً محدودة من الوعي الاجتماعي « لينين الكتاب — المذكور »

ويستند هذا التطور الى المفهوم المادي المنطقي « LENINE » « ينظر ماركس وانجلس الى المـــادة كجسم ثابت او متحرك يظل مستقراً او متحركاً اي على حالتـه اذا لم نمسه ، ولا شك ان في المادة انفعالا وجموداً وفيها ايضاً قوى تحدد عملها المتماسك كحجمها وخصائصها الاخرى فالقوة المتحركة التي تدفعها الى ان تتسع بدون انقطاع تصطدم بما فيهـا من ثبات اي بقوة المقاومة ليتكوّن من ذلك نضـال وتناقض مستمرّين فيها ، ولا نعتقد ان هذا النضال مضرّ بل على العكس فهو شرط الحياة والتقدم » وقال انجلس « الحياة تناقض دائم يقوم وينحلّ : ومنذ ينقطع تنقطع معه فتمة المـــوت » « Anti — Dühring, t. I. p. 138 »

ولا يقوم هذا النضال في داخل الكائنات فقط ولكنه موجود بينها ليكون الشرط لتقدم الطبيعة العام وهو لا يتم بصورة مستمرة وانما مفاجأة وبالثورة ، والذي لا شك فيه ان كل تحول مفاجيء قد نضج تدريجاً وشيئاً فشيئاً وانما علينا ان لا نخلط بين كيفية تهيئة كيفية تحوله نفسه «M. Prenant, Biologie et Marxisme, p. 88» ومن هنا يتضح لنا ان النضال والثورة مستقران في قلب المادة نفسها ، كما يؤخذ من نظريته المادية الجدلية : ان القوة الملازمة للمادة تنشيء تقدماً مستمراً بسبب تحولات مفاجئة لردها الى مناضلة لا مهادنة فيها لجميع قوى المقاومة الداخلية والخارجيــة « Ancel, loc, cité p, p. 21, 22 »

ومادية كارل ماركس تنشىء بجوهرها مفهوماً تاماً للعالم والحياة والمعتقد بسلسلة استقراءاتها المنطقية المتماسكة على هذه الشاكلة، فتعليمه المادي للتاريخ وجدليته المنطقية الجوهريان ينقضان كل تعليم آخر ويقصيان كل حقيقة سامية ويؤولان الى الغاء كل علم ادبي صحيح لان علم الاخلاقيات لا بـــد له من ان يتطور في رأيه بحسب الظروف الاقتصادية ووقائعها .

والمعتقد الذي يعتبره الشيوعيون عقبة كأداً في وجه تطور المجتمع يدلل على الموقف العدائي الذي اتخذه ماركس حياله ويوضح الخطة الواجب انتهاجها لتذليل هذه العقبة لان كل ما هو قائم قد كان ليتغير ، وعليه ان يتطور ، اما طبقات المجتمع القائم فلا قيمة لها الا بالتطور الذي تم فيها، فعليها ان تفسح المجال لتنظيم جديد في سبيل تقدم جديد، وليست ديكتاتورية الكادحين والنظام الجديـــد الا المرحلة الاولى وطريقاً مؤدية الى نشوء مساوي جديدة ، فاذا توقفت الانسانية عن تطورها ، فذلك معناه موتها اما التساؤل عما اذا كانت الشيوعية هي من مناصري الملكية الخاصة او ضدها ام من مناصري العيلة المستقرة او ضدها ام من مناصري الزواج الحر او ضده فذلك ما لا معنى له، فهي ستحتفظ بالشكل الذي تراه مناسباً للملكية وستقلب الشكل الذي تراه غير ملائم لها وترهف الشعور القومي او انها تبشر بالاممية وذلك حسب ما تقتضيه الظروف .

ولئن صرفنا النظر عن جميع التقلبات فان الشيوعية لا تنفك عن ان تكون من اشد اعـداء الاديان السماوية ومن الد خصوم الكنيسة وكل عاطفة دينية لتعتبر ان الكون قد كان اعتباطاً فلا اله موجود وليس من حقائق طبيعية وما من شرائع ثابتة جدير احترامها لانها ترى غاية تحرر الانسانية السامية قائمة في ثورتها الاجتماعية

***

وحسبنا الاشارة الى بعض فقرات من كتاب جول كود Jules »

GUESDE » الذي اطلق عليه اسم « تعليم القانون الاشتراكي »

س - « من هو الانسان ؟ — ج ان الانسان هو الظاهرة الاخيرة من السلسلة الحيوانية لانه مركب على شاكلة الحيوانات جميعها من حاجات يسعى لسدّها شيئاً فشيئاً الى اقصى درجة ممكنة ، ومن شعائره ان يسعى سعياً حثيثاً لاشباعها اشباعاً اكمل وان يضاعفها مضاعفة اكمل . . . لذلك قد ضلّ الذين يريدون التفريق بين هذه الحاجات او جعل بعضها مشروعاً وغيرها غير مشروع . . . وليس ارجاع هذه الحاجات الى ان تكون محدودة بحجة جعل الانسان كاملاً الا اضطهاداً له « الصفحة الاولى »

س — « ما هي غاية الانسان ؟ — ج : ان سعادة كل انسان او مخلوق حيّ قائمة على نسبة القدر الذي يشبع حاجاته اشباعاً اتمّ « الصفحة العاشرة »

س — « هل ثمة حرية ضمير ؟ — ج : كلاّ ان حرية الاختيار ليست موجودة ولا تستطيع ان تكون موجودة « الصفحة الثانية عشرة »

س — « ما هي الثقافة ؟ — ج : الثقافة هي تنشئة قوى كل انسان وتوجيهها او اذا شئتم القول انها تنشئة جملة قواه العضلية والعصبية وتوجيهها نحو الخير واعني بذلك توجيهها الى ما هو اشد نفعاً لكل واحدٍ منهم وللجميع ولا يمكن ان تكون غير ذلك « الصفحة الرابعة والعشرون »

س — « ما هي الملكية ؟ — ج : ليس للملكية الفردية والملكية الاشتراكية نفسها مبرّر وذلك اذا ما فهمنا بالاشتراكية مجموع البشر في كل الارض في زمان معيّن « الصفحة الثامنة والثلاثون »

اما العيلة فمصيرها للزوال اذا لم تتجدد في شكلها وتكوينها ! وليس

بالاستطاعة البتّ في هذا السؤال بتاً حاسماً . . . اذ من المحتمل وان تجددت ان لا تكون ضرورية الا لزمن ما ، وسيجيء حين من الدهر لن يبقى لوجودها مبرّر . . . ومن المحتمل ان ضروب العطف والمحبة التي تحيطها بها وقد عززناها في اتجاه مشترك عن طريق تساوي افرادها في ترادف الفوائد قد تجعلها بدون جدوى . وربما خوّلنا ما يناط بها من مهمات ان نقصر مدة عملها على الام والوالد طوال زمن الرضاع اما العلائق الجنسية بين الرجل والمرأة القائمة على الحب والعطف المتبادلين فقد تصبح طليقة « لتتغير وتتعدد بنسبة الصلات العقلية والاخلاقية بين افراد جنس واحد او جنسين مختلفين »

فهل يغيب عنا بعد ما يعد به المجتمع المقبل : من الغاء العيلة واباحة الحب الطليق ليقوم هذا البناء الاجتماعي الجديد على قواعد اخلاقية قوامها الفردية والعيلية والاجتماعية . وعلى اساس مادي من دون ان يكون له افق يطل على ما وراء هذه الحياة وعلى الله .

اجل انها لمجموعة قواعد دينية معكوسة تقضي قضاء مبرماً على جميع المبادىء الادبية الطبيعية الدينية .

« تنعتنا « البورجوازية » غالباً نحن الشيوعيين باننا ننكر جميع مبادىء علم الاخـــلاق ... أفتدرون في اي معنى ننكر مبادىء الاخلاق وعلم الاخلاق نفسه ؟ اننا لننكرهما في معناهما « البورجوازي » الذي يجعل مصدرهما الله ، فجميع هذه المبادىء الاخلاقية المستمدة من مفاهيم بعيده عن الشؤون الحيوية وعن الانسانية نفسها لا نستطيع الا نكرانها اما المبادى الاخلاقية التي ندين بها فخاضعة كل الخضوع لمصلحة الطبقة الكادحة ولما يقتضيه النضال الطبقي .. فمبادؤنا هذه هي التي يصح استخدامها لتحطيم مجتمع المستثمرين القديم ولحشد كل العمال في سبيل ابداع المجتمع الشيوعي الجديد » .

« ان بين توجيه الخطة الشيوعية المرسومة وبين ما يامر به الدين من وصايا متناقضات لا نشعر غالباً بها فالشيوعي العامل وفق توجيه الحزب لا يستطيع ابدا الاقرار بما تعلمه الاديان اما اذا اراد التوفيق بين خطة حزبه ومعتقده الديني فينقطع عن كونه شيوعياً » .

ولقد قال لينين : « الدين افيون الشعب ... وضرب من الكحول الذي يغرق فيه العبيد صورتهم الانسانية وما يتطلبونه من حياة جديرة بكرامتهم »
« Œuvres complètes. t. VIII, p. 520 »

« ان ضروب الاوبئة المعدية وانواع العنف وشتيت الارجاس والادناس ليخشى شرها اقل مما يخشى شر الفكرة المرهفة في دقتها المحكمة في تنقيرها والغامضة كل الغموض الا وهي فكرة الله ، ان الماركسي هو مادي محض وبوصفه مادياً هو عدو ازرق لكل دين »
« Cité par le BEZBOJNIK septembre 1935 »

وجاء في جريدة البرافدا ٢١ حزيران سنة ١٩٣٥ : « لا مهادنة مع الدين ومع مروجي العقائد الدينية التي لا يستصوبها عقل ومع الاكليريكيين الذين ما فتئوا يلقحون جماهير العمال بسمومهم فالحزب الشيوعي لا يقوى الا على ان يواصل محاربتهم حرباً شعواء .

وجاء في الفقرة الثالثة عشرة من برنامج الحزب : « لا يمكننا ان نكتفي بالقاعدة التي سنتها الديموقراطيات القاضية بفصل الكنيسة عن الدولة «فالحزب يرمي الى تفكيك الصلة التي تربط طبقات المستثمرين بعضها ببعض والى تحطيم الدعاية الدينية المنظمة تحطيما كاملا وذلك بان يساهم بتحرير الجماهير العاملة تحريراً حقيقياً من الاوهام الدينية عن طريق تنظيم دعاية ثقافية علمية كبرى تنقض الدين . »

ومن منهاج الكومنترن الدولي الشيوعي : يجب ان تشمل الثورة

الثقافية اعظم الجماهير عدداً وان يحتفظ فيها بمكان خاص لمحاربة افيون الشعوب الا وهو الدين ، محاربة منهاجية ومن دون مهادنة .

***

ونعتقد ان فيما ذكرناه من الاقوال المستقاة من مصادر الشيوعية نفسها كفاية لتحملنا على الحذر من بعض ما نشهده من تسامح ديني ربما يكون صادقاً عند بعضهم اما المتضلعون بالمبادىء الشيوعية فيعتبرونه من خير الخطط المرسومة حيال الكنيسة القديمة التي ينبغي لها ان تموت حتف انفها.

ومما صرح به سبيناس « SPINASSE » في احدى محاضراته : ان بين الاشتراكية والكاثوليكية سدول الماضي فينبغي لنا اذا شئتم ، ان نسقطها الواحد تلو الآخر ، فانا لم اياس معكم من بلوغ هذه الامنية ... ولقد كنت افكر دائماً شخصياً واقول انني لا ارى تناقضاً بين منهج الانتاج الذي ندعوه اشتراكياً وبين الوضع الاجتماعي والنظام الاشتراكي القائم والمعتقد الديني سوى ذلك الماضي بمناضلاته السياسية القديمة وذلك الوضع الاجتماعي السابق حيث كانت الكنيسة تتظاهر غالباً بدعم الحالة الاجتماعية الراهنة فمن الواجب ان نزيل هذا من عقول الناس وان نخفف من غلوائه » .

ومؤدى ما نقله جان كوست «Jean COSTE» «Le Bolchevisme » Beauchesne p 240 » للكنيسة في المجتمع » البورجوازي قوة التأثير على الرأي العام بسلطانها الخاص ، فان هذا الامر لم يعد ممكناً بعد ان وصلت البولشفية الى الحكم لان الحقل العام قد استأثرت به وحدها ، ومع الزمن لن يسمح للكنيسة ان تأتي عملا بصفة كونها وحدة اجتماعية ، وها هي ذي تتراجع شيئاً فشيئاً حيال خصمها البولشفية التي تسعى تدريجاً لتحل محل كنيسة المسيح وتجعلها بدون جدوى وتحتل مقامها »

وفي احد فصول الكتاب الذي وضعه لينين «حول موقف الحزب من الدين» والخطة التي عليه انتهاجها معلقاً على كارل ماركس وانجلس «الصفحة ٢٤٦» قال : الشيوعية تقوم على الماركسية : الاجتماعية العلمية وقاعدتها الفلسفية هي المادية، وشجب كما شجب انجلس تلك المحاولات التي كان يتظاهر بها المتطرفون اليساريون الثوريون من الاشتراكيين الديموقراطيين لانهم كانوا يريدون ان يدخلوا في برنامج الحزب الاعتراف جهاراً بالالحاد اي باعلان الحرب على الدين .

ومما قاله انجلس بمناسبة بيان لاجئي «كومنة» سنة ١٨٧٤ «والبلانكيين» مشايعي مذهب «بلان» المهاجرين الى «لندن» : ان اعلان الحرب بهذه الصورة على الدين هو من خير الوسائل لتقويته وجعل موته اشد صعوبة «فمن الجهالة حمل الجماهير العاملة في نضالها الطبقي الآئل الى تحريرها من نير الدين المرهق على ان يمارسوا عملهم الثوري العنيف ضده»

«فبيسمارك نفسه الذي وضع في رأس برنامجه التفريق الديني بدلاً من التقسيم السياسي بنضاله «Kultukampf» لم يثبط عزائم الاكليريكيين الكاثوليك بل شحذها واضر بقضية الثقافة الحقيقية لانه حول انتباه بعض طبقات العمال والديموقراطية عن المهمات الجوهرية التي يشتمل عليها النضال الطبقي الى عداء الحزب الاكليريكي تحويلاً سطحياً كان من اشد ضروب الافك «البورجوازي» ... وطلب انجلس بالحاف من حزب العمال ان يتفرغ الى تنظيم الكادحين وتثقيفهم متذرعاً بالصبر ليؤدي صنيعهم الى الغاء الدين وذلك بدلاً من ان يزجوا بانفسهم في مغامرات سياسية ضده «Programme d'Erfurt 1891»

وهل يعزب عنا بعد ما في هذه الخطة الصامتة من نيات مبيتة حيال الدين وان كانت ناعمة الملس بما تتظاهر به؟ ومن اقوال لينين في هذا

الباب : من الخطأ اعتبار الدين « كشأن خاص » لان الاشتراكية بجوهرها لا دينية وتناقض كل فكرة من افكاره ولا تعتبر اي علم كان من علوم ما وراء الطبيعة العقلية .

« فالماركسية والمادية هما لادينيتان ويعارضان الدين معارضة مادية لا هوادة فيها كما كان « انسكلوبودي E NCYCLOPÉDISTES» القرن الثامن عشر... اجل من الواجب اعلانها حرباً شعواء عليه فذلك من اول مبادىء كل مادية وماركسية. اما الثانية فلا تقف عند هذا الحد من المبادىء بل تذهب الى ابعد لتقول علينا ان نعرف كيف ينبغي لنا ان نحارب الدين فلذلك لا بد ان نفسره للجماهير تفسيراً مادياً ونقنعهم بانه يستمد منشأه من منبع مادي وعلينا ان لا نقصر نضالنا علـى التبشير المثالي الغامض بل ينبغي لنا خاصة ان نربط هذا النضال بحركة العمال الحسية الرامية الى اجتثاث جذوره الاجتماعية « لقد ابدع الخوف الخالق » « فالخوف تجاه القوة هو اشد عماية من رأس المال » .

وايما استولت الشيوعية على السلطة عمدت الى استخدام جميع الذرائع سواء اكان ذلك من حيث الوجهة الثقافية ام من حيث الوجهه الفنية لمحاربة الاديان ، وقد جاء في مجلة الحياة الفكرية في عددها العاشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٦ الصفحة ٣٦٨ تحت عنوان « القضية الدينية والرئيس لازار كارديناس في المكسيك » ما يلي : وضع الرئيس كارديناس نهجاً مدرسياً اطلق عليه اسم « Campagne défanatisatrice » وهو يشتمل على خمسة وستين درساً من واجب المعلم ان يوسعها امام طلابه الصغار بالوسائل الحسية التي تتناسب ومداركهم العقلية : ومنهـا الدعاية ضد الاديان بالقوة : الكنيسة تستصوب التقسيم الطبقي ، الكنيسة تعاون الارستوقراطية ، الكنيسة تحارب تطور الدولة ونشر التعليم .

وهاك نموذجاً من تلك الدروس القي في معهد تاباسكو «Tabasco» وهو من المعاهد التي تستخدم الطريقة الاستدلالية .

- قالت المعلمة لطلابها الصغار - غداً ستؤمون مدرستكم من دون ان تتناولوا طعام الصباح .

وعندما عاد الطلاب في غداة اليوم الثاني وهم صائمون استولت عليهم الدهشة لما رأوا في صدر - ردهة التدريس صورة المسيح مصلوباً - وما كاد يستقر بهم المقام حتى اصدرت المعلمة امرها قائلة لهم فليركع الاولاد الكاثوليك فاطاع الاطفال - فاستأنفت كلامها وقالت فليطلب كل منكم من يسوع ان يعطيه طعامه وصلوا « ابانا » فنفذ الصغار امرها واردفت تقول :

- ألم يعطكم شيئاً - فاجابها الصغار بسذاجتهم : كلا ايتها الآنسة !

- كرروا اذن طلبكم فربما لم يسمعكم واتلوا ايضاً « ابانا » .

واستمرت تلقي مسرحيتها هذه الباعثة على الشجى حتى تسرب الشك الى انفس اولئك الاطفال البسطاء .

ولما تيقنت بنجاح مهمتها ترنحت تيهاً وكبراً وتابعت تمثيل روايتها واسمعت الصغار ثناء على الرئيس كاردنياس وختمته بالعبارة التالية : اطلبوا منه ان يعطيكم طعامكم ، وما اتمت كلامها حتى كان الطعام المعدود من ذي قبل عن سابق قصد وتصميم لتستخدمه ذريعة اقناعها في هذه المهزلة ، بين ايدي الصغار . وعلى هذه الصورة تثابر الدولة على مناضلتها للدين بحسب خطة مرسومة منظمة باندفاع لا يهادن لتستخدم جميع الذرائع الحديثة من دور السينما الى الصحف فالنشرات فالمدارس فجمعيات منكري وجود الخالق ، ولا تستنكف عن ان تستعمل سرا اشد ضروب الاضطهاد حياله واذا ما رأيناها تنتهج خطة التسامح فان خطتها لتشتمل على هدف صريح

الا هو تحطيم كل الاديان وبخاصة الكنيسة التي لم يتركوها - كما قالوا - تموت حتف انفها بعد ان تضاءل في نظرهم نفوذها فشددوا النكير عليها وحاولوا ان يعوضوا من مفاهيمها « العقائد والمبادىء الاخلاقية » بصوفية جديدة ، واذا كان الكثيرون من مشايعي الاشتراكية قد انصرفوا عن مناهضـة الاكليريكية القديمة كما كانوا في الماضي فان منطق تعليمها المادي لا يستطيع ان يتوخى الا القضاء على الدين قضاءً مبرماً .

٤ - **الصوفية**

ادرك الاشتراكيون والشيوعيون انه ما من شيء يُطوى الا ليحـل جديد محله فلذلك زعموا انهم قد اعدوا للجماهير صوفية ثورية .

ا - يبعث الشيوعيون في افئدة مناصريهم املاً يكاد يكون سبيل خلاص الانسانية الوحيد ويحملونهم على ان يعلنوها حربا لا هوادة فيها على مساوي الحالة الراهنة لوضع حد لها وتحقيق سيادة الكادحين وقد جعلوا قانون ايمانهم على الصورة التالية : « اني اؤمن ايمانا وطيدا لا يتزعزع بان المعصية الكبرى والشر العظيم اللذين ينبغي لي ان احاربهما بكل ما اوتيت من قوة هما استثمار الانسان للانسان واستغلال رأس المال للعمل المنتج والاجور لادأب في جعل ملكية الانتاج ملكية مشتركة ليكون لكل فرد الحق فيها .

فايماني الراسخ بان الجنة هي هنا وليس من نعيم سواها وانا حريص كل الحرص على ايجادها بواسطة مجهودات الطبقة الكادحة المتألمة التي سيقدر لهـا الظفر عن طريق نضال الطبقات نضالا لا هوادة ولا مهادنة فيه ليضع حداً للحالة الراهنة ويتوجها بديكتاتورية رهيبة تسحق سحقاً جميع اعدائها ولن تبقي على احد منهم ، وايماني وطيد ايضاً بان انسان العالم الجديد سيكون

صالحاً بطبيعته التي افسدتها الراسمالية القائمة بما انشأته من منظمات ملكت عليه مشاعره ليقول هذا لي وهذا لك .

ومما لا سبيل للريب فيه ان هذا الانسان سيرى ذاته قد تبدلت نفسيته عندما يتأكد ان كل ما يفتقر اليه اصبح مؤمناً فيقلع عن التفكير في السعي وراء اجتناء الارباح وتكديس النقود وعندئذ تتعزز فيه الفضائل الاجتماعية عن طريق تأمين الخبز والسلم والحرية .

« وانا على ثقة بان ذلك العهد لن ينبثق فجره الا بفضـــل مجهودات الجماهير الشعبية المنظمة العامة وبفضل المثابرة على مقاومة رأس المال : عدوه الازرق ومقاومة كل ما من شأنه اضعاف شعور الطبقة الكادحة والدعوة الى التعاون مع « البورجوازية » وجميع ما يرمي الى اصلاح آني مسكن . . اي بمكافحة جميع هذه الاسباب او السم الناقع الذي يضعف عزيمة الطبقة المناضلة ويؤخر ميعاد الثورة بنت البؤس والجوع كما قـــال بريدهوم « Proudhon » فانا احب طبقتي واخلص لها كل الاخلاص واكره كل من لا ينتمي اليها وكل ما يجعلني افكر في الاغنياء وعذوبة العيش ورخائه « بورجوازي » واني اكره على وجه اخص كل ما يزعمونه قوى روحية يقيمونها عقبة في وجه الكفاح لتخفيف وطأة المعارضة كما انني امقت ما يسمونه علم الاخلاق « البورجوازي » والدين « افيون الشعوب » وانبذ الكهنة .. ان هذه الامور هي التي سادكها لكي لا تعود ابداً الى الوجود فتسمم الشعب لاطمئن بالاً ولن يساورني ابداً الخوف بعد ذلك فارقـد رقدتي الاخيرة في العدم » .

والذي لا مراء فيه هو ان ايماناً على هذه الشاكلة ودعوة الى صليبية لا تعرف ملاينة يتطلبان من الشيوعي المؤمن جملة استعدادات نفسية كان

خير من حاول تحليلها تحليلاً دقيقاً الاب انسل «Ancel»[1] .

ومما يؤخذ من الروايات الشيوعية ان نفس المؤمن الشيوعي المقبلة هي نفس متألمة قد ارهف وعيها ما تعانيه الطبقة العاملة مـــن اوصاب ... نفس ثائرة على الوضع الراهن تضمر الكره لجميع الذين كانوا من المسؤولين عن قيامه كرهاً صريحاً وغير صريح وهي ترغب مهما كلفها الامر في تبديله فلا تلين لها قناة في مناصبته العداء وتؤمن ايماناً وطيداً بجدوى عملها .

ولما كان هذا الشيوعي الحقيقي بافتقار الى من يعضده ويعلمه ويتولى زعامته في سبيل الوصول الى الانقلاب المرجو والى ترسيخ العقيدة في صدره فقد اكتشف له لينين جميع هذه الامور في كتاب رأس المال الذي وضعه ماركس بعـــد ان انصرف بكليته الى استنباطها وسار في طليعة الحزب الشيوعي حتى اذا ما انقضى بعض الوقت عـــلى غرس مبادىء المركسية والتثقيف بها غدا مشايعه ثورياً صحيحاً وذو عقيدة لا تتزعزع تؤمن ايماناً لا شائبة فيه بكل اقوال ماركس وقد صهرت نفسه صهراً جعلها ابيـــة كريمة ليوقفها برمتها على خدمة الحزب « وهو مخلص للثورة ومالك قياد نفسه لا يحجم عن اية تضحية كانت ولا يتردد ايما تردد عـــن القيام باعمال البطولة » راجـــع الصفحة الرابعة عشرة من كتاب لينين . « Maladie infantile du Communisme »

فالمجاهـــد الشيوعي تتملك نفسه فكرة الثورة التحريرية تملكاً تصوفياً ليحرمها كل شيء في سبيل انجاح قضيته فهي مقيدة بالنظام لتقبل بطيبة خاطر الخضوع خضوعاً اعمى لانه ضروري، فنفسه قربان وإنه وان كان يعلم بانه لن يتأتى له رؤية الظفر الحاسم فيكفيه التفكير في ان ارباحه ستخدم الطبقة الكادحة لتصل الى الجنة الارضية وهذا التفكير وحده كاف ليحفظ فيه حماسته .

(1) Ancel, Dogme et morale Communistes p. p. 73 - 75 F. N. C.

ب - يعتقد الاشتراكيون انهم اذا الغوا الملكية الخاصة واسباب السعي وراء الربح الفردي ازالوا السبب الرئيسي في المنازعات والخصومات فالمال في نظرهم المصدر الوحيد لما يسود العالم من تشويش واضطراب ومفاسد ولذلك يقول الاشتراكي المقتنع :

« في اعتقادي ان مجرد الغاء وسائل توفير المال يؤول الى ايجاد مبادىء اخلاقية سامية وانا مقتنع بان الناس سيترفعون عما هم عليه وسيتخلصون من كل ما هو حيواني في طبائعهم يدفعهم الى اتيان اعمال وافعال وتبني منهج حيوي وطراز معيشه تقوم غالباً على طرفي نقيض مع الاخلاق المناقبية » « SPINASSE conférence citée p. 232 ».

ولئن تبدلت عادات المفهوم « البورجوازي » العيلية القديم بالاستناد الى الايمان المادي بالتطور التقدمي المستمر فيعتقد كارل ماركس اننا سنصل الى ايجاد **شكل اسمى للعيلة**.

« ستخلق الصناعة الكبرى بما تفرضه حتماً باساليب الانتاج المنظمة اجتماعياً خارجاً عن نطاق العيلة على النساء والمراهقين والاحداث من الجنسين قاعدة اقتصادية جديدة لشكل عيلي اسمى ، ومن البديهي ان اعتبارنا لشكل العيلة الجرماني المسيحي هو شكل لا يقره العقل كمثل اشكالها الرومانية واليونانية والشرقية القديمة التي تؤلف سلسلة ادوار تطور تاريخية متتالية LENINE » Karl Marx p. 40 »

ولا يرتاب الاشتراكيون في ان الانسان سيكون اوفر سعادة واشد فضيلة في مجتمعهم الجديد . « ان هدفنا هو انشأ مجتمع يكون البشر فيه ادوات وغاية في آن واحد بحيث يشعر كل عامل شعوراً كاملا باشتراكيته وحريته الكاملتين وتنسجم المتناقضات التي رأهما بريدهوم في جميع الاعمال الاقتصادية فتخفف الالة متاعب الانسان من دون ان تخلق البطالة وتعزز

توزيع العمل والثروات من دون ان نزيل مـــا فيهما من جمال
« SPINASSE, Conférence cite p. 224 »

* * *

ولئن حاولنا على قدر المستطاع ان نسبغ عـــلى هذه اللمحة خير مظهر من مظاهر الاخلاص فثمة امور اخرى لا مندوحة لنا عن التساؤل عنها اذا ما شئنا ان ندرك ادراكاً اكمـــل تعليم الشيوعيين والاشتراكيين! فما هو هذا المجتمع المقبل؟ ومتى يتم تحقيقه؟ وكيف يكون ذلك؟

«الاشتراكية بنت الحوادث نفسها. ولئن سألتموني عن عملها في الغد؟ فاقول لكم انني لا اعرف عنه شيئاً بالضبط! واذا ما فرضنا انها ستتبوأ غداً مقاعد الحكم في البلدان الكبرى ذات الحضارة الصناعية فانا اجهل كل الجهل اذا كان في مقدورنا ان نبدّل فوراً طريقة الانتاج او ان نحقق واحداً في المئة او واحداً مـــن عشرة او ربع البرنامج الاشتراكي. فنحن سنأخذ الامور كما تكون، واني لاجسر على القول اننا سنأخذ الافكار كما هي: ولا ادري مطلقاً اذا كانت ستستمر بعض اشكال النظام القائم او النظام الراسمالي او بعض اشكال النظام الاقطاعي قائمة وقتاً طويلاً في نظام اجتماعي اقتصادي جديد كما هي قائمة الان بعد مرور قرن ونصف القرن على ازدهار النظام الراسمالي: ان الاشتراكية تنبثق من الحوادث»
«SPINASSE, p. 226 »

وان تطور المجتمع المقبل سيعرف التقدم والتراجع.

ولقد اسبغ اشد الاشتراكيين اعتدالا كهنري دمان مثلا « HENRI de MAN » على ثورتهم مظهراً ادعى الى الطمانينة من المفهوم الجائر الذي يتصوره معظم الشيوعيين.

« أأنا مؤمن بالثورة ؟ نعم انا مؤمن بها وكلما تقدمت في السن كلما شعرت بنفسي ميالا اليها وتضاءل ايماني بها !

فانا ثوري لان الانتقال من النظام الراسمالي الى الاشتراكي لن يكون من دون حرب شعواء بين مبدئين حقوقيين لا سبيل للتوفيق بينهما . . . فعلى قدر ما يتأصل فيّ الشعور الثوري اراني ابتعد عن مفهوم ثورة سطحية ابداعية « رومانطيقية » تحاول ان تقحم النشوء عنوة وتقلب مجراه فجأة مع انه لا بد له من الحرية والوقت الكافي ... ان تغيير العادات لاشد صعوبة من تغيير القوانين ونحن في افتقار عظيم اليه... ان التبديل الذي يتطلبه هذا النشوء لا يلائمه العنف الذي لن يفضي فقط الى احداث ردة فعل لدى من يكابده بل الى افساد اخلاق من يتذرع به
« HENRI de MAN, au-delà du marxisme page 389 »

وقبل الفراغ من هذه اللمحة المقتضبة التي تصدينا فيها الى تعليم الاشتراكيين والشيوعيين لا نرى لنا مفرا عن الالماع الى ما يختلف حوله اصحاب نظرياتهم من نقاط .

وقصارى الكلام تنحصر روح المنهج الثوري في نقاط رئيسية اربع وهي التعويض من الملكية الفردية بالملكية المشتركة « الاشتراكية » ونضال الطبقات .واعداد الثورة اعداداً فعلياً والاستناد الى المادية وحدها لتحويل المفهوم الاجتماعي الى مادية وثنية تحل محل الدين فتدعه يختلج خلجته الاخيرة ليموت وفق الخطة المرسومة لموته فتقوم الصوفية التي تثق بصلاح الطبيعة الانسانية وفائدة التطور الاشتراكي مقامه وذلك لاذكاء ايمان المجتمع فيستشعر بعض الاستشعار او الاستشعار كله تقدمه الدائم الذي لا بد منه .

٣ - مواطن الخطل في النظريتين .

ماذا يسوغ لنا ان نفكر في منهج الاشتراكية الشيوعية الذي اكتسب

عطف قسم كبير من الطبقة العاملة على ما يخيل الينا ؟ فاذا كان هـذا المنهج قد بشر طول مئة عام ونيف ببزوغ فجر اقتصاد جديد فهل في مقدوره ان يصلح مساوي النظام الاقتصادي الحر ؟ وهـل يكون عمله افضل من عمله ام شراً منه ؟ والعلاج الذي تصفه « الاشتراكية » ايكون شراً من الداء الذي اشفاه المنهج الحر « وليس هذا الداء الا الانانية » .

ويلوح لنا انه لا يخلوا من الفائدة قبل الشروع ببيان مغالط التعليم الاشتراكي الشيوعي ان نميز بين ما يسمونه الاشتراكية العاطفيـة والاشتراكية العلمية .

١ — التميز بين هاتين الاشتراكيتين .

٢ — بيان مغالط التعليم الاشتراكي الشيوعي .

ا — التميز بين الاشتراكية العاطفية والاشتراكية العلمية

تتناول لفظة اشتراكية من الوجهة الواقعية معاني شتى فهناك الاشتراكية الرسمية التي درسناها بالاستناد الى تعاليم بريدهوم وكارل ماركس وكود وجوارس وهنري دمان وسوريل وسبيناس الخ ... وهي الاشتراكية العلمية المنطقية التي لا تعترف بوجود عيلة ودين ووطن وتقوم مبادؤها على الغاء الملكية الخاصة ونضال الطبقات وثمت الاشتراكية العاطفية التي يتوخى ذووها قيام العدل بين البشر عدلاً خيراً مما هو عليه وقيام مساواة افضل من المساواة الراهنة وان يحب الناس بعضهم بعضاً حباً اتم واوفى .

لا شك في ان العامل العصري الذي مضته مظالم النظام الرأسمالي الواقعية ينظر الى التكوين العالمي نظرة مفعمة بسوء الظن ويعتقد ان قيامه على هذه الشاكلة فاسد لان المكانة التي يحتلها منه قد ارهقه كابوسها وضيقت عليه جد الضيق سبل الحياة الرافهة فيتوق من صميم فؤاده الى ان يتناول عن

عمله اجراً يكون اشد عدلاً وان يحتل مقاماً لا يتفاوت الا تفاوتاً قليلاً عن مقام صاحب العمل ليحيا في وسط يسوده اخاء الاجتماع !

ويغلب على ظننا ان الكثيرين ممن يقولون عن انفسهم انهم اشتراكيون ويعتقدون في داخلهم ان الاشتراكية تنحصر في هذه المطالب التي اشرنا اليها ليسوا الا على شاكلة هذا العامل حتى اذا فندنا امامهم الانجيل الماركسي او تعليم كود استولت عليهم الدهشة واسقط في يدهم .

ولقد جرت عادة القادة الاشتراكيين ان يكتموا غالباً في دعاياتهم التي يقومون بها هذا التطرف ولا يظهرون للملاء الا دستوراً موجزاً من الاصلاحات التي تبدو غالباً في نظر الذين مضهم ظلم النظام القائم كاصلاحات عادلة فيميلون الى اعتناق مبادئهم ولكنهم ليسوا في الواقع الا اشتراكيين عاطفيين وهم على صواب في ما ينشدونه من اصلاح .

٢ – نقد التعليم الاشتراكي الشيوعي

على قدر ما نستشعر ما فينا من عطف على مشايعي الاشتراكية العاطفية فعلى قدر ما نحرص على نبذ الاشتراكية العلمية لان القادة الاشتراكيين الذين تنبأوا ويتنبأون بانبثاق عهد ذهبي جديد لو كان بمقدورهم ان يحققوا خططهم لكانوا جروا الانسانية في طريق مأساة دامية اما اذا كانوا شديدي الرأفة بمن خدعتهم الظاهرات البراقة عن حسن نية فلا نستطيع الا ان ننبذ ضلالهم بصراحة وجرأة واذا ماشينا الاشتراكية في انتقاد الرأسمالية الحرة ومحاولة اصلاح ما فيها من خطل فلا يفيد ذلك اننا نستصوب تعاليمها لنثني على نتائجها ولا بد لنا من ان نراها تمارس عملها لنخبر النظام الانشائي الذي تقترح اقامته اما الآن فما برح غامضاً في تعريفه ومن الصعوبة بمكان ان نتوقع سلفاً صحة دروسها قبل ان نشهد اختبارات الحياة وما تلاقيه في الكثير من مشروعاتها لتخرج بها من حيز الواقع الى حيز الوهم .

٢ - اقامة الملكيه المشتركة مقام الملكية الخاصة

لئن تعرض الاشتراكيون الى انتقاد تصرفات ذوي الامـــلاك المفعمة بالمساوي والجشع والاثرة فلا مندوحة لنا عن الموافقة على نقدهم لهم اما اذا تعرضوا الى نكران الحق المشروع في الملكية فلا نستطيع ان نجاريهم في هذه الطريق الخاطئة ، فالبابا ليون التاسع قد رفع صوته عالياً بالاحتجاج على هذا التجاوز قائلاً : ان الشيوعية « تأبى على الافراد حق التملك الخاص او تملك وسائل الانتاج بصفة كونها اصل الاملاك الاخرى ولأن الاستيلاء عليها يؤدي الى سيطرة انسان على انسان . فمن الواجب ان يضمحل هذا الضرب من الملكية لانه مصدر الاستعباد الاقتصادي -Dévini Rédempto « ris N°10 » ان الله تعالى قد وهب الانسان الارض ليؤمن بواسطتها حياته، فالغاية الاولى منها اذاً غاية اجتماعية والارض قد اصبحت ضرورية عقب معصية الانسان وباتت شرطاً من شروط العمل والاقتصاد لا يستغنى عنه ، ومن الوهم الاعتقاد ان الانسان يقوى في ظل نظام اشتراكي على العمل من دون ان يبذر فيه ليهتم فقط بالمصلحة العامة ، فهو كما تراه الكنيسة من الناحية الواقعية في افتقار الى حافز الملكية الخاصة ليندفع الى عمله ويحرص عليه اما الاعتقاد ان الانسانية ستصل الى درجة من التقدم في الغيرية تخولها الاستغناء عن هذا الحافز فبدعة بعيدة عن الواقع .

ولا تجهل الكنيسة ان الغاء الحق في الملكية يجر البشرية الى كارثة عمياء لان الانسان الذي لا يرى فائدة له في العمل لا يشتغل الا اقل ما يمكنه ان يشتغل ،

ولـئن اجابونا انه لـــن يكون من كسلان في المجتمع الجديد وان الانسان لا يستطيع ان يعيش من دون ان يعمل فهل يقمعون كسله بالجوع والقوة ؟ واذا كان الامر كذلك فهل يتجاهلون ان حافز المنفعة الشخصية

هو اخلاقي اكثر من الخوف وضغط الانسان لاخراج المتكاسل من تقاعسه وجموده ؟ وهل فاتهم ان الانسان يميل بغريزته الى الراحة والاستمتاع بها اكثر مما يميل الى التوفير والاقتصاد ليعيش يوماً فيوماً بدلاً من ان يسعى الى الادخار ؟ وما اشده تبذيراً اذا تحقق انه لـن يكون بمقدوره ان يحقق المغانم والارباح لاولاده من بعده اما من اعتقد عكس هذا فما هو الا واهم كل الوهم لانشاء انسانية من بنات الخيال .

واذا ما انتقدنا الرأسمالية فلا نضع النفس في الموقف الذي يتخـذه الاشتراكيون والشيوعيون منها لان ماديتهم تجعلهم من ذوي النظر القصير « انهم يأخذون المآخذ على اساليب النظام الرأسمالي الفنية كما لو كانت مآخذ اساسية وكما لو كان التغيير في شكل النظام الاساسي هـو الذي يناقض تحرير الانسان على حين ان الذي يبدو لنا هو ان الروح هي التي تبعث الحياة في اسلوب النظام اما مناهجه الفنية فليست الا ظـاهرة خارجية ينبغي ازالتها من النطاق الاقتصادي .

« Marc SCHERER, Communistes et Catholique »

ب ـ اسناد جميع المهمات الاشتراكية الى الدولة واطلاق يدها فيها

تعقد الاشتراكية اكبر امانيها على اصلاحها الدولة الجديدة لا الدولة البورجوازية اي الدولة الجديده التي تمثل مصالح الامة الكـبرى ولم تتضاعف سلطتها الا عن طريق تأميم المشروعات لتخدم المصلحة العامـة خدمة فضلى .

ولقد انتقد اوزنام « OZANAM » مفهوم الاشتراكية هذا بقوله : « يجعل مذهب الاشتراكيين الحديث الشر كل شر قائماً في توزيع الخيرات توزيعاً سيئاً ويعتقد الاشتراكيون ان الغاءهم المنافسة وتنظيمهم العمل تنظيما يجعل منه سجناً يعيش العمال ضمنه وان تعليمهم الشعوب ان يتنازلوا عن

حريتهم مقابل تيقنهم من الفوز بالخبز ليعدوهم بالاستمتاع باللذه هو انقاذ للانسانية « Origine du socialisme p. 229 »

ومما قاله جول جوده « Jules GUESDE » في تعليمه قواعد الاشتراكية : « ان الدولة التي احتلت مقـــام العناية الالهية هي التي ستسهر على اوضاع المواطنين وانعاش حـالتهم وهي التي ستحل محـل العيلة : « فجو التعاطف والحب الذي اتسع نطاقه في قلب المجتمع عن طريق تساوي كل فرد منه بالرفاهية سيجعل العيلة او هذا « المستودع الثاني » الخاص من دون فائدة فالولد يخص الدولة وهي التي تتولى امر تثقيفه » .

او لا نشتم من وراء هـذا المفهوم الذي يطلق يد الدولة في كل امر من امور الحياة رائحة تعبئة عسكرية ؟ والذي لا شك فيه هو ان الاشتراكيين لا يروقهم ان يسمعوا مثل هذا النقد اما اذا ما سمعوه فيقولون فيه انه لا يصدق الا بحـق الدولة البورجوازية او الفاشية النازية على اننا لا نرى الذريعة التي تتملص بواسطتها ديكتاتورية الكادحين في قبضها عـلى كل مهام الحياة من نزعة طغيان دولتهم الى الاستيلاء على كل الشؤون والامور .

أو ليس الاتكال على الدولة اتكالاً يجعلها في مكانة العناية الالهية مدعاة لتقاعس المواطن وتكاسله ؟

أو ليس في اطلاق يد الدولة هذا الاطلاق الذي لا يحده قيد لتتدخل في معظم الاحيان في كل شأن من الشؤون تدخلا بعيداً عن الحكمة تدخلا ليس من اختصاصها جريمة ضد الحرية الفردية وحقوق العيلة والتفاني اجتهاداً في المهنة ؟ ونظرية اطلاق يد الدولة من دون قيد او شرط. ألا تفضي الى حشد جيش من الموظفين الفضوليين الذين يعيشون فقط على ظهر الامة ؟» .

والذي لا سبيل للريب فيه هو ان للدولة دوراً مهما في المجتمع وقد يكون تدخلها في محله وانما عليها ان تكون لكل الاحزاب وجميع المصالح

على تضاربها والحكم في المصلحة العامة والمدافعة عن الضعفاء على حين ان الدولة الاشتراكية هي مارد يطمو سيله عـــلى كل الشؤون وتتجاوز بصلاحياتها الحدود الطبيعية : فلذلك لن تغوينا ابداً بجنتهــــا الارضية ولا بمنزلتها التي جعلوها منزلة العناية الالهية !

وان الشيوعية لتضحي في سبيل هذه الدلة المارد حقوق الانسان الطبيعية ومشروعية العيـــلة واسس النظام الاجتماعي الطبيعية كما قال البابا بيوس الحادي عشر في رسالته الرعائية « Divini Redemptoris nº 10-141 » وفضلاً عن هذا ان الشيوعية تجرد الانسان من حريته ؛ مبدا سلوكه الادبي وتنزع من الشخص الانساني كل ما يكون جدارته ويقف حاجزاً ادبياً في وجه طغيان غرائزه العمياء ولا تعترف للفرد باية حقوق طبيعية كانت حيال المجتمع لكي لا يكون فيها سوى دولاب تابـع لنهجها ، كما تقول بمبدا المساواة المطلق في علاقـــات البشر بعضهم ببعض فتنبذ كل تسلسل في المراتب والدرجات وكل سلطة شرعها الله حتى سلطة الابوين وتعتبر كل امر قائم يقال عنه سلطة او طاعة بين الناس ينبثق من الجماعة كأنها مصدره الوحيد » والشيوعيون برفضهم على الحياة الانسانية كل ميزة قدسية او روحية فان تعليمهم يجعل من الزواج والعيلة منظمة كانت من المتواضع عليها فقط مدنياً وهي ثمرة المنهج الاقتصادي المحتومة ، وبناء عـلى هذا لا يعترفون بوجود رابط زواج له الصفة الحقوقيـة الادبية لكي لا يتعلق الا برغبة الافـراد والجماعة لا غير : ثم ينبذون عـــدم فسخ الرابط ، ولا تقر الشيوعية ولا سيما باي رابط خاص كان يربط المرأة بالعيلة والمنزل ، اما اعلانها تحرير المرأة فانتزاع لها من الحياة العيلية وابعاد لها عن الاعتناء بامر الاطفال لتلقيها في احضان الحياة العامة واعمال الانتاج الاشتراكي على شاكلة الرجل تماماً اما امر الاعتناء بالمنزل والاطفال فتكله الى المجتمع ، وقصارى القول ان الشيوعية تنتزع من الاباء حق تثقيف ابنائهم لتعتبره خاصاً بالمجتمع وحده ولكي لا

يقوى الوالدون على ممارسته الا باسمه وبالانتداب عنه .

« وما هو المصير المقدر لمجتمع انساني شيد على مثل هذه المبادىء المادية؟ انه لن يكون شيئاً آخر الا مجتمعاً لا تسلسل بالمراتب فيه الا تسلسل المنهج الاقتصادي ولا مهمة له الا تحقيق المنتجات بواسطة العمل الاجماعي اما غايته الوحيدة فالاستمتاع بالخيرات الارضية في جنة « يقدم كل فرد فيها بحسب قواه ويأخذ بحسب حاجاته » . وتعترف الشيوعية للمجتمع بسلطة الحل والربط وباخضاع الافراد لنير العمل الاجماعي من دون ان تهتم لرفاهيتهم الشخصية ولا لارادتهم نفسها حتى اذا اقتضى الامر تجبرهم بالقوة على العمل من دون السماح لهم بحق التصرف بموجب النظامين الادبي والحقوقي الا وفق المنهج الاقتصادي المعمول به لكي لا يكون لهما اساس الا القيم الارضية المتقلبة البالية وصفوة القول يزعم الشيوعيون انهم اكتشفوا عهداً جديداً ودشنوا حضارة جديدة منبثقة من التطور الاعمى أي من«انسانية لا اله لها » .

« والخلاصة انه متى يصبح المثل الاعلى الاشتراكي حقيقة واقعية للجميع ولن يعود المجتمع يتعرف ايما تعرف الى تفاوت الطبقات تفقد الدولة السياسية — التي هي اليوم اداة سيطرة بيد الرأسماليين الكادحين — كل مبرر لوجودها « وتتوارى من تلقائها » . وبانتظار حلول هذا العصر الذهبي تعتبر الشيوعية الدولة والسلطة السياسية من اجدى الادوات واكملها لبلوغ اهدافها .

« ايها الاخوة المحترمون : هذا هو الانجيل الجديد الذي تزعمه الشيوعية البولشفية وتبشر به العالم كرسالة سلام وخلاص ! انه لمنهج مفعم بالضلال والسفسطة ويناقض العقل كما يناقض الوحي الالهي ، وانه لتعليم هدام للنظام الاجتماعي بسبب كونه يحطم اساساته نفسها ، وهو منهج ينكر

اصـــل الدولة الحقيقي وطبيعتها وغايتها كما ينكر حقوق الفـرد الانساني وجدارته وحريته » .

* * *

نزاع الطبقات والاممية

من بواعث الاسف رؤيتنا الاشتراكيين الذين يستنكرون بشدة نشوب الحرب بين الامم يعدّون العدّة ويتخذون الاهبة لثورة اجتماعية يعلقون عليها كل امالهم مع ان الثورة الاجتماعية ليست الا حربا داخلية مخيفـــة تفوق ويلاتها ويلات ميادين القتال لان الاخ يذبح فيهـا اخاه وتقسم العالم الى طائفتين : طائفة الـكادحين وطائفة الرأسماليين لتقوم احداهما على طرفي نقيض من الاخرى .

وبهذه المناسبة لا يخلو من الفائدة ان نذكر الفقرة التي ختم بها السيد جوهو سكرتير حزب العمال الفرنسي العام محاضرته التي القاها في برلـين قبيل الحرب العالمية الاخيرة وكان موضوعها « اننا لا نريد الحرب » .

« ايها الرفاق لقد حانت الساعة لنرفع صوت المستثمَرين - اسم مفعول - عالياً وان نقول بلسانهم جهاراً اننا نستنكر القتال معربين بهذا عن رغائبهم وارادتهم.

ولنفعل اكثر من هذا ولنشرع باعداد الصفوف تفادياً من اعلان اية حرب كانت فنتذرع بجميع الوسائل التي في ايديهم لنقف في وجه كل حرب علنية . ايها العمال الالمانيون والفرنسيون اجيبوا على صوت ذئاب الاموال الاجش وصراخ ليوث الوطنية الضارين برفع صوتكم عالياً لتقولوا لهم لتسقط الحرب » Léon Jouhaux, contre la guerre, Bibliothèque du mouvement prolétaire 1913 »

اجل قلما يعترف الماركسيون بالحرب كعادلة ولكنهم يرون الاضراب مشروعاً وعلى شاكلة تجربة تعبئة اجتماعية وفي الواقع ان الاضراب لا يقل

ضرره عن ضرر الحرب التي لا بد لها من شروط دقيقة جد الدقة لتكون مشروعة اما الاضراب في التعليم الاشتراكي الشيوعي فهو الفرصة السانحة لاذكاء نار البغضاء في افئدة الجمهور وتدريب قواه وتنظيم نضاله تنظيماً حاسماً ، واذا كان الاشتراكيون والشيوعيون من انصار السلام بين الامم فهم من الرسل المقتنعين بجدوى الثورة الاجتماعية التي ينبغي لنا ان نفهمها كما عرفها بريدهوم PROUDHOM لبورجوازي سنة ١٨٤٨ : « لا يمكن للثورة الاجتماعية الا ان تؤدي الى كارثة عظيمة تكون نتائجها المباشرة اجداب الارض وسجن المجتمع في قفص القوة واذا قدر لها ان تستمر بعض اسابيع فقط واتفق لها ان امات جوعاً ثلاثة او اربعة ملايين من البشر عند ذاك تصبح الحكومة من دون مورد والبلاد بلا انتاج وتجارة ؛ وعندما يعض الجوع بنابه باريس وتحاصرها المقاطعات الاخرى ولا تدفع لها شيئاً ولا تمونها بشيء وعندما يسقط في ايدي العمال ويقضى على معنوياتها من جراء سياسة الندوات وبطالة المصانع وتبحث عن اعاشتها كيفما يتفق لها ان تعيش ، وعندما تحجز الدولة الفضة وحلى المواطنين وتصادرها لترسلها الى مصاهر صك النقود ، وعندما تصبح مصادرة المنازل الوسيلة الوحيدة لتغطية النفقات والاجور وعندما تطوف العصابات الجائعة ارجاء البلاد لتؤلف طوائف السلب والنهب وعندما يهب الفلاح ويعد بندقيته ليحرس محصوله فيهمل زراعته وعندما يصير اول كديس من الحنطة نهباً مقسماً ويقتحم اول بيت وتنتهك حرمة اول كنيسة ويوقد اول مشعل ويفض عرض اول امرأة ويهرق اول دم ويطير اول رأس فيسود الارهاب جميع فرنسا عند ذلك فقط تعرفون ما هي الثورة الاجتماعية وستعرف لجنة السلام العامة : اللجنة العليا ذات القلب النحاسي نتائج الثورة التي قيل عنها انها ثورة ديموقراطية واجتماعية عندما تتقلد جمهرة من الناس لم يكبح لها جماح السلاح وقد اسكرها الانتقام والحقد لتحمل الرماح والفؤوس والسيوف المصلتة والسواطير والمعدات فيعبس وجه البلاد

ويعروها الصمت وتداهم الشرطة منزل العيلة وتسهر عـــلى الاراء المشبوهة وتنصت للهمسات والاقوال فتُمسك الدموع في العيون وتُعدّ الانفاس ويصبح السكوت عرضة للمراقبة وتنتشر الجاسوسية والوشايات والمصادرات من دون شفقة وتقترض القروض بالقوة اقتراضاً مستمراً وتتدنى قيمة النقد الورقي وتنشبُ الحرب الاهلية ويصبح العدو عـــلى الحدود عند ذلك يعلم الولاة الغاشمون ما هي الثورة » .

اجل ان نضال الطبقات هذا سيفضي الى حروب اهلية مخيفة والى ارهاب حقيقيّ .

« من المستحيل ان يداس النظام الطبيعي ومبدعه من دون قصاص ولذلك لم تستطع الشيوعية ولن تستطيـع تحقيق هدفها حتى ضمن النطاق الاقتصادي المحض ،

وفي الواقع ان الشيوعية قد ساعدت في روسيا على بعث الحياة في الرجال والانظمة بعد ذلك الجمود الطويل الامد وفازت بواسطة وسائل كانت غالباً بعيدة جد البعد عن التقيد بالذرائع الادبية ،

ولئن صرفنا النظر عن عهد الارهاب فانه ليس بالامكان ان يستغني النظام الاقتصادي عن القواعد الادبية والشعور بالمسؤولية الادبية وهذا ما لا محل له في المنهج المادي الشيوعي » « Divini Redemptoris n° 21 »

ومن العبث ان نؤمن بجدوى القوة ذات السلطان الكلي وبقيمة الثورة لان العنف لا يولد الا العنف ولا ينجم عن الثورات الا ردات الافعال الدامية فالاصلاح الحقيقي يقوم على تبديل العادات والاخلاق والافئدة وان كانت ثمرته بطيئة لانه اسلم عاقبة واضمن فائدة ولان العنف ليس بافضل لمن يتوسل به من الذي يكابده والمسيحية التي تدين بالمحبة لا يتأتى لها ابداً ان تتفق مع البغضاء وليس في مقدورنا مطلقاً التسليم بهـذا النضال الذي

يجندل فيه الاخ اخاه .

« ليس بالامكان انقاذ الانسان بالعنف الذي لا يستند اما استناد الى العقل ولذلك لا يقوى على ان يتحقق استئناف البنيان الاجتماعي والاعمال الاقتصادية الا عن طريق انضاجها وهما لن يبلغا هدفاً رفيعاً الا اذا اطرحا القوة جانباً لان الطريق الوحيدة الحقيقية لاحقاق التقدم والازدهـــار هي طريق المحبة والحكمة المنبثقين من مصدر داخلي .

« وان تجربات التاريخ الشيوعية التي لم تعرف ان تجعل المحبة في قلبها قد اخفقت في مهدها .

« فالمحبة هي الطريق الوحيدة للخروج من هذه التجارب والمحبة وحدها بوسعها ان تخلق نظاماً اجتماعياً عادلاً فانا اود ان ارتكز الى المحبة واليها وحدها .

« وليس التحرر القائم على القوة الا صورة كاريكاتورية اما التنظيم الجديد للمجتمع على هذه الشاكلة فيسفر عن طبقة جديدة من المستغلين يستند قيامها الى فكرة منهج ملتوية ، وانهم في سبيل كتمان اثرتهم « انانيتهم » وتحجر قلبهم اصطنعوا فلسفة لتجريد غيرهم « KAGAWA, Méditations »

ومما ذكره المؤرخ المسعودي عـــن ثورة الزنج من سنة (٢٥٥ ه الى ٢٧٠) انهم دوخوا المملكة العباسية اربعة عشر عاماً واربعة اشهر وان الدعي علي بن محمد بن احمد الذي انتسب الى الحسين بن علي بن ابي طالب قد درس حالتهم وبؤسهم واجورهم ونفسيتهم ورثى لعيشهم على السويق والتمر فمناهم ووعدهم ان يقودهم ويرئسهم ويملكهم الاموال وحلف لهم الايمان الغلاظ الا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الاحسان الا اتى اليهم فالبهم حوله فهزموا الجيوش العباسية فكانت ضحاياهم ممـــا لا يحصى له عدد .

ولما تغلب عليهم الموفق « اخو الخليفة المعتمد عـــلى الله » وابنه ابو

العباس « الذي صار فيما بعد خليفة ولقب بالمعتضد » وقتل صاحبهم نكل بهم شر تنكيل وكانت ضحاياه منهم اكثر من ضحاياهم من البيض » .

والتاريخ مفعم بمثل هذه العبر ولذلك لا نجرأ على الاعتقاد ان الثورة الاجتماعية هي من الوسائل المفيدة لاقرار السلم والعدل في الناس .

اما عهد ما بعد الثورة واما المجتمع الجديد المؤلف من جميع عمـال العالم المصهورين في بوتقة وطن واحد فان كان تحقيقها فكرة نبيلة سامية فان صيرورتها لن تنطبق ابداً على ما يقوم في خيالهم وانما تحقيقها فسيكون الطغيان نفسه لان افراغ البشر في قالب واحد ليكون واحدهم عـلى شاكلة غيره تاماً فعلى طرفي نقيض من التقدم وذلك لان الله قد خلق العالم متباين الوجه كل التباين مما يستوجب منا البحث عن انسجام يكون اشد مرونة وصحة بين الامم .

ولئن كان الوطن والعرق صنمين شديدي الخطر فلن تكون الانسانية الا على شكل البعل الكنعـاني « ملك » الذي كان يبتهج اذا قدمت له الضحايا على مذبحه من شخصيات ابنائه .

وهل من ريب في ان ما فينا من نزعات يسير متدرجاً تدرجاً متسلسلاً اما الوطنية فاذا فهمنا معناها كما ينبغي لنا ان نفهمه فانها من الفضائل التي تعدّ البشر ليخلصوا حبهم للانسانية .

ج - الحاد المنهج الشيوعي

مما لا غرابة فيه هو ان تكون الشيوعية من خصوم الاديان لان كل ما جئنا به يدلل كل التدليل على انها تشجب المعتقدات الدينية برمتها بعد ان اعلنتها حرباً شعواء على كل ما هو الهي :

« انه للمشهد الذي يتمثل امامنا ونراه للمرة الاولى في التاريخ الا وهو

الصراع البارد المقصود الذي اعده الانسان بمهارة « ضد كل ما هو الهي » فالشيوعية بطبيعتها لادينية وتعتبر الدين « كافيون الشعب » ، والمبادىء التي تقول بالحياة بعد الموت تمنع الكادح عن مواصلة تحقيق الجنة السوفياتية في هذه الارض » . « Divini Redemptoris N° 22 »

والذي لا سبيل الى انكاره هـو ان مثل الشيوعية الزائف للخلاص لن يعتريه التبديل .

« تشتمل شيوعية اليوم على فكرة الخلاصة الخاطئة بصورة اشد وضوحاً مما كانت عليه في الحركات الماضية الاخرى الشبيهة بها ، ومثلها الاعـلى الزائف للعدل والمساواة والاخاء في العمل يبهر تعليمها وكل مآتيها بضرب من الصوفية البعيدة عن السداد وهي تبعث في ذهن الجماهير التي خدعتها بوعود غرارة بحماسة وعزة تثيران جرائم العدوى ولاسيما في مثل الزمان الذي نعيش فيه اذ سبب توزيع الثروات العالمية توزيعاً سيئاً سيادة البؤس غير الطبيعي . وتتبجح الشيوعية بهذا المثل الاعلى الزائف كما لو كان سبباً مبدئياً لبعض النجاح الاقتصادي ، ولئن كان ادعاؤها حقيقياً فان هذا النجاح تفسره اسباب اخرى كثيرة : كتعزيز الانتاج الصناعي في بلاد كانت قد حرمتـه ، وباستثمار الثروات الطبيعية العظيمة وباستخدام الطرق الوحشية للاجبار على القيام باعمال عظمى بنفقات قليلة » Divini Redemptoris N° 8 »

اجل ان عقيدة مادية كارل ماركس التطورية التي تعتنقها الشيوعية هي عقيدة خاطئة .

« ان اساس التعليم الذي تخفيه الشيوعية احياناً تحت ظاهرات شديدة المغالطة هو مبادىء المادية الجدلية التاريخية التي بشر بها كارل ماركس ، اما العلماء النظريون البولشفيون فيزعمون انهم وحدهم المختصون بتفسيرها .

ويلقي هذا التعليم في الاذهان انه مـا من حقيقة فريدة الا المادة

وقواها العمياء وما النبات والحيوان والانسان الا نتيجة من نتائج تطورها والمجتمع الانساني نفسه ليس شيئاً آخر الا ظاهرة هذه المادة او شكلها وهي تتطور بموجب نواميسها وتنزع حتما الى مركب حاسم الا وهو المجتمع من دون طبقات وذلك في اثناء تنازع قواها المستمر .

ان تعليما على هذه الشاكلة لا محل فيه لفكرة الاله ولا فارق عنده يقوم بين الروح والمادة والنفس الجسد ولا حياة للنفس بعد الموت فعليه لا امل مطلقاً في حياة ثانية .

والشيوعيون المستمسكون بشكل ماديتهم الجدلي يزعمون ان النضال الذي يسير بالعالم نحو مركبه الحاسم بالاستطاعة استعجاله بفضل الجهود الانسانية . لذلك يبذلون وسعهم لتشتد المتناقضات القائمة بين مختلف الطبقات اعظم اشتداد فيجعلون من نضال الطبقات وما فيه من بغضاء وتدمير مظهر صليبية في سبيل تقدم الانسانية ، اما جميع القوى التي تعترض قوى العنف المنهاجية هذه فيجب ان تباد مهما كانت طبيعتها كعدو للنوع البشري » .
« Divini Redemptoris N° 9 »

واذا ما تظاهرت الاشتراكية في بعض البلدان بانها مهادنة للاكليروس كما صرح اقطابها في مؤتمر ارفرت « Erfurt » بان الدين امر خاص » فلكي يكتسبوا عطف الكاثوليك والبروتستانت على حين انهم لا يقلون غلواً عن الشيوعية في تأييدهم الحضارة المادية كما يؤخذ من المقدمة التي وطأ بها ادلر ADLER لكتاب منيجر Menger : الدولة الاشتراكية اذ قال : « الاشتراكية نظرة جديدة الى مصائر الحضارة وتقدير جديد لمعنى الحياة الانسانية عامة وبرمتها ولكل الحياة الفردية في الانسانية » .

وهذا هو المفهوم الذي لا يختلفون عليه . فهل يترك محلاً للدين في قلب الفرد الانساني ؟ وهل بالامكان ان يكون الدين شأناً خاصاً ؟ وهو الذي ينظم جميع اعمال البشر ! وهل ثمت قاعدتان ادبيتان ؟ احداهما للحياة الخاصة والثانية

للحياة العامة ؟

وفي الواقع ان النظرية الماركسية تنافي الدين كل المنافاة وهذا ما لا ينكره كبار اصحاب العقائد الماركسيون وذلك اذا ما تحدثوا باخلاص لعقائدهم !

ومما قاله بوبل BOBEL من فوق منصة الندوة الالمانية النيابية : « اما فيما يختص بالدين فنحن لادينيون » .

ومن اقوال هنري هاين Henri HEINE « اننا نترك السماء للملائكة وعصافير الدوري » .

وقد قال السيد ليون بلوم Léon BLUM في الثالث من شهر شباط سنة ١٩٢٥ في مجلس النواب الفرنسي : لقد نصبت الكنيسة نفسها مؤازراً لاشد اشكال الارهاق والظلم وجعلت ذاتها اداة له كما جعلت من نفسها سنداً واداة لاشد الاشكال البالية قدماً في الرجعى السياسية . . . فنحن نسعى لنقبض على زمام السيطرة الروحية ... وان نخلق شيئاً شبيهاً بالايمان الذي يستند الى العدل الانساني لا الى الوحي الالهي . . . واننا سنجعل من الاشتراكية قاعدة عامة للحياة لنتحكم بجميع افكارنا وافعالنا .

ولئن لم تعزب عنا هذه الاقوال فالعبارتان كاثوليكي واشتراكي هما على طرفي نقيض احداهما من الثانية . « ولو كانت الاشتراكية على شاكلة جميع المضال تشتمل على شيء من الحقيقة « وهذا ما لم ينكره الاحبار الرومانيون قط » فلا يعني ذلك انها لا تستند الى نظرية في المجتمع خاصة بها لا يمكن لها ان تتفق مع المسيحية الحقة فالاشتراكية الدينية والاشتراكية المسيحية هما نقيضتان : ولا يستطيع احد ان يكون في الوقت نفسه كاثوليكياً صحيحاً واشتراكياً حقيقياً . « Quadragesimo anno N° 130 »

وهذه الصوفية التي يحاول المجاهدون والمفكرون والقادة الاشتراكيون والشيوعيون غرسها في الصدور لا تستند الى اساس وطيد من اسس علم النفس الصحيحة . ومما يميز المسيحي تمييزاً بيناً جداً عن الاشتراكي هو الشعور بالمعصية فالاشتراكي يعتقد نفسه بريئة من المعصية التي يحاربها لدى غيره على حين ان المسيحي يستشعر ضعف نفسه وخطئها ويعتبر انه على شاكلة غيره من حيث الشر وانه مسؤول عن مكافحته فيحاربه في غيره بتحفظ ويتوخى اصلاح الانظمة عن طريق اصلاح نفسه التي يود ان تكون صالحة اولاً .

وتستند الاشتراكية والشيوعية استنـــاداً اساسياً الى نظرية روسو « ROUSSEAU » الخاطئة التي مآلها : الانسان صالح بطبيعته غـير ان المجتمع قد افسده وما هذا المجتمع في المذهبين الاشتراكي والشيوعي الا المجتمع الرأسمالي .

ويتصور الاشتراكيون والشيوعيون الدين تصوراً خاطئاً ليعتبروه بدعة بورجوازية، الغاية منها الحفاظ على الرجاء في صدور منكودي الحياة وهو رجاؤهم ان يفوزوا بما يعوضهم من بؤسهم في الحياة الثانية ويشجعهم تشجيعاً في غير محله على الصبر حيال مساوي الحياة فيقبلوا بسهولة فقر غيرهم .

ولقد اساوا غالباً تفسير انجيل مرقس ٧ ويوحنا « فان المساكين هم عندكم كل حين واما انا فلست عندكم في كل حين » وفاتهم ان المسيح لم يشأ ان يضع ناموساً يستمر على ممر التاريخ بقوله هـــذا ليقضي حتماً بوجود المساكين وقيـــام الاملاق المقرر حتى انتهاء العالم وانما قد اجاب الرسل ولا سيما يهوذا الاسخريوطي الذي كان ينتقد بلؤم صب المرأة الطيب على اقدام يسوع لتكريمه اذ قال : الم يكن من الافضل ان يوزع ثمن هذا الطيب على المساكين ؟ ان الانجيل برمته مع العهد الجديد ولا سيما رسالة

القديس يعقوب لمفعم تنديداً بمظالم الاغنياء الاشرار ويأمر بالتخفيف عن المساكين اما تطويب فكرة الفقر فموجه الى الذين يملكون كثيراً كما هو موجه الى من يملكون القليل .

لقد فات تخيل الاشتراكيين والشيوعيين مفاد روح الانجيل الذي لم يطوب الفقر وانما الروح الفقرية التي لا تغريها المغانم والارباح ويتملكهـــا حب التوفير فالانجيل قد طوب الجائعين والمتعطشين للعدل وكان صارماً جد الصرامة بحق الاغنياء الاشرار .

ولا تقوم فائدة الدين على ان نظل في عيش ضنك بل على مضاعفة سعادتنا منذ نطل على هذه الحياة . ولقد علمتنا التجارب والاختبارات عبر الاجيال والسنين انه مهما فعلنا لتحسين اوضاعنا المادية فاننـــا لفي اشد الافتقار الى معونة ادبية والى ما نستعيض به عما نحن معرضون له من آلام وحرمان في حياتنا القائمة في الحياة الثانية. وانه لمن الفائدة بمكان ان ندلل على المضار الجسيمة التي ينزلها جحود الاشتراكية بالطبقة العاملة فمروقها من الدين يضاعف احتدام النضال الاجتماعي ويحرم البائس ما يستعيض به من بأسائه في هذه الارض ويحط حق الانسان في عظمته لانه لو كان كل امر ينتهي بنهاية حياته لكان الانسان شديد الرغبة في الاستمتاع بجميع لذائذه ، مهما كلفه الامر ، وهذا مـــا اعرب عنه الاشتراكي بيير لرو « Pierre LEROUX » بدون غمغمة او جمجمة عندما قال : « قديماً كنت أؤمن بان في السماء الهاً وان علي ان احظى بالجنة وان اخاف الجحيم وقديماً كان على الارض مجتمع ولما كنت من افراده فقد كان لي على الاقـــل الحق الذي كان لاحد اعضائه وعلى ان اكون مطيعاً من دون ان اكون منحطاً ولقد كان سيدي يأمرني لا باسم اثوته بل بماله علي مـــن حق فكان مصدر سلطانه الله الذي يسمح بقيام التفاوت على الارض على رجاء

التعويض منه في السماء، فكانت قواعدنا الاخلاقية واحدة ودينناً واحد وآمالنا الخالدة نفسها، وباسم تلك القواعد وذلك الدين كانت الخدمة من نصيبي والامر من اختصاصه ولم يكن انصياعي له الا اطاعة لله وبرّاً بمن يتولى حمايتي باخلاصي له، واذا ما رأيتني منحط المقام في المجتمع المدني فكنت اراني اقوم على صعيد المساواة الواحد مع غيري في الجماعة الروحية التي يسمونها الكنيسة، ولم تكن تلك الكنيسة الا ممراً الى الكنيسة الحقيقية وصورة لها الا وهي الكنيسة السماوية، واذا ما رأيتني اتألم فلكي يزداد استحقاقي فاوصابي كانت في سبيل تمتعي بالسعادة الابدية اذ كان في متناولي الصلاة والاسرار والتوبة والاستغفار. ان جميع هذه قد فقدتها مذ علمتموني انه ما من جنة امامي ارجوها وانه ليس من كنيسة وان المسيح دجال فاصبحت لا ادري اذا كان ثمت الـه فلذلك **انا اريد نصيبي من هذه الارض** بعد ان ارجعتم كل شيء الى ذهب ومزبلة. اجل لقد انتزعتم مني جنتي في السماء فانا اريدها على هذه الارض ...»

وهل من ريب في ان القضاء على الايمان بالسماء يجعل الانسان متكالباً على اشباع شهواته في هذه الارض؟ والامر الاكيد الراهن انه من المستحيل ان لا يكون في هذه الحياة آلام وحرمان وتفاوت ومحن شتى فاذا ما تملك الكفر قلب الانسان تركه في غم مستمر لا عزاء له.

واليك الصفحة التي دبجتها براعة الكاتب الفرنسي الضليع لويس فايو «Louis VEUILLOT» في كتابه «احرار التفكير» لذكرى ابيـه: جريمة المجتمع الحديث الكبرى بعلمانيته الرسمية تقوم في حرمانه العليل الوضيع خير من يعول عليه في هذه الحياة والمكافأة العدل له عن متاعبه في الحياة الثالثة. ولئن استغنى الغني عن الدين فلندعه وشأنه اذ له بعض ما يتمتع به في هذه الارض على الاقل - اما هذا العامل الذي يشقى

طول ايامه ولا يستطيع الاستفادة مما يرجوه من منافع الثورة الاجتماعية — فاننا نجعله من اشد بائسي الحياة حتى من وجهة النظر الانسانية وحدها ، اذا ما اقتلعنا جذور الدين من صدره .

وها هي ذي الكلمة الرائعة التي تذكر فيها والده : « مات ابي وله من العمر خمسون عاماً وكان عاملاً بسيطاً من دون مطمح ... وعرف في حياته الزاخرة بالمجهودات والشدائد الف ضائقة ... وفي غضون سنيــة الخمسين لم يهتم احد بنفسه ... وعندما اشرف على الموت واصبح على ابواب القبر تفكرت في الآلام التي عاناها والعذابات التي قاساها في حياته فتمثلت امامي جميعها وعددت المباهج التي استطاع تذوقها على رغم شأنه الوضيع وتمثل لي ذلك القلب الذي خلق حقيقه لله . وتيقنت ان الافراح البريئة والمسرات الحقة قد حرمه اياها المجتمع ! فيا لها من جريمة لا تغتفر . فما كان الا ان تولاني اشراق باعث على الغصة والاسى حملني على ان لا العن العمل والفقر والتعب ولكن الظلم الاجتماعي الشائن والالحاد ، الالحاد الذي سلب وضعاء هذه الارض المكافأة التي شاءت العناية الالهية ربطها . بسوء حظهم فشعرت بانني منبوذ وبسورة غضب تتملكني .

نعم لقد بدت منذ تلك الساعة اعلم كيف اقلب رأيي في هذا المجتمع وهذه المدنية وهؤلاء الحكماء الادعياء الذين انكروا الفقير بسبب انكارهم الله واهملوا طبعاً نفسه .

ولا يسعني ايها السادة الا ان اؤكد لكم قبل ان انهي كلمتي هذه ان محور جميع ما يسود يومنا القائم من بؤس مرده الى انكارهم النفس وما قدر لها من مصاير الخلود . فلنتضرع الى العزة الالهية ونتأمل هنيهة في هذا الانسان السر المغلق والعقول المخدوعة في مجتمعاتنا العدة التي يخيل الينا انها لن تعود عن غيها لتسمع الكلمة الخالدة « لا يحيا الانسان بالخبز وحده » .

اجل ليس الانسان بالحلقة الاخيرة من السلسلة الحيوانية كما اراده ان يكون جول جود « Jules GUESDE » وان سعادته وغايته لاتقومان على « سد مجموعة حاجاته سداً يزداد اكتمالاً يوماً فيوماً » فهو صاحب نفس خالدة وافتقاره الى غايته التي لا نهاية لها ما برح يقلق باله ويقض مضجعه، واذا ما ابينا على الانسان ان لايكون له دائرة الا دائرته الارضية لكي لا يشرف من منفذ على اللانهاية ووقفنا بمصيره عند حافة قبره فاننا نأبى عليه الايمان بشيء غير الشيء الذي يأكله ويشربه ويشبع نهمه وما ذلك الا الحط من قيمته والتقليل من جدارته .

ب – الكنيسة الكاثوليكية حيال الشيوعيين

يزعم بعض الناس ويذهب بهم الزعم الى حد الاعتقاد ان الكنيسة الكاثوليكية تضمر للشيوعيين اشد ضروب الحقد وتكن لهم ابشع الوان البغضاء مع ان الامر على العكس من ذلك تماماً لان موقفها منهم قد كان دائماً موسوماً بطابع المحبة لهم ولم يصدم واحداً منهم يحاول البحث عن الحقيقة وانما يهمها في الدرجة الاولى هداية الجماهير التي اعتورها الضلال فابتعدت عن منقذها الحقيقي .

وليس يخاف على من تتبع موقف الكنيسة تلك المقابلة التاريخية بين قداسة البابا بيوس الحادي عشر **والقاصد الرسولى** كارديجن « Cardijn » في بروكسل وذلك عندما انتدبه الكاردينال مرسية « Mercier » للذهاب الى روما والتحدث الى البابا بشأن انشاء طائفة الشبيبة العاملة الكاثوليكية فما كان من الحبر الروماني الا ان اختلى به في مكتبه وسأله عما يريد فاجاب الاب كارديجن « Cardijn » – انقاذ طائفة العمال – فالتفت اليه البابا قائلاً هاك رجل يفاتحني بشأن الفئات المختارة – فاردف البابا بكلمته المأثورة : « هفوة القرن التاسع عشر الكبرى تقوم في خسارة الكنيسة الطبقة العاملة!

فالامر مهم ويجدر بك ان تخصص له كل حياتك » .

والبراءة الرسولية « Divini Redemptoris » ليست برمّتها الا دعوة للكاثوليكيين لتأدية رسالتهم حيال الشيوعيين كل في محيطه على ان يتوسلوا بالحكمة والرصانة اللائقتين .

ومن واجب جميع الكاثوليكيين تلبية دعوة رئيس كنيستهم والابتهال الى الله ليعود الشيوعيون الى حظيرة المسيح ليتم سرور ابيهم بهم .

وهاك ما كتبه في هذا الشأن الاسقف غونون GONON في مجلة « الحياة الكاثوليكية لعددها في الرابع من تموز سنة ١٩٣٦ داعياً الكاثوليك الى عدم مناجزة الشيوعيين العداء فقال : لا تنسوا اننا محبون للبشر وان كنا نبغض الضلال فالكاثوليكيون غير الكاثوليكية التي لا غبار على تعاليمها على حين انه قد يكون من بين المنتمين اليها من غير الصالحين والشيوعية غير الشيوعيين فاذا كنا ننبذ تعاليمها فان الكثيرين من الذين يعتنقونها يجهلونها ولا يدركون معناها وهم من ذوي النيات الحسنة والقلب الطيب المستقيمين كما ان بينهم ممن يتألمون »

وكتب الاسقف دوبورج « DUBOURG » في مجلة « سيث « Sept » لعددها الثالث من تموز سنة ١٩٣٦ » يقول « الشيوعيون هم ابناء الله مثلنا ونحن نمحضهم محبتنا ونود خلاصهم من الضلال والشر »

وفي المجلة نفسها وفي عددها الحادي والثلاثين من تموز سنة ١٩٣٦ » كتب الكردينال سوهارد « SUHARD » ما مفاده « ليس من المستحب ان يتعاون الكاثوليكيون والشيوعيون بسبب ما يقوم بين تعليميها من اختلاف ومع ذلك يليق بنا ان نميز بين الشيوعي والشيوعية فاذا كان الكاثوليكيون لا يتسامحون بقيام اساليبها فذلك لن يخولهم ابداً ان لا يخلصوا الحب لمشايعيها »

والبابا نفسه قد ضرب للكاثوليكيين المثل الحي على شدة محبته الرسولية لهم ففي سنة ١٩٢٢ عندما اشتدت المجاعة في روسيا اقدم على عقد اتفاق مع حكومة السوفيات في سبيل التخفيف من بؤس شعبها ولا سيما الاطفال الذين كان الجوع يفتك بهم فتكا فنظم حملة صليبية عالمية لجمع المواد الغذائية واوفد الى روسيا بعثة مؤلفة من ثلاثة عشر كاهناً عهد اليهم القيام بتوزيع الاغذية على الجائعين « المادة ٣ من معاهدة ١٢ اذار ١٩٢٢ بين الكرسي الرسولي وحكومة السوفيات »

وقد اضطرت تلك البعثة الى استخدام ١٧٠٠ موظف روسي وما مضى سنة على وصولها حتى انشأت ٢٧٥ مطعما شعبياً كانت تقدم الغذاء يومياً لخمسة وتسعين الف طفل وانقذت بهذا العمل وبواسطة التبرعات الكاثوليكية مئة وخمسين الف طفل على ما هو مرجح .

وفي الوقت نفسه بينما كان الكرسي الرسولي يضطلع بواجب المحبة هذا لم توقف الحكومة اضطهادها للدين ومع ذلك لم يبدل البابا موقفه .

« . . . بينما تتولى البعثة الرسولية اغداق الاحسان على سكان هذه البلاد الفسيحة التي عضها البؤس واوشكت ان تهلك جوعاً ... ماذا نرى ؟ سجن الاساقفة الكاثوليكيين المشهورين والحكم عليهم بمدات طويلة بالحبس الصارم وقد اعدم احدهم بقسوة بربرية . . . فجميع هذه الاعمال لم توقفنا عن عملنا مهما بلغ بها الامر - فعلينا ان نتابع ما باشرناه منذ عدة اشهر لتخفيف الويلات واننا لن ننقطع عن عملنا ما برحت البلاد مفتقرة الى المساعدة وطالما لدينا في العالم موارد نستطيع توزيعها ذاكرين كلمة الرسول هذه لا تدعوا الشر يقلقكم بل اغلبوا الشر بالخير « - الخطاب الذي القي في مجمع الكرادلة ٢٣ ايار ١٩٢٣ » .

والحبر الروماني لم يبدل قط موقفه هذا من الشيوعيين ففي الخامس

عشر من ايلول سنة ١٩٣٦ استقبل الكاثوليكيين الاسبانيين الذين جاؤوا الى روما واعرب لهم عن حبه الشديد لاولاده الضالين وعن صلاته المستمرة لارتدادهم .

« ماذا نقول في هؤلاء الابناء الذين ما برحوا اولادنا ؟ فنحن نراهم اعز شيء علينا سواء أكان ذلك في شؤونهم ام بشخصياتهم وان قاموا باعمال وتوسلوا باساليب نكرهها كل الكره لكي لا يتورعوا عن اتيان الاعمال الغاشمة الاضطهادية نحونا ، وذلك على قدر ما تسمح لهم به المسافة فيوجهون الى شخصنا العبارات المهينة كل الاهانة ويستخدمون في هذا السبيل الاساليب المنكرة فيعاملونا لا كما ينبغي للابن ان يعامل اباه بل كعدو يضمرون له كرهاً خاصاً .

ان لنا ايها الاخوة الاعزاء تعاليم وعبر تبدو اسمى جداً من الطبيعة الانسانية الوضيعة وحدها لكي يقتدوا بنا ويطيعونا وهي تعاليم فيها كل الجمال والروعة للنفس المسيحية حتى نعجز عن الشك هنيهة واحدة في ما يتوجب علينا عمله : اي اننا نحبهم حباً خاصاً قوامه الشفقة والرحمة . وبما اننا نحبهم ولا نستطيع ان نفعل اكثر من ذلك فنحن نصلي لاجلهم لكي يرتدوا ويروا بعقولهم الحقيقة الناصعة وينفتح قلبهم مجدداً للرغبة في البحث بحثاً اخوياً عن الخير الحقيقي ، فاننا نصلي لكي يرتدوا الى الآب الذي ينتظرهم لتكون عودتهم اليه من ابهج الاعياد »

وصفوة القول ان البراءة « divini Redemptoris » قد ختمها الحبر الروماني بندائه الابوي الى اولئك المخدوعين : « لا نقوى على ان نختم هذه الرسالة من دون ان نوجه الى ابنائنا الذين اصابهم الداء الشيوعي او اوشك لننصحهم بحرارة ليصغوا الى صوت الآب الذي يحبهم كما اننا نبتهل الى الله كي يهديهم ليقلعوا عن الطريق الملساء التي تفضي بهم الى كارثة عظيمة ويعرفوا ان المنقذ الوحيد هو سيدنا يسوع المسيح : « فانه لم يعط الناس

اسماً اخر تحت السماء ويسعهم ان ينتظروا منه الخلاص »

هذه هي الطريق المخطوطة المعالم امام واجبات الكاثوليكيين ليحبوا غيرهم فعليهم ان يخاصوا المحبة للشيوعيين على رغم ما يعلمه مذهبهم من بغضاء وان يبتهلوا لله لكي يهديهم الصراط المستقيم وان لا يضنوا عليهم بخدماتهم كلما استطاعوا الى خدمتهم سبيلا .

***

واذا اتضح للقارىء ما جئنا به من مآخـــذ على التعليم الاشتراكي الشيوعي ينبذ هاتين الحركتين فلأن كلتيهما يصدر من نقطة واحدة الا وهي مادية كارل ماركس الجدلية التاريخية لتصل اولاهما وثانيتهـــما الى نتيجة واحدة الا وهي الثورة وقد اختطتا منزلقاً خطراً للانسانية فلهذين السببين تأبى الكاثوليكية التعاون مع الشيوعية كما تنبذ كل نظرية لا تستند الى قيمة الانسان الحقيقية ولكنها تستصوب آراء الاشتراكية العاطفية التي تحلم بقيام التآخي بين البشر .

ومما قاله اودلر « AUDLER » في كلامه على الحضارة الاشتراكيـــة : « يجب ان تحقق الاشتراكية رجاء الجميع والا تكون شبح البغض » على اننا نخشى جد الخشية ان تنفرد الاشتراكية العلمية بمفهومها الوهمي للانسان كما هو وللدولة المقبلة وبغضائها الطبقية .

ويدور بخلدنا ان هذا الرجاء المحقق الذي يبحثون عنه في الاشتراكية العاطفية لن يجدوه حقاً في غير التعاليم التي تحل الانسان في مقامه الحقيقي وتعترف له بجدارته وكرامته .

ولقد صرح المسيو كايلا « CAILLA » في محاضرة له موضوعها الماركسية القاها بباريس في الحادي عشر من كانون الثاني سنة ١٩٣٤ بما مفاده : « لم يفهم كارل ماركس الانسان المسكين ولا الحرية الانسانية التي بوشرت منذ الفي سنة ولا الحرية التي استغرقت قرونا للقضاء على الرق ومن ثم

ازمانا متطاولة للقضاء على العبودية لتحرز الانتصار الحاسم في قضية الاجور، هذا الشكل الذي ما برح ناقصاً كل النقصان في علاقات البشر انـــه لن يكتمل اذا لم ينمُ حسب كلمة المسيح : « حبوا بعضكم بعضاً .

ومما قاله سان مور SAINT-MAUR في خطاب القاه بمجلس الشيوخ الفرنسي في السادس عشر من حزيران سنة ١٩٢٦ : « اذا كان انجيلكم هو تعليم كارل ماركس او لينين كما تود طوائف اكثريتكم السياسية فباستطاعتي ان اقول لكم انكم تعرفون انجيلنا الا وهو البراءاتان « Rerum Nova-rum» و « Quadragésimo anno » وما الاختلاف بيننا وبينكم الا في كون سلاحكم هو نضال الطبقات على حين ان سلاحنا الذي نسعى اليه هو اتحادها ووئامها ولو شئت – ولا تحملوا كلامي محمل التشاؤم – ان اعرف ما يميز سياستكم الاجتماعية عن سياستنا بصورة اعم لقلت لكم ان سياستكم هي التي تنظمون بها الانسان اما سياستنا فاننا ننسقها مع الله فانتم تحاولون ان تفوزوا بخير شروط الحياة في هذه الفانية التي لا بد لنا من الانتقال منها اما نحن فلنا هدف آخر نسعى اليـه وقد جعلنـاه نصب اعيننا لان حياتنا القائمة ليست الا تمهيداً لحياتنا الثانية ، وفي هذه النقطـة يقوم الاختلاف بيننا وبينكم برمته كما تعلمون .

وانكم لساعون في ايجاد صوفية تتقاب تقاب سياسة الحزب الاشتراكي الفلاني او الحزب الشيوعي الفلاني اما نحن فنستمد صوفيتنا من ذلك الذي منذ الفي سنة بشر بقواعد الحياة على الجبل ونحن مدينون له بها »

ولقد المعنا الماعاً مقتضباً الى جهة النظر الكاثوليكية في المذهبـين الاقتصاديين السياسيين القائمين ورأينا ان الكنيسة تنبذ كلا المذهبين لانهما لا يأخذان بعين الاعتبار قيمة الانسان وجدارته ولان كليهما يحل المادة في المحل الارفع لـكي لا يترك مقاماً للقوى الروحية ولا يعتد بالنفس اعتداداً لائقاً بها . ولان كليهما يدفع بالبشر الى التباغض فالتنافس فالتحارب .

الفصل الثالث

الاشتراكية الكاثوليكية

حيال هذين المذهبين المتطرفين الاول بيمينيته المسببة لجميع ضروب البؤس والفقر والاملاق والثاني بيساريته الداعية الى تخاصم الطبقات وتناحرها وكلاهما لا يأبه لقيمة الانسان وكرامته ولا الى مزاياه الفضلى ليعتبره اداة من ادوات الانتاج او كبيدق من بيادق الشطرنج تتصرف به يد الاهواء والاغراض كما يعن لها لم تر الكنيسة الكاثوليكية بدآ من التذكير بالقواعد الاخلاقية الاجتماعية التي اعلنها الانجيل فوقفت من هذين المذهبين موقف الداعي الى التقيد بالقواعد الادبية المنبثقة من تعاليم المسيح التي اتخذتها شعارها لتطالب باحلال العدل في علاقات الناس بعضهم ببعض تفادياً مما يجر اليه الظلم والطغيان والاعتساف من ويلات ومصايب وكوارث .

ورأت الكنيسة ان جميع بلايا الناس واسباب شقائهم وتعاستهم مردها الى ما في هذين النظامين من غلواء وشطط وابتعاد عن الناموس الابدي الخالد الا هو ناموس المحبة فقامت تنادي بالاقلاع عن المادية الالحادية وتطلب من البشر العودة الى السنن الالهية جاعلة الانجيل نبراسها والخطبة على الجبل طريق هدايتها فلم تتورع عن اظهار مواطن الخلل في كلا النظامين واسدت ذويهما ارشاداتها ونصائحها بعيدة كل البعد عن مساندة واحدهما ضد الاخر واختطت لكليهما طريقاً سوياً على ضوء المبادىء الانجيلية واعلنت على رؤوس الاشهاد اسس الاشتراكية المسيحية التي سار في طليعتها الرجال

المخلصون فاختطوا في الزمن الاخير نهجها عقب الصيحة التي صاحها المثلث الرحمات البابا لاون الثالث عشر في براءته الشهيرة المعروفـــة (Rerum Nouvarum) فـكانت الحافز الاقوى في تنظيم هذه الاشتراكية .

وفي الواقع ليست الكاثوليكية الاجتماعية ديناً جديداً ولا مذهبـــاً مستحدثاً خاصاً ولكنها عودة الى المبدإ الجوهري الصحيح .

ومما كتبه الاسقف لاندريو (LANDRIEUX) سنة ١٩٢٠ في هـذا الشأن : « ان العقبة التي ينبغي لنا تذليلها هي التعليم السياسي والاجتماعي الذي يؤيد افضلية حقوق الفرد على حقوق المجتمع والدولة . . . وليعلم الكاثوليكيون ان المفهوم الكاثوليكي نفسه ينافي الاثرة الفرديـة والعزلة ليستدعي الائتلاف والتنظيم والاتحاد في سبيل العمل الاشتراكي »

اجل ان الكاثوليكية الصحيحة حقاً هي بجوهرها اجتماعية ومن واجب كل عضو مـــن اعضائها ان يتحلى صراحة بهذه الروح ، وان عبارة الكاثوليكية الاجتماعية او المسيحية وحدها كفيلة بان تفي بجميع حاجات العصر القائم .

« ولئن تعرضنا اليوم للكلام على الكاثوليكية او المسيحية فلا يفيـد ذلك ان الكاثوليكية او المسيحية كانت غير اجتماعية ولا يسوغ لنا ابداً ان نتصور دقيقة واحدة انها كانتا غير ذلك والا انقطعتا عن ان تكونا كاثوليكية او مسيحية » برونتيار BRUNITIER »

ولقد ادرك بعض رجال الكثلكة دقة الموقف في ظروفنا القائمة فاندفعو الى درس المعضلات الاجتماعية واظهار شكل الكاثوليكية الاجتماعي عـــلى اعتباره الحل الوحيد لمشاكل الساعة .

واليك بعض اقوال الذين ساروا في طليعة هذه الحركة « نحن كاثوليكيون وبوصفنا كذلك نحن اجتماعيون » « لورول LEROLLE » .

« ينبغي لنا ان لا نكتفي بموقف الدفاع الكاثوليكي وانما واجبنا يحتم علينا الانتقال الى الهجوم الاجتماعي » « بازير BAZIRE » .

ولقد مهد من كان على شاكلة هذين الرجلين الطريق امام الحركة الاجتماعية التي شجعها البابا لاون الثالث عشر . ففي سنة ١٨٨٤ تأسس اتحاد فريبورغ «Union de Fribourg» الذي عرّف اسقفها روحه بقوله : « امامنا الاشتراكيون فهم اقل خصومة لنا من ابتعادهم عن النظام المسيحي فهذه المدرسة التي تكونت سنة ١٧٨٩ و ١٨٣٠ قد بذرت بذور شكوك كثيرة في العالم ونشرت تعاليم خاطئة متطرفة حتى خدعت بها عقول بورجوازية كثيرة فمن الواجب ان نبذل جهوداً ننتصر بها على انفسنا فلا ننجذب اليها، ولنتحلّ حيال هؤلاء الضالين بعزيمة القديس هيلاير التي لا تني وبعذوبة القديس فرانسوا ده سال » .

والهدف الذي سعى اليه اتحاد فريبورغ ... هو البحث عن تعليم الكنيسة الاجتماعي ولفت نظر الكاثوليكيين اليه ورفع مستوى تشريع حماية العمل وبث هذه الافكار في المجالس النيابية الاوربية لوضع اسس التفاهم الدولي لحماية العمال والوحي الى المؤتمرات الكاثوليكية التي كانت لا تزال حديثة النشأة بافكار التنظيم المهني الضرورية ضرورة لا مندوحة عنها وطلب تدخل الدولة لحماية الضعفاء .

وسنة ١٨٩٠ كان بمقدور الكاردينال مرميلود «MERMILLOD» ان يكتب ما مفاده : « ما كان اسرع انتشار افكارنا ! فالعالم برمته اخذ بالاهتمام للقضايا الاجتماعية ، ولئن فكرت انه عندما رفعت صوتي للمرة الاولى في كنيسة القديسة كلوتيلد في باريس سنة ١٨٦٨ لاردد بعض عبارات الانجيل واقوال كبار الخطباء المسيحيين فاذكر انهم اتهموني بالاشتراكية وقالوا من الخير كل الخير ان اطرح من النافذة ، وما كانت سنة ١٨٩١ حتى

وافق البابا الذي كان حينذاك لاون الثالث عشر على اقوالي ببراءته « Rerum Novarum » في ١٥ ايار بشأن اوضاع العمال واخذ يتابع عن كثب اعمال اتحاد فريبوورغ .

ومنذ ذلك العهد شرع العلماء من لاهوتيين وفلاسفة وحقوقيين ومن ذووي الاختصاص الفنيين ومن مندوبين عن اصحاب الاعمال والعمال يعالجون المسائل الاجتماعية الدقيقة القائمة ويشبعونها درساً وتمحيصاً ويوضحونها ويبينون مبادىء الكنيسة وتعاليمها التي اخذت تعطف عليها وتعزز هذه الحركة الميمونة التي يحسدها العالم عليها .

التعليم الاجتماعي الكاثوليكي

١ - يستمد تعليم الكاثوليكية الاجتماعي مصدوه من الانجيل ويشتمل عليه كتاب خاص يدعى « الادب الاجتماعي ».

٢ - للكنيسة رسالتها الاجتماعية لان السيد المسيح قد وضع اسس حضارة جديدة حتى كانت المسيحية منذ نشأتها تختلف كل الاختلاف عن الوثنية ، ففى القرون الوسطى كانت الجمعيات التعاونية دستور عمل صحيح .

٣ - لقد تبنت عدة منظمات عمالية ومهنية مبادىء الاجتماعية المسيحية كما تبنت بعض الحكومات ولا سيما بعد الحربين الاخيرتين قانون العمل الكاثوليكي .

ولقد اصبح من الواجب على كل كاثوليكي ان يدرس تعليم الكنيسة الاجتماعي وان يسعى الى افهامه سواه لان الجماعة المسيحية اجتماعية بمبدإها كما قال الاسقف فرابل « FRAPPEL » « انها : اي الكاثوليكية مجتمع اخوة اما المجتمع الوثني فمجتمع عبيد » .

١ - مصدر التعليم الاجتماعي

مما لا سبيل للارتياب فيه : ان السيد المسيح هو مؤسس الكاثوليكية

الاجتماعية وان مصدر تعليمها الاجتماعي هو الانجيل اما البشارة العظيمة الجديدة التي جاء بها المسيح للعالم فهي ايضاحه للبشر انهم ابناء الله وان الله هو اب جميعهم .

ولقد قيّض لهذه الفكرة ان تغير وجه العالم كما يغير الخمير العجين لانه اذا كان الله ابانا جميعاً فنحن اذاً اخوة . ويا له من **اخاء حقيقي** ، ولئن كان الله اب البشر جميعهم فهم على رغم ما بينهم من تفاوت ظاهري لا يؤبه له **متساوون جوهرياً** ، ويا لها من **مساواة حقيقية** ، واذا كان الله اب البشر فليس بمقدور احدهم ان يستعبد غيره ، ويا لها من **حرية صحيحة** .

واذا كان البشر قد تواضعوا على جعل التاريخ المسيحي حداً فاصلاً بين العهدين القديم والجديد فلان المسيح قد نادى بالمحبة ودعا الانسانية برمتها الى انتهاج ناموس المحبة ، فالثورة العالمية العظمى لم تكن الثورة الفرنسية لسنة ١٧٨٩ ولا الثورة الروسية لسنة ١٩١٧ بل ثورة بيت لحم .

اجل لقد كانت المحبة من اولى وصايا الشريعة الجديدة والعلامة الفارقة لتلامذة المسيح الحقيقيين فلذلك كان يقول الوثنيون في قرون المسيحية الاولى : انظروا اليهم كيف يتحابون » حتى ادهشتهم حياة الاخاء المسيحية .

وايم الحق انه لامر جديد كل الجدة رؤية السيدة الرومانية والامة واريستوقراطي الامبراطورية العظيم والفلاح يجتمعون كلهم في دياميس روما ليصلوا معاً ويتناولوا الخبز الواحد ويتبادلوا العطف الاخوي ، فلا غرو اذا غيرت هذه الفكرة الجديدة الاخلاق والعادات بعد ان كانت الانسانية غارقة في عهودها الوحشية لتتبنى ناموس الاخذ بالثار كما يتضح ذلك مما جاء في التوراة وكتب التواريخ حتى بدت شريعة العين بالعين والسن بالسن شديدة التقدم في تطورها بالنسبة الى شريعة الاثار الغريزية التي كانت قبلها .

وبالقياس الى تلك الانظمة التي تمشت عليها الانسانية احقابا طويلة قبل

مجيء المسيح نستطيع ان نقدر مدى التقدم الذي تحقق على طريق سيادة نظام المحبة التي بشر بها مؤسس المسيحية وتقيد هو نفسه به .

ولقد دلل فيلسوف المسيحية بولس برسائله في غير موضع على اتحاد المسيحيين الاول وجاء بالمقارنات الصريحة التي تبين مبلغ اتحادهم في تآخيهم بكنيستهم « انتم لستم غرباء ولا اضياف وانما مواطنوا القديسين واعضاء اسرة الله ... كلكم ابناء الله بالايمان بيسوع المسيح ... فلا يهودي ولا فريسي « قومية » ولا عبد ولا حر « طبقة » ولا رجل ولا امرأة « جنس » .. لانه كما ان الجسد واحد وله اعضاء كثيرة وجميع اعضاء الجسد مع كونها كثيرة انما هي جسد واحد كذلك المسيح ايضاً . »

فالرسول العظيم لم يجد خيراً من الجسد الانساني ليقيم الدليل على العلائق الوثيقة التي توحد البشر في المجتمع الجديد فشبه المجتمع الجديد القائم على دعائم المحبة بالجسم المتماسك في تركيب الاعضاء ودعاه الى توطيد علائق المحبة بين افراده ليحيوا حياة الاخوة الحقيقيين .

ولئن اطلعنا على ما قاله ارسطو الفيلسوف الاغريقي الكبير في كتابه « السياسة » بشأن حياة العبيد لرأينا التعليم القائل بالمحبة جديداً كل الجدة .

« لا يليق بالمواطن ان يعمل عمل الصانع والفلاح المناقض للجمال والفراغ . فمن الضروري ان يكون ثمت اناس احط من غيرهم يشتغلون للطبقة الشريفة من الانسانية ، فالطبيعة نفسها قد وضعت تحت امرتهم اناساً احط منهم هم الارقاء طبيعياً فكما ان الجسد هو احط من النفس والجماد احط من الانسان فهؤلاء الارقاء هم ادوات قد جعلها الانتخاب الطبيعي في خدمة الطبقة الشريفة فالتفاوت الطبيعي هو مبدأ الاسترقاق « كتاب السياسة ١ ، ٢ - ٤ ، ١٥ » ...

وعلى هذه الشاكلة نعلل ان بعض البشر لا حقوق لهم لان الحق لا يقوم الا بين المتساويين « الكتاب نفسه ٣ - ٥ - ١١ » فلا ارادة لهذه الفئة من الناس فساداتهم هم الذين يريدون لهم « ١ - ٥، ٦ » ولا علم لهم الا بما هو نافع لسيدهم « ١ - ٢، ٢٣ » ولا علة الا التي يعينها هو لهم « عرض الابناء واجهاض الامهات » حتى ولا فضيلة لانها ليست ضرورية لهم الا من ضمن حدود العمل الذي وكله اليهم سيدهم « ١ - ٢، ٢٣ » فالعبد عاجز عن التمتع بالنعمى كحرية الارادة « ٣ - ٥، ١١ » والعلاقة القائمة بين العبد وسيده هي علاقة العامل بالاداة والنفس بالجسد « ٥ - ٢، ٤ » والانسانية منقسمة الى طبقتين السادة والعبيد وللاولى الحق بالامر وعلى الثانية الطاعة « ١ - ٣، ٨ » .

ولئن انتقلنا من اليونانيين الى روما فاننا لنجد في اقوال الزينونيين اقوالاً اشد انسانية وانما لم تصطبغ باللهجة نفسها كما لاحظ بحق ذلك الفيلسوف برغسون : « واننا لنشعر شعوراً من هذا النوع عندما نقارن تعليم الزينونيين مثلاً بالعلوم الاخلاقية المسيحية فقد كانوا يعلنون عن انفسهم انهم مواطنو العالم ويضيفون الى تصريحهم هذا ان جميعهم اخوان بصفة كونهم منبثقين من الاله ذاته . اجل **لقد كادت تكون اقوالهم نفس الاقوال ولكنها لم تقل بنفس اللهجة فلم يكن لها نفس الصدى** . ولقد ضرب الزينونيون امثالاً رائعة في هذا الباب، واذا لم ينجحوا في ان يجروا الانسانية معهم فلكون الزينونية كانت فلسفة محضة، والفيلسوف الذي يكلف هذا الكلف بتعليم سام ويدمج نفسه به فانه ليحييه من دون شك بممارسته له ... ولكن ثمت بعد عظيم عن الحماسة التي تنتشر من نفس الى نفس من دون ان تنتهي ضد الحريق[١] .

(١) « هنري برغون الصفحة ٥٨ Les deux sources de la morale et de la Religion alcan, Paris 1932 » .

وكتب الاسقف توشه TOUCHET مستنبطاً من هذه العقائد تعليقاً في مجلة الاسبوع الاجتماعي باورليان مؤداه: «ان تعليم الكنيسة بشأن كرامة الانسان هو التعليم الذي يعرفنا بحق عظمتنا فهو منتهى التعاليم: لان البشر اخوان بدمهم لكونهم يتحدرون من اب وام لا غير وهم اخوة بنفوسهم لانه ليس لهم الا اب سماوي واحـــد وهم اذا ما قاموا للصلاة يقولون: «ابانا الذي في السماوات»».

والبشر اخوان بمعصيتهم وهفواتهم لان جميعهم يفتقر لافتداء المخلص وهم اخوان ببرارتهم فكلهم قد استحم بدم المسيح وهم اخوان من حيث مصيرهم لان جميعهم مدعو الى ملكوت السماوات

وهل يكون العبد على هذه الصورة غير اخ لسيده؟

وهل يكون الكادح غير اخ للرأسمالي؟

ان الحلم بالمساواة الشاملة عن طريق اقتناء الاملاك او عن طريق احراز المناصب لحلم صبياني لن يتحقق. ومن الواجب ان نحمد الله على هـــذا التفاوت والا لامتنع التقدم الشامل وساد الضجر والسأمة وكان الموت الشامل

والبارى تعالى قد ضمن للبشر في النظام الاجتماعي . . . ميراثاً مشتركاً من الحقوق وان لم يرد او يستطع ان يجعل كل ابنـــائه متساوين سواء اكان ذلك من حيث مصايرهم ام ثرواتهم واوضاعهم واعمالهم اما ميراثهم في هذه الحقوق الاولية فقائم على كونهم بشراً «الولادة والموت» اذ باستطاعة الكادح ان يقول للرأسمالي والمولى للاقطاعي والعامل لصاحب العمل: «انت بشر وانا بشر مثلك فحقوقي كانسان تعدل حقوقك كانسان وان اباك الله هو ابي ايضاً وهو الذي خلقنا على هذه الصورة». اجل انها لحقوق سامية في جلال قدرها. وبالاستطاعة ان نرجعها الى خمسة اقسام

الاول — للبشر الحق في ان يحيوا الحيـــاة التي استمدوها من ابائهم

وامهاتهم كوسطاء ومن الله تعالى كمبدإ اسمى وان ينموا قواهم العقلية والطبيعية والاخلاقية تنمية مشروعة

ثانياً - للبشر الحق ان يتناسلوا تناسلا قوامه النظام الطبيعي الادبي كما يحق لهم ان ينصرفوا الى دعوة خاصة فضلى

ثالثاً - ومن حقهم ايضاً ان يعيشوا عيشة لائقة هم وعيالهم عن طريق العمل المعقول وان كانوا لم يتسن لهم ادخار رأس مال

رابعاً - ومن حقهم ايضاً ان ينالوا قسطاً من الراحة في اثناء حياتهم راحة تخولهم ان لا يستنفدوا قوتهم التي منحهم اياها الله فلا ينصرم حبل ايامهم قبل اوانه

خامساً - ومن حقهم متى ادركتهم الشيخوخة وعجزها ان يؤمنوا معيشتهم من دون ان يتوسلوا بالاستجداء وذلك اذا ما كانوا من اولى الاستقامة والاجتهاد والتنظيم لكيلا يصبحوا مرغمين على القيام بالعمل الذي عجزوا عن اتيانه

ولا يستطيع مكابر مهما بلغت به الجرأة انكار هذه الحقوق وجعلها موضع بحث ومناقشة فكل من يغمض عنها العين ليس الا اعمى لان الطبيعة او بالاحرى مبدعها قد نقشتها بحروف لا تمحى في قرارة كل ضمير انساني منذ الساعة التي اصبح بمقدورنا ان نميزها، واقرتها الكنيسة وجعلت من جميعها حقوقاً مشروعة « Semaine Sociale Orélan 1905P71 »

٢ - العلم الاخلاقي الاجتماعي

لقد عمدت الكنيسة مع فلاسفتها ولاهوتيها وعلمائها الاجتماعيين الى درس ناموس المحبة الجديد وعملت قرونا عديدة على ايضاحه وحددت تحديداً دقيقاً وباعتناء شديد الصورة التي ينبغي ان تكون عليها علاقات الانسان

الاخلاقية بغيره وذلك فيما يختص بامور الحياة العيلية والاقتصادية والسياسية ولم تتردد بصفة كونها القيمة على القواعد الاخلاقية عن ان توضح بتدقيق واجبات الانسان بصفة كونه كائناً اجتماعياً اي بصفة كونه عضو جماعة طبيعية كالعيلة والدولة وعضو جماعة استلزمتها حياته الاجتماعية كانضمامه الى الجمعيات على اختلاف انواعها ولا سيما المهنية منها

ويشير التعليم المسيحي في باب موجبات العدل ومحبة القريب الى هذه المبادىء الاولية اما كتب اللاهوت الادبي فتشتمل على فصول برمتها تعالج فيها قضية العدل والعقود « المقاولات »، وثمت تفاصيل مهمة تعالجها كتب الاقتصاد الاجتماعي المستمدة من المبادىء المسيحية [1]

والامر الذي لا سبيل للشك فيه هو ان العلم الاخلاقي الاجتماعي لا بد له من ان يماشي اوضاع المجتمع الراهنة لذلك لم يحجم رؤوساء الكنيسة في كل برهة عن اصدار براءات ليست بالواقع الا من وحي الانجيل وتنطبق على اوضاع الزمان القائم .

وفي هذا الصدد لا نرى مندوحة عن الاشارة الى براءاتين من اهم هذه الرسائل الرعائية ـ على كل كاثوليكي ـ وحتى على كل عالم اجتماعي ان يطلع عليها الا هما براءة البابا ليون الثالث عشر « Rerum Novarum » التي صدرت سنة ١٨٩١ وحددت شروط العامل وبراءة البابا بيوس الحادي عشر حول النظام الاجتماعي المسيحي وذلك بمناسبة الاحتفال بانقضاء اربعين سنة على سلفه البابا ليون الثالث عشر وقد صدرت سنة ١٩٣١

فلقد وصف البابا ليون الثالث عشر في براءته المشار اليها حالة العامل البائسة على الاسى من جراء النظام الاقتصادي الحر ومن ثم شجب الاشتراكية واعتبرها علاجاً ظالماً للعمال ومضراً بهم قائلاً عنها انها مفسدة

1) Précis de la doctrine sociale catholique Spes

لطبيعة علائق العيلة والدولة بالنسبة الى الملكية لانها تنكر الملكية الخاصة وهي من الحق الطبيعي فلذلك لن تكون نتائجها الا سيئة على المجتمع الذى تنظمه . فعلينا ان نطلب العلاجات الناجعة من الكنيسة والدولة والجمعيات المهنية اما الكنيسة فتعترف بقيام التفاوت الاجتماعي ومن ثم بالالام في هذه الحيــاة وتعلن شرف الفقر ومسؤولية الثروة وتدعو الى العــدل والاخاء المسيحيين .

والكنيسة عن طريق بعثها للقوة في النفوس تساهم في تجديد المجتمع وحتى في تخفيف الاوصاب الزمنية فعلى الدولة ان تحمي المصلحة العامـة ومصلحة الطبقة العاملة والملكية الخاصة واذا اقتضى الامر ان تحمي حرية العمل وتسهر على ان لا يكون الضعفاء « الاطفـــال والنساء » موضوع الاستغلال والاستثمار وان يكون للعامل اجرة عدل . ومن الواجب ايجاد جمعيات مهنية لتحسين الحـــالة الاجتماعية وتنظيم الحرفة فذلك حق طبيعي ملائم كل الملائمة .

وتصدى البابا بيوس الحادي عشر في رسالته الرعائية « Quadragesimo Anno » الى بسط النتائج التي احرزها البشر بعد انقضاء اربعين سنة على براءة سلفه ال « Rerum novarum » التي أطلق عليها اسم « ميثاق العمال العظيم »

ولقد كان لتطبيق تعليم الكنيسة الاجتماعي بايضاحه عملياً حلول المعضلات الخطيرة وتوجيهها نتائج محمودة فخرجت الدولة عن تحفظها الذي كان يفرضه عليها النظام الاقتصادي الحر وهبت لمساعدة الطبقات العاملة بانتهاج سياسة اجتماعية صريحة فتأسست جمعيات عديدة للعمال واصحاب الاعمال .

واستأنف بيوس الحادي عشر فيما يتعلق بالقضية الاقتصادية الاجتماعية تعليم الكنيسة استئنافاً يجعله اشد انطباقـاً على مستلزمات العصر فدعم بتعليمه الحق في الملكية الخاصة ورأس المـــال والعمل وتحسين اوضاع الكادحين

واصلاح النظـام الاقتصادي ، ومن ثم اشار الى التطورات الجوهرية التي طرأت على النظام الاقتصادي منذ لاون الثالث عشر وكان هذا القسم من براءته اشد جدة وقوة ، ومما قاله في هذا الباب ان المنهج الرأسمالي وان لم يكن فاسداً بذاته فقد اعتراه الفساد كل الفساد بايجـاده التنافس الحر وديكتاتورية اقتصادية حقيقية اما الاشتراكية وهي الحزب الاشد اعتدالاً فقد [استبقتها الشيوعية التي اصبحت حزب العنف فباتت الاشتراكية اقل تصلباً فيما يتعلق بنضال الطبقات والغاء الملكية بيد ان مفهومها للمجتمع وميزة الانسان الاجتماعية ما برح مغايراً كل المغايرة للحقيقة المسيحية ولذلك لا سبيل لايجاد التفاهم معهـا حتى ظلت العبارتان : كاثوليكي واشتراكي عبارتين متناقضتين . اما الخلل الاعظم في النظام الاقتصادي القائم فهو كونه قد حطم النفوس فمن الواجب ان يتحد الجميع لاستئناف اصلاح الاخلاق » .

ومجرد النظر في تحليل هاتين الرسالتين يحملنا على التفكير في اهمية قيمة اجوبتها الصحيحة على احدث المشكلات القائمة وما يرافقها من الام وبؤس .

ولم تغب هذه الاهمية عن نظر بعض رجالات الدول فاليك مـا قاله المسيو هايمان وزير الصناعة والعمل البلجيكي في ١٤ ايار لسنة ١٩٣١ بصدد البراءة الرسولية « Rerum novarum » « ان الصرخة التي وجهت الينا منذ اربعين سنة قد اسفرت عن ايلاد عالم جديد ... فلو كان استمع الذين من واجبهم الاصغاء الى كلمة البابا والى تعليم براءته لكانت انقذت العالم برمته ولابتعدوا عن استحقاق توبيخ الكتاب لهم : « لهم اذان ولكنهم لا يريدون ان يسمعوا » اما النفوس فلا تزال بانحطاط كما كانت منذ نصف قرن ... لانها « لا تعرف ان تعليم الكنيسة بوسعه ان ينقذ المجتمع » .

ولدى صدور البراءة Quadragesimo anno رحب بها الزعيم الاشتراكي البرت توماس « Albert THOMAS » مدير مكتب العمل الدولي في جنيف

بالعبارة التالية : « اني اود التذكير بالدور العظيم الذي دعيت الكنيسة الى تمثيله في قضية الغاء الرق وتحرير العمال تحريراً مستمراً يوماً فيوماً في اثناء قيام اشكال المنظمات الصناعية المختلفة .

واني لاجرأ على ان اقول ان تعليمكم قد اخذ يزداد رسوخه منذ نصف قرن فهل يسوغ لي ذلك ؟

وهل اجسر ان اقول ان فكرة البراءة الجديدة قـد زودتنا بمعونة كبرى في بذل المجهود الذي نثابر عليه في سبيل اتحاد العمال ؟ . . .

واني لحريص كل الحرص على التصريح من دون تردد ، بالقيمة الكبرى التي اعلقها على هـذه الوثيقة التي كانت موضوع انتقادات عديدة اكثر من جميع الوثائق المعروفة وذلك من احدى النواحي ولكنها تشتمل من الناحية الاخرى على كيفية التشييد والفطنة وكل ضروب الاحتياط الضرورية »

وعندما خطب المسيو فانزيلاند « VANZEELAND » سنة ١٩٣٦ وكان انذاك رئيساً للوزارة البلجيكية في اجتماع عقده اتحـاد ارباب الاعمال الكاثوليكيين قـال : « اني لارجع دائماً كما ترجعون — الى البراءاتين الاقتصاديتين الاجتماعيتين العظيمتين لاستمد منهما السبيل السوي ولم اتمالك عن ان تستولي علي الدهشة لما اراه فيهما من عمق وجرأة ودقة انطبقت سلفاً على واقع المصاعب الراهنة الآن »

ب — مبادىء تعليم الكنيسة الاجتماعي الرئيسية

مما لاسبيل لاغفال النظر عنه هو ان للكنيسة الكاثوليكية علماً اخلاقياً وسياسياً ليسا كغيرهما فهما لا يتحيزان لمنهج اجتماعي ولا ينبذان اي نظام سياسي كان بل يرحبان بكل المناهج على شرط احترامها للعدل واستلهامها للمحبة . وفضلاً عن ذلك فان اهتمام الكنيسة الرئيسي حتى في القضية الاجتماعية لا يبرح ابداً ان يكون

الانصراف الى انقاذ النفوس .

وتشجب الكنيسة الظلم الاجتماعي والذين يستغلونه لانه يلقي بالذين يكابدون مرارته في احضان البغضاء وايدي العنف والاعتساف ويمنع المستثمر «بكسر الميم» والمستثمر «بفتح الميم» بلوغ غايتهما القائمة في تنمية كمال الشخص الانساني كمالاً تدرجياً .

وتعليم الكنيسة يطالب بان تقوم مقتضيات العـدل وذلك حيال المذاهب الاقتصادي الحر : «يجب ان نجعل الموجبات المنبثقة من العدل قبـل الموجبات الاخرى . . . ولتماش واجبات ارباب الاعمال وحقوقهم واجبات العمال وحقوقهم كل المماشاة» لاون الثالث عشر «Rerum novarum» «وعند رؤيتنا هذه الجمهرة من المملقين يضنيهم البؤس بسبب امور ليسوا مسؤولين عنها والى جانبهم هـذه الكثرة من الاثرياء المستسلمين الى ملاهيهم يبذرون الاموال الطائلة على اشياء تافهة من دون ان يفكروا في غيرهم لا نستطيع ان نمنع النفس التأكيد — والغصة تمضنا — ان احترام العدل ما برح ناقصاً فحسب بل ان وصية المحبـة ما فتئت ايضاً عرضه للخطر» بيوس الحادي عشر «Divini Redemptoris»

وتعليم الكنيسة يقرر حدود حرية الحق بالملكية الخاصة وبالتنافس الذي قرره ناموس العرض والطلب ويعين موجبات العدل التي تقع على عاتق ارباب الاعمال من جهة والعمال من جهة ثانية ويعترف للدولة بحق التدخل على شرط ان يكون تدخلا معقولاً رائده صيانة المصلحة العامة وللعمال بحقهم في الانضمام الى النقابة التي يختارونها وحتى بحقهم في اعلان الاضرابات في بعض الحالات ويطالب باقرار اجرة عـدل وهو لا يسلم ابداً بالاعمال الاقتصادية التي تنافي المبادىء الاخلاقية ويستصوب ايجاد برنامج اصلاحات اجتماعية كامل تقضي بها افضلية الشخص الانسانية ، وكل هذه الامور تقوم على طرفي نقيض من مبادئ المذهب الاقتصادي الحر .

وتؤيد الكاثوليكية الاجتماعية حيال الاشتراكية والشيوعية فكرة المحبـة

والتعاون « الضلال الرئيسي قائم في الاعتقاد وان الطبقتين « ارباب العمل والعمال » هما عدوتان بالطبع احداهما للاخرى . . . ان الامر على العكس فالطبيعة قد اهبتهما لينسجما معاً ويظلا على تفاهم تام فكل منهما يفتقر الى الاخرى افتقاراً ملحاً ولا يمكن ايجاد رأس مال من دون عمل ولا عمل من دون رأس مال . . . وما التصافي العادي الا شيء قليل جد القلة اذا ما اطعنا التعاليم المسيحية فالاتحاد يتحقق في المحبة الاخوية « ليون الثالث عشر « Rerum navarum » . وثمة علاج اشد جدوى يجتث الداء القائم مباشرة الا وهو تعليم المحبة ، ونحن نريد بها المحبة المسيحية «الثابتة الصلاح» التي تعرف ان تتفادى عن كل انتماء شائن وكل تباه، هذه المحبة التي -منذ مطلع النصرانية- قد جلبت الى المسيح اشد الفقراء فقراً والارقاء عبودية واننا لنشكر جميع الذين بذلوا النفس ووقفوها على اعمال الرحمة الزمنية والروحية من عظات القديس منصور حتى منظمات المصلحة الاجتماعية التي تاسست حديثاً فعلى قدر ما يستشعر العمال والفقراء محاسن روح المحبة التي تنعشها فضيلة المسيح يقلعون عن حكمهم الخاطىء، وهو ان المسيحية فقدت تأثيرها وان الكنيسة متحيزة الى جانب الذين يستثمرون العمل « بيوس الحادي عشر «Divini Redenptoris»

وان تعليم الكنيسة الاجتماعي لعلى طرفي نقيض من مبدا تنازع الطبقات موقد الحروب الاهلية المستمرة ليحاول البحث عن اقامة التآزر بين مختلف عناصر الانتاج اي بين رأس المال والعمل . للحفاظ على الحق المشروع في الملكية والتوارث كعنصري تقدم اجتماعي . اما الكاثوليكية فتقول بالافضلية الروحية وبحياة ثانية وبضرورة الدين لاملاء فراغ النفس من دون ان تهمل مصالح الانسان الزمنية وتريد العدل بالمحبة والسلام لا الثورة الدامية، وجميع هذه الامور تنافي مبادىء الشيوعية والاشتراكية .

الملكية الخاصة مشروعة — ان بعض ضروب الملكية الخاصة ضروري للانسان اولا لتأمين حياته الشخصية تأميناً صحيحاً وثانياً ليقوى على انشاء

عيلة حقيقة وثالثاً في سبيل تسهيل طريق التقدم .

والكاثوليكي بالاستناد الى عقيدة المعصية الاولية يستطيع التأكيد ان الحق في الملكية الخاصة - في بعض اشكاله يمكنه ان يتطور - ولكنه لا مندوحة عن وجوده بالضرورة ليجبر الانسان على التوفير والعمل : اما الشيوعية والاشتراكية فلا تقيمان وزناً لضعف الانسان ولا تعتقدان كل الاعتقاد ان الانسان مدفوع بحكم طبيعته الى التكاسل والتبذير . اما الملكية التي هي حق واقعي فليست حقاً مطلقاً اذ لها وظيفة اجتماعية وخاصة قدسية مزدوجة : فرديه واجتماعية

« ينبغي لنا ان نحترس . . . من ضلال مزدوج : من الفردية التي تنكر او تقلل جد التقليل شكل الملكية الاجتماعي والعمومي . . . ومن الاشتراكية التي تنكر او تقلل جد التقليل شكل الملكية الفردية » « الكاردينال فرديه » (الفقرة ٣٧) (Le Cardinal Verdier N° 37)

وقصارى القول : لا يحق لاي صاحب ملك « ملاك » كان ان يحتكر على نفقة المجتمع كمية كبيرة من المنتجات وانما من واجبه الاهتمام بالاعباء الاجتماعية التي تقع عاتقه وعليه ان يساعد المحتاجين باسم المحبة وحتى ان يعين من كانوا في ضرورة قصوى باسم العدل »

« ومن واجب الدولة ان تجعل الملكية متفقة مع المصلحة العامة » كما لها الحق ايضاً في سن تشريع اجتماعي » « الكاردينال فرديه » (الفقرة ٣٨)

وتقول الكنيسةُ ذات الاطلاع الكبير على الشؤون الانسانية ان الواجب يدعونا لكي لا نعول على حسن ارادة الافراد في سبيل اقرار الاصلاحات الضرورية وانما ينبغي للدولة ان تمد يد المساعدة لخدمة المصلحة العامة « وهذا ما لا يتفق ابداً مع النظام الاقتصادي الحر » ولكن على شرط ان لا تتجاوز الدولة في تدخلها حدود الاعتدال اي ان من واجبها

ان لا تجعل نفسها بدلا من صاحب الملك لتحل « محله وهذا مما يناقض كل المنافضة الاشتراكية »

ومما جاء في رسالة البابا لاون الثالث عشر الرعائية في هـذا الشأن « Rerum novarum » « يقضي الانصاف على الدولة بان تهتم للعمال وتتخذ الاجراءات التي تجعلهم يتناولون بواسطتها الفوائـد التي يهيئونها للمجتمع كالمسكن واللباس ويتمكنوا من ان يعيشوا باقل ما يمكن من المتاعب والحرمانات، وعليها ان تعزز عن بعد او عن قرب كل ما يبدو انه من شأنه انه يحسن مصيرهم . . . والسبب الذي يبرر تدخل القوانـين هو الذي يعين لها حدودها »

وتعليم الكنيسة لا ينكر الحق في التخلي عن الممتلكات بطريق الوارثة كما لا ينكر ايضاً مشروعية رأس المال وذلك « عندما تكون هذه الاملاك وليدة وسائل لا التواء فيها ولا زيغان » .

ويكون رأس المال غير مشروع — اولا اذ كان تحقيقه عـن طريق انتهـاج اساليب ملتوية وثانياً اذا كان ناجماً عن سبيل توزيع المنتجات توزيعاً لا انصاف فيه ... وعندما يلتهم مجموعة الانتاج تقريباً غير تارك للعمال الا النذر اليسير الذي يكاد لا يكفيهم لاسترداد قواهم والحفاظ عليها فالتفاوت في توزيع المنتجات على هذه الشاكلة لن يكون ظلمـاً فحسب ولكنه يفضي الى ايجاد تباين باعث على الاسف بين المواطنين ليثـير اشمئزازهم ويعد الثورة وثالثاً عندما يتعاظم تعاظما يجعله ان يكون قوة تنشيء دولة ضمن الدولة ورابعاً عندما يكون في الدولة ضرباً من الدولة اسمى منها عن طريق نموه نمواً مطرداً لتفرض سطوته التي لا قياس لها اضطرابات مـالية خطيرة لا تستطيع الدول ان تتحاشى عنها ولا ان تنجو من الوقوع تحت نيرها مما يفضي بها الى انتهاج خطط تنافي المصلحة العامة

او العدل ، فانه وان كان رأس المال مشروعاً بنفسه فالنظام الرأسمالي قد يكون غير مشروع اي فاسد » « الكرديثال فردية » (الفقرة ٤١) .

ومما توصي به الكنيسة الفقراء والاغنياء على السواء هو التجرد عن التعلق بالخيرات الارضية .

« وفي مثل هذا المقام نريد ان نذكركم ايها الاخوة المحترمون تذكيراً خاصاً بتعليمين من تعاليم سيدنا يسوع المسيح ينطبقان بخاصة على اوضاع البشر في الحالة القائمة : اولهما التجرد عن التعلق بخيرات الارض وثانيهما شريعة المحبة : « طوبى للمساكين بالروح » هذه هي الكلمات الاولى التي خرجت من شفتي الاله المعلم في خطبته على الجبل . اجل ان هذا الدرس لضروري في يومنا الحالي اكثر منه في اي وقت كان اي في عصرنا المادي المتهالك على المغانم والاستمتاع بالشهوات الارضية . فعلى المسيحيين جميعاً اغنياء كانوا ام فقراء ان يلتفتوا دائماً الى السماء وان لا ينسوا ابداً « ان لا مدينة لنا ثابتة في هذه الارض ولكننا نسعى الى المدينة الآتية » ومن واجب الاغنيـاء ان لا يجعلوا سعادتهم باكتناز خيرات الارض ولا ان يوقفوا فضلى مجهوداتهم على اقتناصها وانما ليحسبوا انفسهم انهم وكلاء عليها فقط ولا بد لهم من ان يقدموا حساباً عنها للمعلم الاسمى فليستخدموا غناهم كوسيلة ثمينة وضعها الخالق في متناولهم ليعملوا الخير ولا يترددوا عن توزيع فضلاتهم على الفقراء كما يعلمنا الانجيل والا انطبق عليهم وعلى ثرواتهم حكم الرسول يعقوب الصارم « هلموا الان ايهـا الاغنياء ابكوا وانحبوا على الشقاوات التي تأتي عليكم ، ان اموالكم قد فسدت وثيابكم اكلها العث ، ذهبكم وفضتكم قد صدئا وصدأهما سيشهد عليكم ويأكل لحومكم كالنار فقد ادخرتم الكنز للايام الاخيرة » اما الفقراء وان سعوا بحسب ناموس المحبة وراء ما يتداركون به مستلزماتهم الحيوية الضرورية وحاولوا

تحسين مصيرهم فعليهم ان يظلوا « مساكين بالروح » وان يجعلوا الخيرات الروحية فوق الخيرات الارضية والتمتع بها وليتذكروا دائماً انه لن يستطيع احد ان يزيل من هذا العالم البؤس والالام والشدائد ولن يقوى انسان على التخلص منها وان كان مـــن الذين يبدون انهم راتعون في بحبوحة السعادة . فيجب على كل ان يتحلى بالصبر هذا الصبر المسيحي الذي يشدد القلب بالوعود الالهية بالسعادة الخالدة ولنردد مع القديس يعقوب « فانتم ايها الاخوة تأنوا الى مجيء الرب . هـــا ان الحارث ينتظر ثمر الارض الثمين متأنياً عليه حتى يصيبه المطر وسميه ووليه فتأنوا انتم ايضاً وثبتوا قلوبكم فان مجيء الرب قد اقترب » . وعلى هذه الصورة يتم وعد سيدنا يسوع المسيح المعزي لنا « طوبى للمساكين » .

وليست هذه التعزية برقاً خلباً ولا وعداً عرقوبياً على شاكلة وعـــد الشيوعيين بل هي اقوال الحياة والحقيقة العميقة التي تتحقق في هذه الارض ومن ثم في الحياة الابدية ورجاء المملكة السماوية التي تخص الفقراء « لان ملكوت السماء لكم » . ولقد قاله السيد المسيح مـــا اكثر الفقراء الذين ينعمون بالسعادة بينما يبحث الاغنياء عنها في ثرواتهم وهم دائمـــاً في قلق » بيوس الحادي عشر « Divini Redemptoris, 44, 45 »

والامر الذي لا ريب فيه هو انه من واجب صاحب العمل ان يؤمن لمستخدمه او لعامله اجرة عدلاً : اعني بذلك « الاجرة التي تتكافأ من جهة مع النتائج والارباح التي ساهم في ايجادها عمله ومن الثانية اجرة كافية تخوله تحقيق اهداف « العمل » الخاصة » (الكاردينال فرديه رقم ٤٥) وهذه هي الاهداف المشار اليها .

١ ــ تأمين معيشة العامل ومعيشة عيلته بصورة لائقـــة « الاجرة الحيوية بحدها الاقصى والاجرة العيلية » « مـــن الواجب ان لا يدخر اي مجهود كان

في سبيل تأمين اجرة مرتفعة وكافية لاب العيلة لكي يستطيع ان يقوم بحمل اعبائه المنزلية المعتادة » « بيوس الحادي عشر Quadragesimo anno »

ب — تأمين امكانية تحقيق وفر يضمن للعامل مستقبله ويسمح له بان يصبح صاحب ملك خاص .

ج — تحقيق صيانة كرامته الحقيقية كانسان وكمسيحي في جميع اشكال عمله « الكاردينال فرديه رقم ٤٤ » ويؤكد البابا جازماً بقوله : « لكن العدل الاجتماعي يطلب ان يقوى العمال على تأمين معيشتهم ومعيشة عيالهم باجرة لائقة ومن الواجب ان نجعلهم في وضع يخولهم ان يحرزوا رأس مال بسيط يتفادون بواسطته املاقاً عاماً هو كارثة بالحقيقة ولنقدم على مساعدتهم ببرنامج ضروب ضمان عامة او خاصة يكون واقياً لهم في زمن الشيخوخة والمرض او البطالة وقصارى القول اننا نؤكد تصريحنا الذي جئنا به في براءتنا « Quadragesimo anno » وهو ان الشكل الاقتصادي والاجتماعي يبلغ هدفه ويكون تأليفه سليما متى حقق لجميع اعضائه ولكل فرد منهم كل الفوائد التي يسع موارد الطبيعة والصناعة والتنظيم الاجتماعي الصحيح ان يضعها في متناول ايديهم ، ومن الواجب ان تكون هذه الفوائد على غاية الوفرة لتؤمن مستلزمات حياة لائقة ولترفع الانسانية الى مستوى ما من الرفاهية والثقافة على شرط ان يستخدموها استخداماً حكيما فلا تقوم عقبة في وجه الفضيلة وانما على العكس من ذلك تسهل ممارستها » بيوس الحادي عشر « Divini Redemtoris » ومما قاله الكردينال فرديه « ليس عمل الانسان قوة مادية محضة ولا هو بضاعة بل هو فعل انساني » (رقم ٤٣)

ومن الواجب ان يحدد عقد العمل معدل الاجرة وكيفيته ، اما في سبيل مساعدة العمال واصحاب الاعمال وتنسيق علاقاتهم المتبادلة بعضهم ببعض فمن الواجب ايجاد منظمة مهنية بشرط ان تقوم على فكرة التفاهم

والتآزر عن اقتناع منا بانه لن يكون رأس مال من دون عمل ولا عمل من دون رأس مال » ولما كان لا يتفق غالباً في قضية الاجور ان يقوى كل واحد على التقيد بالعدل ما لم يتفاهم الجميع على ممارسته بواسطة منظمات تربط احداها بالاخرى من اصحاب الاستخدام تفادياً عن منافسة لا تتفق والعدل الواجب نحو العمال كان على الملتزمين وارباب الاعمال ان ينهضوا بهذه المنظمات الضرورية ويدعموها فهي التي ستصبح المقياس الذي يستطاع بواسطة احقاق العدل . وليتذكر العمال واجباتهم على قاعدة المحبة والعدل حيال الذين يستخدمونهم ويقتنعوا بها كل الاقتناع اذ باحترامها يستطيعون ان يصونوا مصالحهم الخاصة صيانة فضلى .

ولقد اشرنا في براءتنا السابقة « Quadragésimo anno » الى انه لو اخذنا بعين الاعتبار مجموعة الحياة الاقتصادية لكان من المستحيل ان نجعل العدل يسيطر في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ليأتي المحبة بغير واسطه هيئة من المنظمات المهنية يتماسك بعضها ببعض على اسس مسيحية وطيدة تنطبق على وضع كل بلاد وتلائم ظروفها اي بواسطة ما كانوا يسمونه بالمنظمة التعاونية « بيوس الحادي عشر Divinis Reeemptoris 53, 54 » .

وتتألف هذه المنظمة المهنية :

اولاً — بواسطة النقابات

ثانياً — بواسطة تنظيم المهنة

ثالثاً — عن طريق تنظيم المهن بعضها مع بعض

رابعاً — عن طريق منظمة امية

النقابات — هي جماعات مؤلفة من رجال المهن مهمتها دراسة ما يتعلق بالحرفة وتنظيمه : كالاجرة وشروط العمل والتعليم المهني والتدريب الحرفي والاضرابات .

« لا شك ان للعمال الحق ان ينضموا الى جمعيـــات في سبيل مصالحهم الفضلى وهذه الجمعيات لا تنافي الطبيعة اما الكنيسة فتعطف عليها « لاون الثالث عشر Longinqua Oceani 1895 »

وبالاستطاعة ايجاز تعليم الكنيسة بشأن النقابات على الصورة التالية :

١ ـ لا تعترف الكنيسة بحق ارباب الاعمال والعمال في انشاء جمعيات نقابية سواء أكانت جمعيات مستقلة بعضها عن بعض ام مشتركة معاً فحسب بل تؤكد هذا الحق لانها ترى فيها الوسيلة الفعالة لحل القضية الاجتماعية .

٢ ـ تعتبر الكنيسة ان انشاء الجمعيات النقابية على هـــذه الصورة هو ضرورة ادبية .

٣ ـ ان الكنيسة تحث الناس على انشاء جمعيات نقابية .

٤ ـ ترغب الكنيسة في ان تنشأ الجمعيات النقابية وتنظم على مبادىء الدين المسيحي وقواعده الادبية .

٥ ـ ترغب الكنيسة في ان تكون الجمعيات النقابية ادوات وئام وسلام ولذلك توعز بان تنشأ لجان مختلطة تكون كواسطة لاتحاد النقابات بعضها مع بعض .

٦ ـ تفضل الكنيسة ان تكون النقابات التي يؤلفها الكاثوليكيون من الكاثوليكيين انفسهم ولا تتجاهل ابداً ان ثمت ضرورات تقضي بتأليفها على غير هذه الصورة .

٧ ـ تسدي الكنيسة نصائحها بان يتحد جميع الكاثوليكيين تشدهم اواصر المحبة المسيحية في سبيل اتيان عمل مشترك ...

واليك الاسس التي اشار اليها الكاردينال موران MAURIN في اسدائه نصائحه الى عمال الرون واللوار وعمالها في حزيران سنة ١٩٣٦ بشأن انضمامهم الى النقابات العمالية :

١ – لا يجوز الانتماء الى نقابة اشتراكية او شيوعية .

٢ – لا تستصوب الكنيسة الانتماء الى النقابات التي اطلق عليها اسم النقابات المهنية ولكنها ترغب في الانتماء الى النقابات المسيحية .

« لا يقوى العامل المسيحي ضميرياً على الانتماء الى النقابات الاشتراكية والشيوعية ، اما اذا تساءلنا عن النقابات المسماة بالمهنية التي تنشأ الان وهي لا تبدي اي شعور عدائي للكنيسة والدين وعما يكون موقفه حيالها ؟ فاقول ان هذه النقابات غير مستنكرة وليس بالامكان استنكارها ولذلك لا يحظر الانتماء اليها : وبما اننا نتوجه بكلامنا الى عمال مسيحيين فاننا نحضهم بحرارة على تفضيل النقابات التي هدفها الدفاع عن المهنة وهي تهتم بالوقت نفسه للامور الدينية والاخلاقية كما تأمر الشريعة ، فهذه هي التوصيات التي ما انفك الاحبار الرومانيون عن الايعاز بها : ولقد قال البابا لاون الثالث عشر « خير للكاثوليكيين ان ينضموا الى الكاثوليكيين » وقال البابا بيوس العاشر : « ان الجمعيات العمالية التي نشأت واتخذت اساساً رئيسياً لها الايمان الكاثوليكي وتتبع صراحة توجيه الكنيسة وهدفها تهيئة المنافع الزمنية لاعضائها فهذه تستحق بدون تحفظ التأييد وينبغي ان تنظر اليها كخير جميع الوسائل لتأمين الفوائد الحقيقية الثابتة للمنتمين اليها » .

ولقد استخدم بنديكتوس الخامس عشر وبيوس الحادي عشر اللغة نفسها واوصيا بالنقابات المسيحية على الاخص .

اجل ان الكنيسة لا تؤيد النقابات التي اطلق عليها اسم النقابات المحايدة والمستقلة ولا تجرأ على القول انها تمت بصلة الى التعليم المسيحي ولكنها تعلن ان النقابات المسيحية لا حيف عليها اذا ما تفاهمت في بعض الظروف مع غيرها من النقابات .

« اما فيما يتعلق بقيام تفاهم بين النقابات اي المسيحية والمحايدة وحتى

الاشتراكية منها في سبيل الدفاع عن المصالح المشروعة «فلنذكر ان تفاهماً على هذه الصورة لا يجوز قيامه الا في بعض الحالات الخاصة : اي انه اذا كانت القضية التي يراد الدفاع عنها قضية عادلة ومع ذلك فيشترط ان يكون تفاهماً موقوتاً على ان تتخذ جميع الاحتياطات لتفادي عن مثل هذا التقارب « رسالة المجتمع المقدس الى الاسقف ليناز » « Liénart »

والاعتصاب الذي نعده كالحرب او شراً منها والامساك عن العمل او البطالة المقصودة وهو جرح شديد الخطر كما قال البابا لاون الثالث عشر : « ان هذا الامساك عن العمل « البطالة » لا يتناول ارباب الاعمال والعمال وحدهم ولكنه يشل التجارة ويضر بصالح المجتمع العامة ويتحول بسهولة الى اعمال العنف والمشاغبات ويهدد السلامة » « Rerum novarum » قد يكون مشروعاً في بعض الشروط التي نص عليها منذ امد بعيد الكاثوليكيون الاشتراكيون .

واليك هذه الشروط :

١ ـ اذا كان طابع الاعتصاب طابعاً مهنياً فقط .

٢ ـ اذا استخدم الاعتصاب كوسيلة نهائية بعد استنفاد جميع الطرق المستخدمة لاحقاق الاتفاق .

٣ ـ اذا ابتعد عن اللجوء الى اعمال العنف حيال الاشخاص وكل ما يمس الملكية .

٤ ـ اذا كانت المطالب عادله .

ان هذه الشروط هي التي تسوّغ اللجوء الى اعلان الاعتصاب وذلك بصفة كونه السلاح الوحيد الذي في متناول العمال .

وقد قال الكاردينال ماييننغ MANNING في هذا الشأن لا يجوز التوسل باعمال العنف والتخريب فالاعتصاب غير مشروع اذا ارتدى طابعاً سياسياً

واعلنه اناس لا ينتمون الى المهنة او اذا اعلن من دون التوسل بمحاولات للاتفاق اي ان يقوم مندوبو العمال بتقديم مطالب عادلة بقصد الاتفاق عليها عن طريق تحكيم اناس من ذوي الكفاءة او اذا صحبته اعمال العنف كاحتلال المصانع والتعدي على حرية العمل او اذا كانت المطالب غير عادلة .

ومن خصائص النقابات المسيحية ـ وان كانت لا تقل تصلباً عن غيرها في المطالبة بحقوق العمال .. ان تسعى دائماً الى ايجاد قاعدة للتفاهم مع اصحاب الاعمال في سبيل ترقية المهنة .

ولئن شاء البشر ان يتفادوا عن منازعاتهم على قدر المستطاع فمن الواجب ان يعملوا منظمين تنظيماً كاملاً من الناحية المهنية .او عن طريق اتحاد النقابات او من الناحية الوطنية او الدولية اي : انه من الواجب تحسين التشريع الاجتماعي .

وليس من تعليم تام كامل ينهض بالتشريع الاجتماعي خير من تعليم الكنيسة التي حددت العلائق الاجتماعية الاخلاقية برمتها من الناحية الروحية فلم تنحز لا الى جانب ارباب الاعمال ولا الى جانب العمال لتنكر مساوي النظامين الرأسمالي والاشتراكي الشيوعي معاً .

وفي سبيل الاتيان بالحجة التي لا تدحض على عدم تحيز الكنيسة الى جانب دون آخر يكفينا ان نلقي نظرة مثلا عما يفهم بـه الراسمالي والاشتراكي الاجرة العدل . فالاول يعتبرها الاجرة التي يعرضها صاحب العمل على العامل ويرضى بها هذا الاخير والثاني الاجرة المفروضه فرضاً على رب العمل ليدفعها الى عامله اما الكاثوليكي الاجتماعي فلا يعتبر الاجرة عدلا الا متى خولت العامل صاحب الوجدان تأمين حياته وحياة عيلته .

ويسعنا ان نسرد امثالا عـدة على هذه الامور مثلاً : بصدد الملكية

ورأس المال المشروعين ودور النقابات والاعتصاب المشروع وتقدير قيمة الاجور والتفاوت الاجتماعي وعلاقات العمل برأس المال ... ففي جميع هذه الشؤون يقف الكاثوليكيون الاجتماعيون موقف الاعتدال ويأخذون بعين الاعتبار الحد الاوسط مستندين في كل منها الى القواعد الاخلاقية لاصدار احتكاماتهم ، لان الكاثوليكية الاجتماعية تقول بافضلية المصلحة العامة على الخاصة ومصلحة الاكثرية على المنافع الطبقية « الانانية » وبافضلية الانسان على المادة والروح على الامور الزمنية .

وفي القسم الثالث من براءة البابا بيوس الحادي عشر المسماة « Divini Redemptoris » نرى الحدود التي وضعها لاساس النظام الاجتماعي الروحية ودعاها مفهوم « المدينة الانسانية » الصحيح : « للانسان نفس روحية خالدة فهو شخص زوده الباري تزويداً عجيباً بنفس وجسد وهو حقاً عالم صغير كما كان يقول القدماء وهو لوحده اثمن بكثير من الكون الفسيح وليس له في هذه الحياة وفي الاخرى الا غاية واحدة هي الله وقد رفع بالنعمة المبررة ليكون خليقاً بابن الله وادمج بمملكة الله بالكنيسة جسم المسيح ولهذا قد مهره الخالق بامتيازات عدة مختلفة : كالحق في الحياة وفي سلامة الجسد وبالوسائل الضرورية لقوام معيشته والسعي الى غايته الاخيرة بالطريق التي خطها الله له وبالحق في انشاء الجمعيات والملكية واستخدامها . وبما ان الزواج والحق في ممارسته هما من منشأ الهي فان انشأ العيلة وميزاتها الاساسية قد حددها الخالق نفسه وقررها لا الارادة الانسانية ولا الوقائع الاقتصادية .

ولقد تبسطنا باسهاب في براءتنا السابقة بشأن الزواج المسيحي في كل هذه الامور « ان المجتمع هو الوسيلة الطبيعية التي يستطيع المرء ان يستخدمها ومن واجبه استخدامها في سبيل الوصول الى غايته لانه قد خلق للانسان ولم يخلق الانسان له ولا يفيد هذا مطلقاً ان المجتمع يخضع

لمصلحة الفرد الانانية كما يفهم بذلك النظام الاقتصادي الحر بيد ان التعاون المتبادل مع المجتمع بواسطة الاتحاد به فيجعل تحقيق الغبطة الحقيقية على الارض ممكنا للجميع وهذا ما يفيد ايضاً ان جميع المؤهبات الفردية والاجتماعية التي وهبتها الطبيعة الانسان تنمو فيه وهي مؤهبات تفوق الفائدة الآنية المباشرة وتعكس كمال الله على المجتمع — وانه لمن لمستحيل على الانسان لو ظل فريداً ان يحقق ذلك فهدف المجتمع الذي امر به الانسان هو الوصول الى هذا التحليل الاخير حتى اذا ما ادرك انعكاس الكمالات الالهية ارتفع بحمده وعبادته الى خالقه، فالموهوب العقل والارادة، والحر ادبياً هو هو الشخص الانساني وحده وليست الامة بذاتها . وكما ان الانسان لا يستطيع التهرب من الموجبات التي تربطه بالمجتمع المدني بحسب مشيئة الله وكما ان لممثلي السلطة الحق في ان يكرهوه على انجاز موجباته اذا ما رفض التقيد بها من دون سبب مشروع فكذلك لا يقوى على حرمان المرء حقوقه الشخصية التي منحه اياها الخالق — وقد اشرنا الى اهمها فيما سبق من كلامنا — ولا يستطيع مبدئياً ان يجعل ممارستها ممتنعة عليه ، الخلاصة انه لا يخرج عن نطاق المعقول ولا عن مستلزماته ان تكون جميع الشؤون الارضية منسقة مع الشخص الانساني تنسيقاً يرجع بواسطته الى خالقه ، فان ما كتبه رسول الوثنيين الى اهل كورنتس بشأن قضية الخلاص ينطبق حقيقة على الانسان والشخص الانساني : « كل شيء لكم وانتم للمسيح والمسيح لله » اما الشيوعية التي تقلب تنظيم العلاقات بين البشر والمجتمع رأساً على عقب فتفقر الشخص الانساني اما العقل والوحي فهي الذرى التي ترفعه اليها « من الفقرة ٢٧ — ٣٠ »

أفلا نرى في انتهاج النظام الاقتصادي الاجتماعي هذا المنهج ؟ ما يظهر حق العمل وجدارته والاخاء الانساني وضرورة التعاون والدور الذي يعود الى الدولة في صيانة المصالح العامة واحترام الكرامة الانسانية وما يتضح مفهوماً للمجتمع متناسقاً متساوق الدرجات والتنظيم

ومما جاء في الفقرتين الثانية والثلاثين والثالثة والثلاثين في البراءة المسماة « Divini Redemptoris » « لا تقوم وسائل انقاذ العالم الحالي من الدمار الذي القاه فيه النظام الرأسمالي الحر المنافي للقواعد الاخلاقية « على نضال الطبقات ولا على الارهاب كما لا تقوم مطلقاً عـــلى تصرف سلطة الدولة تصرفاً اوتوقراطياً ملتوياً وانما على اصلاح النظام الاقتصادي اصلاحاً مستوحيـــاً من الانصاف الاجتماعي وشعور المحبة المسيحية .

ولقد اوضحنا الكيفية التي ينبغي ان يقوم عليها الازدهار الصحيح على اساس ومبادىء التعاون الحقيقي الذي يحترم تساوق الدرجـــات الاجتماعية الضرورية وكيف ينبغي لكل الجمعيات التعاونية ان تنتظم في اتحاد منسجم مستلهم من مصلحة المجتمع العامة . وان مهمة السلطة المدنية الرئيسية الصحيحة كل الصحة تقوم عـــلى ترقية هذا الانسجام ترقية عملية وتنسيق كل القوى الاجتماعية .

وفي سبيل تحقيق هذا التعاون العضوي وهذا الانسجام السلمي يطالب التعليم الكاثوليكي بالحاف بان يكون للدولة جدارة محامي الحقوق الالهية والانسانية اليقظ وسلطته اللذان تكلمت غالباً الكتب المقدسة وآباء الكنيسة عليهما .

وانه من الخطا ان يكون لجميع الناس الحقوق نفسها في المجتمع المدني وان لا يكون فيه تسلسل درجات مشروع ، وحسبنا التذكير ببراءاتي لاون الثالث عشر المشار اليها انفاً ولا سيما ببراءته المتعلقة بسلطة الدولة التي تعالج كيفية الدولة المسيحية. فان هاتين البراءاتين تبسطان بوضوح امام الكاثوليكي مبادىء العقل والايمان وتبين ما فيها من قوة تجعله حذراً من الضلال ومن خطر مفهوم الدولة البولشفي . وان اغتصاب الحقوق واستعباد الانسان وانكار مبدإ الدولة الاسمى وسلطتها وسوء استخدام السلطة واحلال الارهاب الاجتماعي المخيف محلها لامور تنافي كل المنافاة القواعد الاخلاقية

الطبيعية ومشيئة الخالق فالمجتمع المدني والشخص الانساني مستمد منشاهما من الله وقد انتسقا معه على التبادل ولذلك لا يستطيع احدهما الاستغناء عن موجباته حيال الآخر ولا ان ينكرها او يقلها. ولقد نظم الباري هذه العلاقات المتبادلة في خطوطها الجوهرية فعندما تفرض الشيوعية برنامج حزب سياسي مصدره الاعتباط الانساني وقد افعمه البغض بدلاً من الشريعة الالهية والمحبة فانها ترتكب عملاً اغتصابياً ظالماً».

«ليست القضية الاجتماعية في نظرنا قضية اقتصادية «قضية النقود» ولا قضية سياسية «قضية تنظيم وقوة وانما هي قبل اي امر آخر كان قضية انسانية ولذلك هي قضية اخلاقية - «ان القضية المثـــارة من [طبيعتها يستحيل ايجاد حل لها يكون حلا مجدياً من دون العودة الى الكنيسة والايمان على الاقل . . . فالانجيل هو القانون الوحيد المشتمل على مبادىء العدل الحقيقي المأمورين بها وعلى قواعد تبادل المحبة التي يجب ان توحد جميع البشر كأبناء اب واحد واعضاء اسرة واحدة . . . فعليه تقوم مهمة الكنيسة على ان تبشر العالم كله اجمع بهذه المبادىء والتعاليم وتنشرها فيه «ليون الثالث عشر Perum novarum »

اجل ان الكنيسة لتعطف على الشعب عطف الام على بنيها.

«ولقد كان الشعب دائماً عزيزاً على الكنيسة التي هي امه: فالعامل الذي يتألم لانه قد اهمل او لكونه قد ارهق من الواجب ان يحاط بضروب العناية المستمرة المفعمة بالعطف لكي ينهض من المأزق الحرج الذي صار اليه ويخرج منه بدون ان يلجأ الى اعمال العنف ساعياً لقلب النظام الاجتماعي «لاون الثالث عشر Rerum novarum »

الخلاصة

يقوم بين النظامين اللذين اشرنا اليهما صراط سوي سليم العواقب مضمون النتائج بمقدور الناس ان يسلكوه ليجنبوا الانسانية اجحاف النظام الاقتصادي الحر وشوايب النظام الاشتراكي الشيوعي العلمي .

وليس من ريب في ان النظام الحر اصبح غير صالح لتسيير البشرية بموجبه بسبب تكاليه عن تكديس المادة وامتهانه الكرامة الانسانية واعتباره النقود فوق كل شيء، اما النظام الاشتراكي الشيوعي فنزاع الى تحطيم كل ما هو قائم تحطيماً لا مبرر له غير النظريات الواهمة اما النظامان فقد اتسم كلاهما بطابع صوفية القوة الاول : قوة النقود والثاني القوة العددية متشبعين بالاثرة الجشعة اثرة الذين يقبضون على اوفر الغنائم واثرة البغضاء بغضاء الذين حل الاملاق بساحتهم وعضتهم البأسا بانيابها الحادة .

وبين هذين المذهبين الاقتصاديين اللذين يتجاذبان العالم برمته ليزجا به في اتون حرب ضروس لا تبقي ولا تـذر يقوم مذهب امثل او طريق اسلم عاقبة وهو الحد الوسط بـين الرجعى والثورة لانه يناهض جموح النظام الاقتصادي الحر ويشجب مبدأ نضال الطبقات الثوري .

ولقد دلل هذا النظام عـلى انه من خير المذاهب الانشائية اذا ما اشتدت الضائقات الاقتصادية واخذت بتلابيب البشر لانه يصف انجع العلاجات المعقولة ولا يستبق الطبيعة ليسـير بوعي وتؤدة ويحقق اوسع الاصلاحات الممكنة من دون ان يتخطى سنن الارتقاء والتطور .

واصحاب هذا المذهب لا يستندون الى احلام واهمة ولا يخدعهم سراب النظريات الغامضة ويعلمّون الناس ما يسع الناس ان ينتظروا من انسانية ثقلتّ كواهلها المعصية ولا يصدقون ان الجنة في هذه الارض ويؤمنون بقوة الخميرة الانجيلية خميرة الخلاص التي اوجدها المسيح في العالم فلا ينحازون الى اساليب المجتمع الراهنة الزائفة بل يحاولون ان يبعثوا في صدره روح العدل والمحبة فيجعلوه بذلك اشد صلاحاً لسكنى الناس .

ولست اعني بهذا المذهب الوسط الا التعاليم الاجتماعية التي اعلنتهـــا السدة الرسولية وطلبت من كل العالم ان يتمشى عليها لان موقفها قد انبثق من تعاليم الانجيل ليدعو البشر اصحاب النيات الحسنة الى السير في طريق التقدم الاجتماعي الحقيقي ويحذرهم من غشم المذهب الاقتصادي الحر المتطرف في تكالبه على المادة ليحلها في المكان الارفع ومن تطرف المذهب الاشتراكي الشيوعي الذي يريد تحطيم الماضي برمته تحطيماً لا هوادة فيه من دون ان يأخذ بعين الاعتبار مستلزمات سنن التطور .

والتعاليم الاجتماعية التي تستند الى العدل والمحبة مستمدة برمتها مـــن الخطبة على الجبل ، تلك الخطبة التي جعلت الانسان في مقامه الحقيقي .

ولقد حرصت الكنيسة الرومانية الحرص كل الحرص على ان يسير الناس المخلصون ولاسيما الكاثوليك منهم في طليعة الداعين الى انتهاج سبيل التقدم الاجتماعي الحقيقي :

« من واجب الكاثوليك ان يتخذوا المبادرة بنظر صائب وشجاعة ووفقا للتعليم الذي عرضناه في براءاتنا بمباشرتهم ضروب التقدم الاجتماعي الحقيقية وان يبدوا مدافعين صبورين ويسدوا نصائحهم للضعفاء والمحرومين فيقوموا في الطليعة بين الذين صفت نياتهم ، حرصاً على ان تسود مبادىء العدل

والحضارة المسيحية الخالدة في كل مكان وضد اعداء كل نظام
(٦ كانون الثاني ١٨٩٦)

والامر الذي لا يأتيه الباطل هو ان من انتهج هذه الاشتراكية المتزنة لا بد له من ان يتعطش تعطشاً صحيحاً ليفكر على شاكلة امبير « Ampère » الذي كان يقول : « لو فزت بكل ما ارغب فيه بهذا العالم لاكون سعيداً ، لكنت اشعر بانني ما برحت افتقر الى كل شيء : الا وهو سعادة غيري .

اجل ان سلامة المجتمع لا تستطيع ان تقوم الا على القاعدة المستمدة من المحبة التي لا تميز شخصاً عن اخر بل تعتبر جميع البشر اخواناً لا تحط جدارتهم كبشر بعضهم عن بعض .

ولئن انتقدنا الانظمة القائمة واصحاب المذاهب الاجتماعية ومعلميها فاننا لنحرص على القول باننا لم ننتقد الاشخاص ولم نشاء ان نحط من شأنهم بل اردنا ان نبين ما في الاساليب المتبعة وما في المبادىء القائمة من زيف والتواء اذ ليس غرضنا ان نتخذ موقف المحامي لنعدد اخطأ ارباب الاعمال والعمال ولا نحيز اصحاب النظم الاقتصادية من حر واشتراكي وغيرهما بل اردنا فقط الاشارة الى المساوي لنصف لها العلاجات الناجعة فندع بعد ذلك الحرية لكل منهم فيعود الى فحص ضميره .

ولقد كان جل عملنا قائماً على الاشارة الى العلاجات الضرورية للحالة الراهنة التي يكابد البشر مغباتها .

اجل اننا لم نفكر قط في توجيه اللوم الى الطبقات البائسة المتألمة لنجعلها مسؤولة عن الامها ولا ابتغينا تقديم خدمة لذوي القلوب المتحجرة الذين يظنون انهم غير مسؤولين عن مساعدة الفقير عندما اوضحنا اخطأهم !

ولا نخالنا نرتكب امراً اداً اذا ما اشرنا الى عـــدم مبالاة هؤلاء الراسماليين بحاجات عمالهم الادبية والى جشع ارباب الصناعة الذين رفضوا على عمالهم حقوقهم الطبيعية التي تخولهم الخروج من وضعهم الآلي البائس .

ولئن كان ثمة امر يستوجب التعجب فاعمال بعض ذوي المصانع الذين يساعدون على انتشار الرذيلة والفساد في مصانعهم مساعدة تمنع العامـــل ادخار بعض الوفر من اجرته وتقضي به الى عدم الاعتدال في سلوكه على اعتقاد منهم انه اذا ما استسلم الى اتباع ملذاته كان اسلس قياداً لهم وبات تحت سيطرتهم المطلقة فلا يخالف لهم امراً !

ومما قاله الاديب الكبير فيلرمة « Villermé » في هذا الصدد : « اما الذي نسينا الاشارة اليه الآن فليست اخطأ الرجال الشخصية التي لا تقوى على شيء حيالها بل عجز الانظمة عن صيانة الاخلاق وعن منـــع تسري الفساد تسرياً مفضياً الى افقار الطبقات العاملة ، ووقوف السلطات العامة مكتوفة الايدي تقريباً فلا تقدم على تعليم العمال او بالاحرى لا تقـــدم على اغنائهم » « Ozanam, Mélanges, T. I. p. 250 » .

ولئن ذكرنا في هذا الباب امراً جديراً بلفت النظر فلا مندوحة لنا عن الاشارة الى مـــا جاء في خطاب فرانسوا سان مور François Saint-Maure الذي القاه بمجلس شيوخ فرنسا في السادس عشر من حزيران سنة ١٩٣٦ :

« هناك رأسمالية لا بد لنا من شجبها وهي الرأسمالية المغفلة الطفيلية المضاربة التي لا تأخذ بعين الاعتبار الا ميزانيتها فقط ولا تنظر الى وظيفة العامل الا بمثابة رقم على حين ان وراء هذه الوظائف رجالا يشقون ويجاهدون في سبيل اعاشة عيالهم بواسطة ما يتناولونه من اجرة هي غالباً موزعة بكل شح عليهم .

فان الرأسمالية التي تستولي عليها الاوليغارشية لكي لا تكون مسؤولة هي الشكل الاقتصادي اللا انساني ، واعني بذلك انها الرأسمالية التي لا تهتم اهتماماً كافياً بالانسان ...

وهناك رأسمالية اخرى هـــي الرأسمالية الصحيحة الشريفة المنتجة اي رأسمالية الرجل الذي يعمل بموارده او بالموارد التي عهد بها اليه الذين اولوه ثقتهم ويجد وينتج لا في سبيل نفسه فقط ولكن في سبيل جميع الذين يوازرونه مـن العمال ويشركهم بانتاجه ...

فالرأسمالية الاولى هي التي اطلقوا عليهـــا اليوم الاسم العلمي « فيرم » اى صندوق الاستغلال والثانية هي التي يسمونها رأسمالية « صاحب العمل» (Patron)

والامر الراهن الاكيد هو ان اباحة المنافسة وفتح باب التزاحم على مصراعيه قد افضى الى انكماش الصناعة عن التوسيع على عمالها ، توسيعا تقضي به الاوضاع الحيوية المعاشية .

وحيال هذه المصاعب التي حتمتها الانظمة الاقتصادية العالمية القائمة كان لا بد للاجتماعية الرومانية من ان تستمد من تعاليم الانجيل الحلول الصحيحة التي تحفظ للانسان كرامته وتؤمن له حقوقه الطبيعية ، تأميناً لو اطلع عليه الكثيرون من معتنقي المبادىء الثورية لرجعوا عن اعتقادهم ولا عترتهم الدهشة عندما يرون في البراءات الرسولية العلاجات التي يبحثون عنها لدى المفكرين البعيدين عن الواقع .

وحسبنا في هذا الباب الاشارة الى الاصلاحات الجوهرية التي تبنتها الحكومات الراقية وقد استمدتها من التعليم الاجتماعي الذي نادت به الكنيسة الرومانية :

وبفضل تبني الحكومة البورتغالية مثلاً نظاماً اقتصاديا ينطبق بحذافيره على ما اعلنته البراءات الاجتماعية الرسولية تمكنت من ان تجنب بلادها ويلات حربين .

وبفضل تبني الدولة الارجنتينية انظمة العمل التي اوضحتها براءات الاحبار الرومانيين استطاع الجنرال بيرون ان يؤمن رفاهية عمال بلاده وان يجعل انسجاماً بين الانتاج والاستهلاك :

وهاك اهم النقاط التي جاءت في شرعة حقوق العامل الارجنتيني وكلها لا تختلف في شيء عما حددته التعاليم الاجتماعية الكاثوليكية .

١ - العمل الذريعة التي لا بد منها لتامين الضرورات الروحية والمادية للفرد والجماعة فعلى المجتمع ان يحفظ حق العمل ويؤمن لكل ذي عوز عملاً .

٢ - اجرة العامل ينبغي تسد حاجاته المعنوية والمادية بالتناسب مع انتاجه وجهده .

٣ - اقل ما ينبغي للعمال ان يفوزوا به هو مأواهم وغذاؤهم الكافي مع عيالهم من دون عناء ... الخ

والمبادىء التي اعلنها البابا لاون الثالث عشر في براءته (Rerum Novarum) هي المبادىء التي تبنتها الدول التي وقعت معاهدة الصلح الاولى سنة ١٩١٩ .

كاحترام الشخص الانساني ، والحق في المشاركة ، والاجرة العدل وساعات العمل الثاني ، وعطلة يوم الاحد وعمل الاطفال ، واقرار التفتيش على العمل .

وها هي ذي الولايات المتحدة الاميركية ذات اكبر صناعة عالمية قد اقرت في شرعتها حقوق العامل بالاستناد الى التعاليم الاجتماعية التي حددتها البراءات الرسولية :

والدولة البريطانية في انتهاجها طريقة ارغام المعامل على دفع المعاشات التقاعدية لعمالها وتأميم المعالجات الطبية ... الخ لم تخرج عن تبني التعاليم التي ما فتىء الاحبار الرومانيون يواصلون الدعوة لها .

وعلى شاكلة جميع الدول العظمى كانت الامة الفرنسية في طليعة الامم

التي عملت على اقرار تشريع الانصاف الاجتماعي .

ولا بد لنا في هذا الصدد من التمييز بين الذين انخدعوا بالظواهر البراقة وهم من ذوي النيات الحسنة وبين الضلال نفسه ، فقد اتفق لي شخصياً ان قابلت كاهناً القى رياضة روحية في احدى القرى اللبنانية ابناؤها جميعاً من معتنقي المذهب الشيوعي ، فتناول في عظاته الشؤون الاجتماعية وكان اذا ما خرج من الكنيسة يلتف اولئك الرجال حوله ويناقشونه اقواله حتى اذا ما فرغ من اعطاء رياضته واوضح لهم تعاليم الكنيسة الاجتماعية الداعية الى اشراك العامل برأس مال صاحب العمل اقلع منهم تسعون بالمئة عن اعتقاداتهم السابقة .

اجل ان رئيس الكنيسة الرومانية ليس ذلك الرجل الذي اعتصم ببرجه العاجي في الفاتيكان لينصرف الى الصلاة واهداء بركتة الرسولية للحجاج ولا هو ذلك الفيلسوف الذي يعيش في عزلة عن العالم ليعلن من وقت الى آخر مبادىء اخلاقية غامضة لا تأثير مباشر لها على منازعات البشر الاجتماعية فهو بصفة كونه رئيساً روحياً يعيش في قلب الحياة العصرية ويشعر شعوراً قوياً بما ينتاب عالمنا الحالي من غصص . ليشرف من عل وبتجرد تام وبعطف ابوي على اوصاب البشر ويضع لهم حلولاً لمعضلاتهم رائدها الخير العام .

وفي هذا الصدد قال الاسقف جرمان Germain : « لم يشاء البابا لاون الثالث عشر العظيم ان يقبع الدين في معبد مغلق من دون نظر او عمل : فقد ايدّ حق الكنيسة بالتدخل في النزاع بين رأس المال والعمل : اي القضية الادبية او « الدينية » . والذي ينعم النظر في براءة البابا بيوس الحادي عشر Quadragesimo Anno يرى فيه رجل العصر الذي يلم اكثر من اي انسان اخر كان بالقضية الاجتماعية القائمة ليعالجها بوضوح وبنظر صاقب ويصف لها انجع العلاجات واضمنها واجداها وكلها علاجات تشكل

الاركان الاساسية في البنيان الاجتماعي .

وهاك ما كتبته مجلة بوبولاير Populaire في عددها للخامس من شهر تشرين الاول سنة ١٩٣١ : « ان الحبر الاعظم لا يغيب عنه شيء من تطورات العالم الحالي فهو ادرى الناس بالشكل الاجتماعي الـذي شيده المجتمع الراسمالي .

وجـاء في البراءة « Divini Redemptoris » : « في سبيل اقرار السلام العالمي الذي اوجدنا خطوطه الكبرى باستخدام العلاجات التي وصفناها باختصار ان المسؤولين هم الكهنة والرسل والعملة الانجيليون الذين عينهم السيد المسيح . وبالدرجة الاولى الكهنة ... فنحن نذكّر بصورة خاصة بالتحضيض الذي حضه سلفنا وردده غالباً البابا لاون الثالث عشر بالذهاب الى العامل فنحن نتبنى هذا التحضيض ونتمه : « اذهبوا الى العامل وبخاصة الى العامل الفقير او الى الفقير متبعين في ذلك تعليم المسيح والكنيسة . فالفقراء هم اشد الناس عرضة للوقوع في فخاخ مثيري الاضطراب ليستغلوا اوضاعهم البائسة ويحملوهم على ان يستولوا بالقوة على ما يظنون ان القدر قد اباه ظلماً عليهم » .

ولقد بلغ اهتمام الكنيسة لامر العمال والترويح عنهم مبلغاً حملها عـلى ايجاد مرسلين خاصين للعمل انتشروا في كثير من الرعايا الاوربية وعفتهم من مهماتهم الوعائية ليقفوا النفس على الاهتمام للامور الاجتماعية ويتثقفوا ثقافة تنطبق على اختصاصهم هذا :

« لا يستطيع المجمع المقدس الا امتداح اساقفة المنطقـة الشمالية لانهـم عهدوا الى كهنة اكفاء غيورين امر مساعدة قادة النقابات واعضائها روحياً في الشؤون التي تشتمل على المبادىء الاخلاقية :

وهو يودّ ان يعين الاساقفة من المناطق الاخرى كهنة « مرسلي عمل »

يوقون الشعوب من الاستسلام الى التهامل ومن مضار الخطر الاشتراكي الشيوعي وذلك تدليلا على ما تكنه الكنيسة من عطف على ما يحف بالعمال من آلام [١] .

ومنذ اكثر من قرن اي في سنة ١٨٣٢ لفت اوزنام « OZANAM» النظر الى هذا الامر اذ قال :

« من واجب المؤمنين ان يستشعروا المعنى الاجتماعي فلا يقبعوا في مفاهيمهم الانانية سواء أكان ذلك من حيث الدين ام من حيث المجتمع .

وقال الاسقف جيبيه « Gibier » « باستطاعتنا ان يكون لدينا مفهوم مزدوج للانسان : المفهوم الفردي والمفهوم التضامني :

هذا رجل فقير يعيش معيشة اشبه بالبؤس منها بالحياة وهو بحاجة ماسة الى المساعدة فاذا ما استوحيت المفهوم الفردي فانا اكتفي بان اقدم له الخبز واللباس والمسكن واذا ما استندت الى المفهوم التضامني فاعمد الى انعاش محيطه العيلي والمهني واحاول ان اجعل عمله دائماً واجرته مرتفعة واساعده على الخروج من مأزق فقره وعلى ان يتحسن وضعه وذلك من جراء نفوذي في المجتمع الذي هو احد اعضائه .

والذي يستوجبه منا الصدق هو الاعتراف بان ثمة كثيرين ولاسيما في بلادنا ممن لم يقوموا باداء واجبهم بعد ليقبعوا في مسيحية سطحية انكماشية شعائرية .

ولقد اتفق في بعض الاوساط ان قلب بعضهم شفتيه لهذا التعليم الاجتماعي وناهضوا الذين جرأوا على المجاهرة به وشنوها عليهم حربا شعواء مما حمل البابا على توجيه لومه العنيف اليهم .

1) Lettre de la Sacrée Congrégation du Concile au Cardinal Liénart 3 juin 1929.

« ... نحن نتوجه خاصة اليكم يا ارباب الاعمال واولي الصناعة ذوي المهمة الصعبة غالباً لانكم تحملون ارث اوزار نظام اقتصادي ثقيل كانت له مضاره عبر اجيال عدة : ففكروا في مسؤولياتكم ».

ومن نكد الحظ : ان بعض الاوساط الكاثوليكية قد ساهمت حقاً في زعزعة ثقة العمال بدين يسوع المسيح لانهم لم يريدوا الفهم ان المحبة المسيحية تقتضيهم الاعتراف ببعض حقوق العامل مع ان الكنيسة قد اعترفت لهم بها صراحة .

« وماذا ينبغي لنا ان نفكر في مناورات بعض ارباب العمل الكاثوليكيين الذين نجحوا ببعض الاماكن لمنع قراءة براءتنا « Quadra-gesimo Anno » في كنائسهم الرعائية ؟

وما القول في اولئك الصناعيين الكاثوليكيين الذين ما فتئوا حتى الان يبدون عداءهم لحركة عمالية قد اوصينا بها نحن ؟

ان الباعث على الاسى هو اساءتهم احيانا استخدام حق الملكية الذي اعترفت به الكنيسة لكي يحرموا العامل اجرته العدل والحقوق العائدة اليه (بيوس الحادي عشر) (Divini Redemptoris N. 50).

فهل يغيب عنا بعد مبلغ الالم الذي حزّ قلب البابا ليبعث ببراءة رسمية يشجب فيها مواقف بعض ابنائه ؟

ولقد حث بدعوة الجميع على مضاعفة الجد في العمل الكاثوليكي هذا بالمستقبل في براءته « Divini Redemptoris ».

« بعد ندائنا هذا للاكليركيين نوجه دعوتنا الى اولادنا الاعزاء العلمانيين الجاهدين في صفوف هذا العمل الكاثوليكي الغالي علينا جداً والذي دعوناه في غير موضع « مساعدة العناية الخاصة » لعمل الكنيسة في هذه الظروف

العصبية .

ان العمل الكاثوليكي هو رسالة اجتماعية ايضاً لانـــه يرمي الى نشر ملكوت يسوع المسيح ليس بين الافراد فقط بل في العيال والمجتمع ، وعليه ان يعنى اولا وخاصة بتثقيف اعضائه واعدادهم لمعارك السيد المسيح المقدسة ويستخدم في سبيل هذا التثقيف الضروري الملح اكثر من اي وقت كان ليوثر مباشرة تأثيراً فعالا ،اندية دراسات الاسبوع الاجتماعي والقـاء المحاضرات المنظمة واستخدام كل المشروعات المشابهة التي من شأنها تعريف الحل المسيحي للمعضلات الاجتماعية .

« ان جميع مجاهدي العمل الكاثوليكي الذين تأهبوا وتدربوا على هـــذه الصورة تأهباً حسناً سيكونون من الرسل الاولـــين بين رفاقهم في العمل ويصبحون خير معوان للكاهن في حمـــل نبراس الحقيقة ليخففوا ضروب البؤس المادية والروحية في مناطق عدة تشربت افكاراً خاطئة ضد الاكليريكيين واعتورها خمول باعث على الغم جعلها تنحرف عن عمل خـدم الله فالتآزر على هذه الصورة برعاية كهنة مجربين تجريباً خصوصياً بهذه المساعدة الدينية للطبقة العاملة الغالية على قلبنا هو بمثابة وسيلة من انجع الوسائل لوقايـــة هؤلاء الابناء المحبوبين من فخاخ الشيوعية .

« وما عدا هذه الرسالة الفردية الخفية غالباً ثمة دور العمل الكاثوليكي المفيد كل الفائدة والشديد الفعالية في نشر المبادىء المنبعثة مـــن البراءات الحـــبرية انتشاراً واسعاً بواسطة الكلام او القلم لتستخدم في سبيل انشاء نظام اجتماعي مسيحي فنحن الآن في ثنية من اعظم ثنيات التاريخ خطورة . اذ هناك ضرب من الرأسمالية قد افلس ولسنا نحن الكاثوليكيين ممـــن يبكون عليه بعد ان جعلت هذه الرأسمالية نفسها علمانية الى اقصى حدود العلمانية ووثنية من الوجهة الاجتماعية .

ومن المهم ان نقتنع باننا لا نقوم امام اهتزازة بسيطة من اهزازات الثقل البرلماني فنحن امام عرض مرضي - ليس الاول والوحيد - لينذرنا بتبدل واحد من تبدلات المجتمع التي نسميها باسمها : الا وهي الثورة .

افتكون هذه الثورة الطالعة ثورة سلمية ومفيدة ؟ ام على العكس عنيفة هدامة ؟ . . .

نعم من واجبي ان اقول هذا القول لانني اتوخي الصدق في اعلان الحقيقة ، لان ثمة مبادىء لا نستطيع المهادنة بامرها لانها تتصل بالحقوق المقدسة في نظرنا : حقوق الشخص الانساني والعيلة والوطن والله وهي في اعتقادنا مبادىء لا تتوائم مع النظام الاجتماعي القائم الذي بـــدأت تعتريه سمات الموت لانه تجاهل هذه المبادىء السامية وتجاوز عليها .

« فنظامنا الاجتماعي الذي يبدو لنا بمثابة معقل علينا ان نـــدافع عنه بكل مقدورنا وبعرق القربة هو نظام من سوء الحظ موسوم بالظلم والجشع ليتراآى لنا كأنه الفوضى التي لا بد لنا من اصلاحها . . . »

من خطاب القاه في الندوة النيابية الفرنسية غرانمازون « Le Cour Grandmasion » وهل نظام الرأسمال والاجور نظام الحق المطلق الذي لا يجوز مسه ؟

« ما من احد من رجال الكنيسة يدعم هذا النظام فالبديهية الاساسية هي ان الانسانية لا بد لها من ان تعيش وفي سبيل الوصول الى هذه الغاية من الواجب توزيع الثروة توزيعاً ملائماً اما تنظيم الراسمالية لتوزيع الاجور والثروة فلم يثمر ثمراً صحيحاً ولا يبدو لنا ان توزيع الشيوعية لهما سيكون افضل من توزيع الرأسمالية بل على العكس .

وما من سبب يبرر عدم ادخال تطورات على النظام الراسمالي ليجعله قائماً على خدمة الجمهور امـــا الراسمالية البسيطة التي يديرها افراد فليست

بالراسمالية التي احتفظ فيها بعضهم بامتيازات مجحفة على نفقة الضعفاء الذين سحقتهم سحقاً فالاولى بالاستطاعة الاحتفاظ بها في الاقتصاديات العالمية اما الثانية فمن الواجب ان تندثر والا اندثرت معهـــا الانسانية « ان العالم الاقتصادي الاجتماعي قد انتابه داء عضال فلا تؤدي الاشتراكية التي تزعم انها واجدة للجميع مستوى واحداً ولا الراسمالية الحرة الا الى الاجهاز عليه، ولا يستطيع اعادته الى الاستواء على محوره الا تعليم راسمالية معقول سمح عادل نزيه .

فعلى الرسمالية ان تتذكر كل طبقات المجتمع فتوزع الثروات توزيعـاً رائده الانصاف اما وظيفة الدولة فتقوم على ان تفرض ذلك فرضاً عليهـا بيد انها تظل عاجزة عن اداء هذه المهمة ما لم تضع قوانين اجتماعية تستند اليها كما تستند الرافعة الى نقطة ارتكازها في انهاض الاثقال ،

وان القرن العشرين الذي كانت الحرب مستهلة فسيصبح له ميزانه ، التي تجعل بمقدورنا التأكيد انه قرن جديد عليه ان يكون . اشد اجتماعياً واقـل صناعة والا غدا قرناً ثورياً شيوعياً « Le Cardinal Villeneuve, archevèque de Quebec Conférence à la Chambre de Commerce de Quebec. »

ولقد اصبح من الواجب ان يفكر ذوو للنيات الحسنة تفكيراً جدياً في امر جبه المستقبل وفي النظام الجديد الذي يتوخى الانصاف الاجتماعي ليقيم اركانه على الجدارة الانسانية واسسه على قواعد العدل السامبـة التي اعلنها الانجيل لان مفهوم الحياة الموضوعي هو مفهوم ادبي يشتمل على كل واقعها وعلى نشاط الانسانية فلا يقوى اي عمل كان على التملص مـــن الاذعان للقواعد الاخلاقية ولا يستطيع نظام من الانظمة حرمان الامـة قيمتها بالنسبة الى وظائفها كغايات ادبية ، لان للحياة التي لا بد من قضائها في عالم يرتكز على نواميس الروح الادبية غاية دينية خطيرة ،

ومن المستحيل ان نعتبر الانسان من دون النظر الى الناموس الاسمى وارتباطه به بارادته الموضوعية التي تسمو بالفرد وترفعه الى مقـــام عضو شاعر من اعضاء مجتمع فكري .

اما من حيث المفهوم التاريخي الذي لا يكون الانسان بموجبه غير ما هو عليه بالنظر الى الجهاز الروحي الذي يساهم فيه اجتماعياً كالعيلة والامة فانه لمشترك من هـذه الناحية مع جميع افراد الامم الاخرى ومـن ذلك كانت القيمة الرفيعة للتقاليد في الذاكرات واللغة والاخلاق ونواميس الحياة الاجتماعية فاذا ما تجرد الانسان عن التاريخ بات امراً غير مذكور لانه من المستحيل الركون الى الوعود الخلابة الواهمة المستندة الى الانانية الغاشمة والقائمة على اساس مادي محض .

وانه لمن المستحيل الاعتقاد ان السعادة بوسعها ان تكون في هذه الارض كما تزعم نظريات القرن الثامن عشر الاقتصادية كما انه من المستحيل التسليم بالمفاهيم التي لم يحققها الاختبار والقائلة لا بد للانسانية من ان تبلغ كمالها ، لان مثل هذه التعاليم لعلى طرفي نقيض مع التاريخ ولان الحياة هي حركة مستمرة الى الامام .

اجل من الواجب ايجاد تعليم واقعي يحل عملياً المعضلات التي يفرضها التاريخ وقد اوجد الانجيل لها حلولها منذ البدء فلذلك ولجت الكنيسة البيوت من ابوابها في اتباع مجرى الوقائع لتجعل النفس تسيطرة عـلى القوى العاملة .

وفي سبيل التدليل على سرعة تطور الشؤون الاقتصادية التي يـكابد العمال مرير مغباتها لا ارى لي مندوحة عن الالماع الى ذلـك الاستشهاد الذي اورده المحامي فيكتور ديليجان «Victor DILIGENT» في محاضرتـه التي القاها في ندوة الاسبوع الاجتماعي عام ١٩٢٥ قال :

«لقد زارني منذ بضعة اسابيع رجل من كبار الاثرياء البورجوازيين اذا كانت الالسنة تلغط باقتراب الامسية العظمى لغطاً قوياً وكانت تبدو عليه سمات الاضطراب وقال لي :

– لقد جئتك يا سيدي لتسديني نصائحك لاكتب وصيتي .

فأجبته .

.. اراك ممتلىء الصحة يا سيدي امـــا كتابة وصيتك فمن اختصاص الكتاب العدل اكثر مما هو من اختصاص المحامين ومع ذلك فأنا مستعد لخدمتك فقال لي :

– اعرني انتباهك برمته : لقد حانت ساعة الامسية العظمى فأنا عـــلى يقين بانني سأموت رمياً بالرصاص بصفة كوني بورجوازياً لذلك اود أن أؤمن مستقبل ابنائي » فأجبته :

– من العبث يا مولاي اتخاذك هذا الاحتياط فالثورة اذا ما نشبت لن تبقى عليك ولا على اولادك وانما أرجوك قبل ان تكتب وصيتك ان تقوم بتحقيق لترى اذا كانت الثورة قريبة النشوب حقاً او لا ؟ فهـل عرفت المحيط العمالي ؟ فاذهب اليه اولا وبعدها عد الي وحدثني عنه . . .

واذ رأيته في اليوم التالي قال لي :

– حقاً انه لوضع باعث على الهول !

– أي هول هذا ؟ أهي الثورة ؟

– كلا ، انه مسكن العامل في مدننا الكبرى ، وتصوّر ان عيني رأت بيوتاً حقيرة لا يدخلها الهواء ولا النور وقـــد فقد الذين يسكنونها كل الشروط الضرورية للصحة والاخـلاق حتى قلت في نفسي كيف لا يصير

هؤلاء البؤساء من البلاشفة؟ ولم أدرك لماذا أغفل مجتمعنا هذا المسكين الشعبي كل الاهمال .

وصادفته في اليوم الثالث ايضاً فاردف قائلاً :

— لقد واصلت يا سيدي القيام ببحثي : اجل انه لباعث على الهول ما شهدته : فقد رأيت رجالاً طاعنين في السن اصبحوا كلاً على عاتق ابنائهم العاجزين عن اعالتهم لأن الغلاء فاحش وهم بعد ان اشتغلوا طوال حياتهم وربوا عيالاً كثيرة لا يقوون على ايجاد فسحة بين آجالهم وايامهم التي قضوها في العمل .

نعم نعم لقد بدأت الحماسة الثورية تتأجج نارها بين اضالعي .

وما هي الا بضعة ايام اخرى وتمرّ حتى صادفته ايضاً فقال لي :

— لقد رأيت بام عيني عمالاً يعيشون عيشة الرقيق الحقيقية ورأيتهم يعرضون عليهم مقاولات للاتفاق على العمل وهم لا يجراؤن ان يناقشوا ارباب العمل في الشروط التي يفرضونها عليهم ، فأجبته :

— ها أنت تكتشف الان امراً جديداً في باب الشؤون الاجتماعية فكمل اكتشافاتك .

واننا لنغبط النفس الاغتباط كله لو كانت بضع صفحات من هذا النوع تمكن ذووي النيات الحسنة من اكتشاف ما اكتشفه ذلك الثري ،

ولئن شئت الجهر بالوقائع كما هي فلن ارى لي مندوحة من القول بان التسعين في المئة من بين مقاولات العمال في بلادنا الشرقية تنعقد على مثل هذه الصورة من دون مراعاة ضرورات العامل الحيوية التي ينبغي ان تسدها اجوره كما حددتها البراءات الرسولية : « ان تقوم باوده واود ذويه لتمكنه

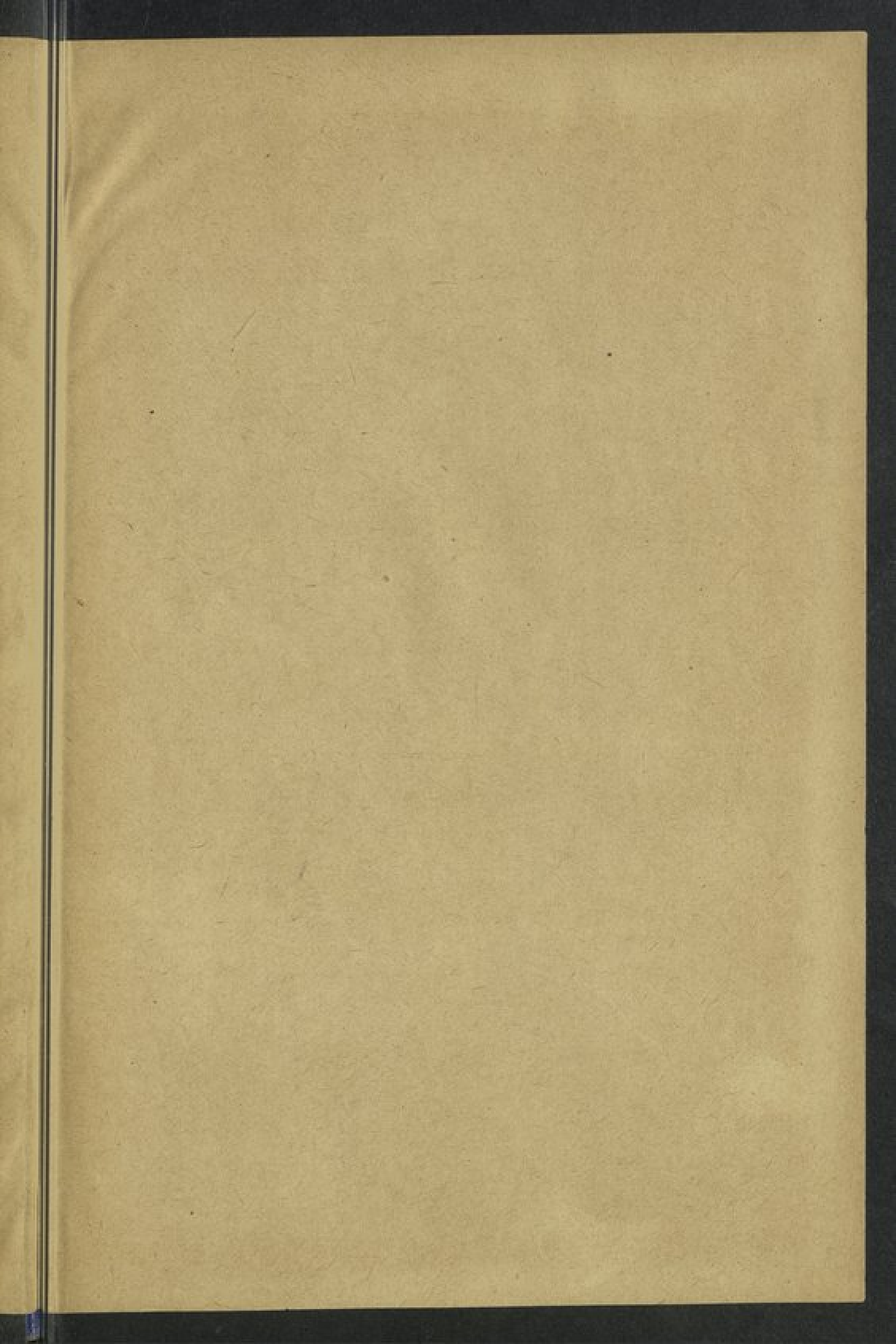
من ان يعيش عيشة لائقة » .

اما اذا نظرنا الى اعمال الاحسان التي يتولى القيام بها الخاصة فانها لن تؤدي الى تعميم الفائدة : فالتطبيب المجاني الذي عينت المستشفيات الخصوصية بعض ساعات له والتعليم المجاني الذي لا يشتمل على كل درجاته ودور الحضانة الخاصة التي تبذل بعض المساعدات والمآوي الخاصة ايضاً التي تلجيء اليها فئة من العجزة والشيوخ الطاعنين بالسن لن تحول دون قيام الضائقات الاقتصادية وانتشار البأسأ ، ولا سيما في اصقاعنا الشرقية التي تمركز فيها رأس المال في ايدي افراد قلائل تمركزاً لم ينجم معظمه الا عن اساليب ملتوية وطرق غير مشروعة حتى باتت شعوبنا في هذه البقعة المنشطرة الى فئتين فئة الاقلية الضئيلة التي تستولي على كل الموارد والمرافق وفئة الاكثرية العظمى التي باتت فريسة الاملاق والبؤس .

بله انه الواجب والواجب الملح الذي يدعونا ولاسيا في هذه البلاد التي لم تستشعر بعد معنى الانصاف الاجتماعي والعدل الصحيح الى تبني القواعد السامية التي تؤمن للانسان حقوقه الطبيعية والتي لا يستطيع احد مهما علت منزلته - ان يحرمه اياها - فالمأكل والمشرب واللباس والمسكن هي اولى حقوق الفرد الطبيعية فلماذا يتغاضى المنعمون كما - يزعمون - عنها وهم لم يحققوا ما حققوه من اثراء الا من وراء المجموع .

فرغ من طبعه في العشرين من ايار سنة ١٩٥٣

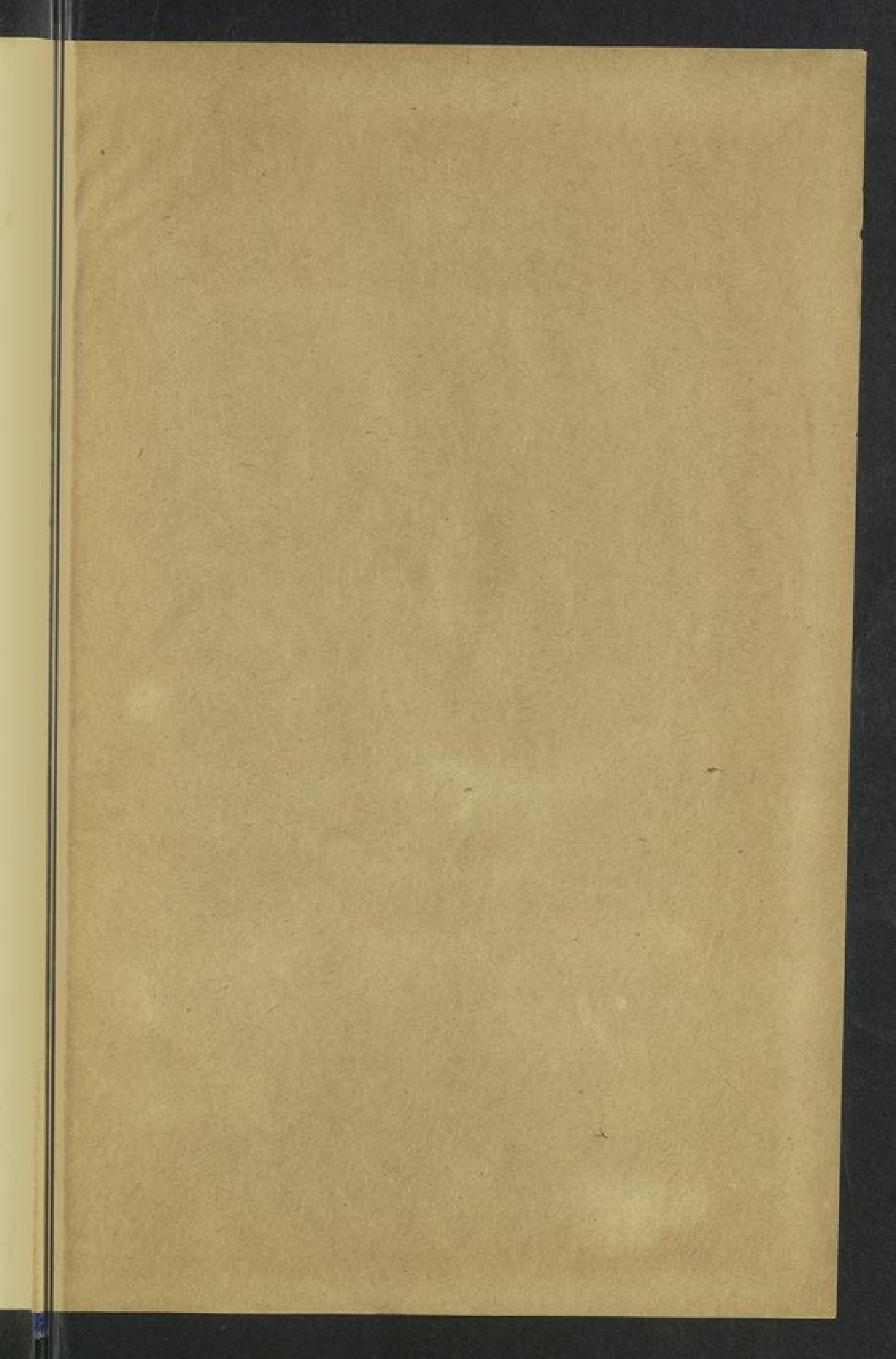


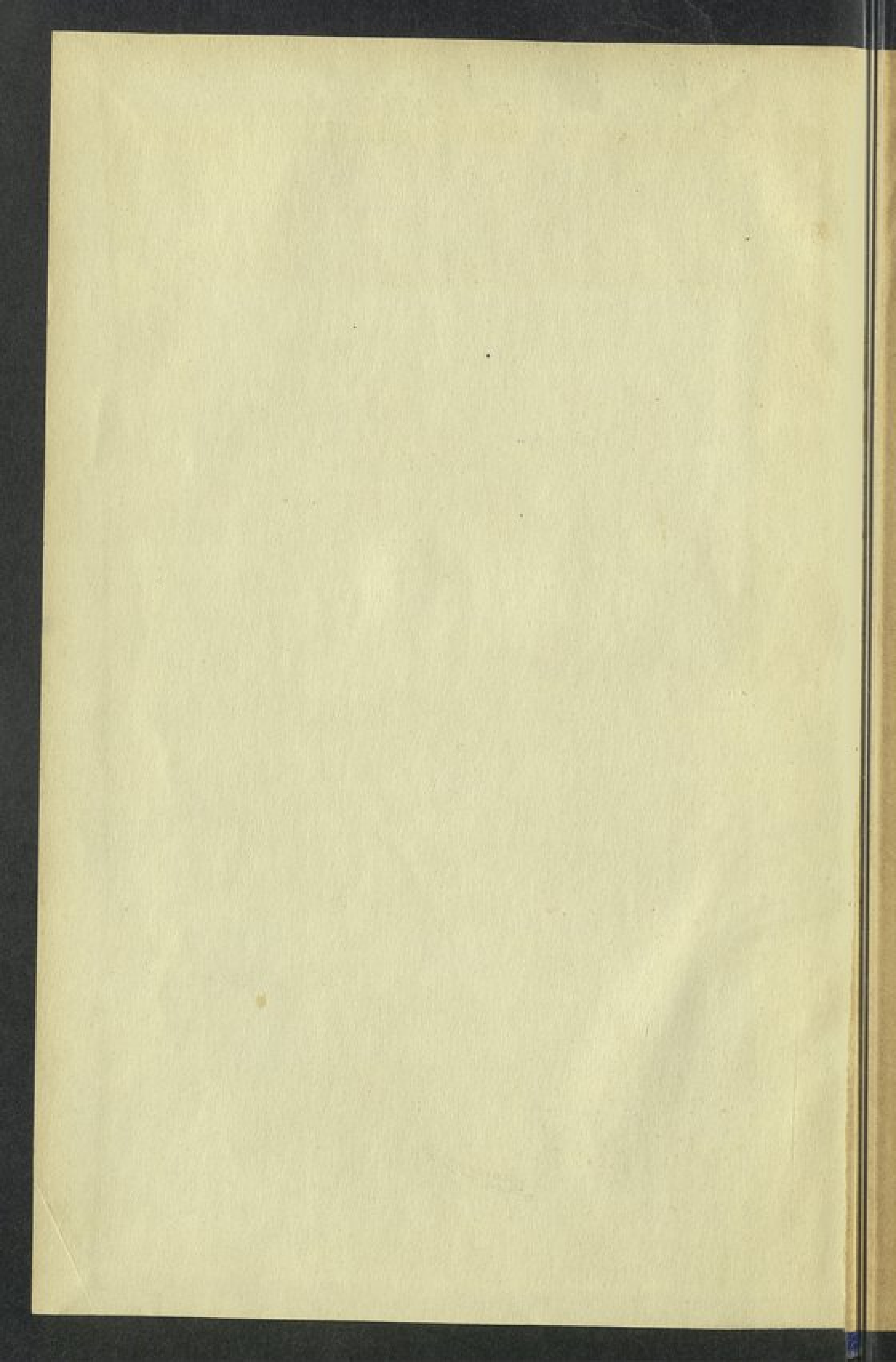


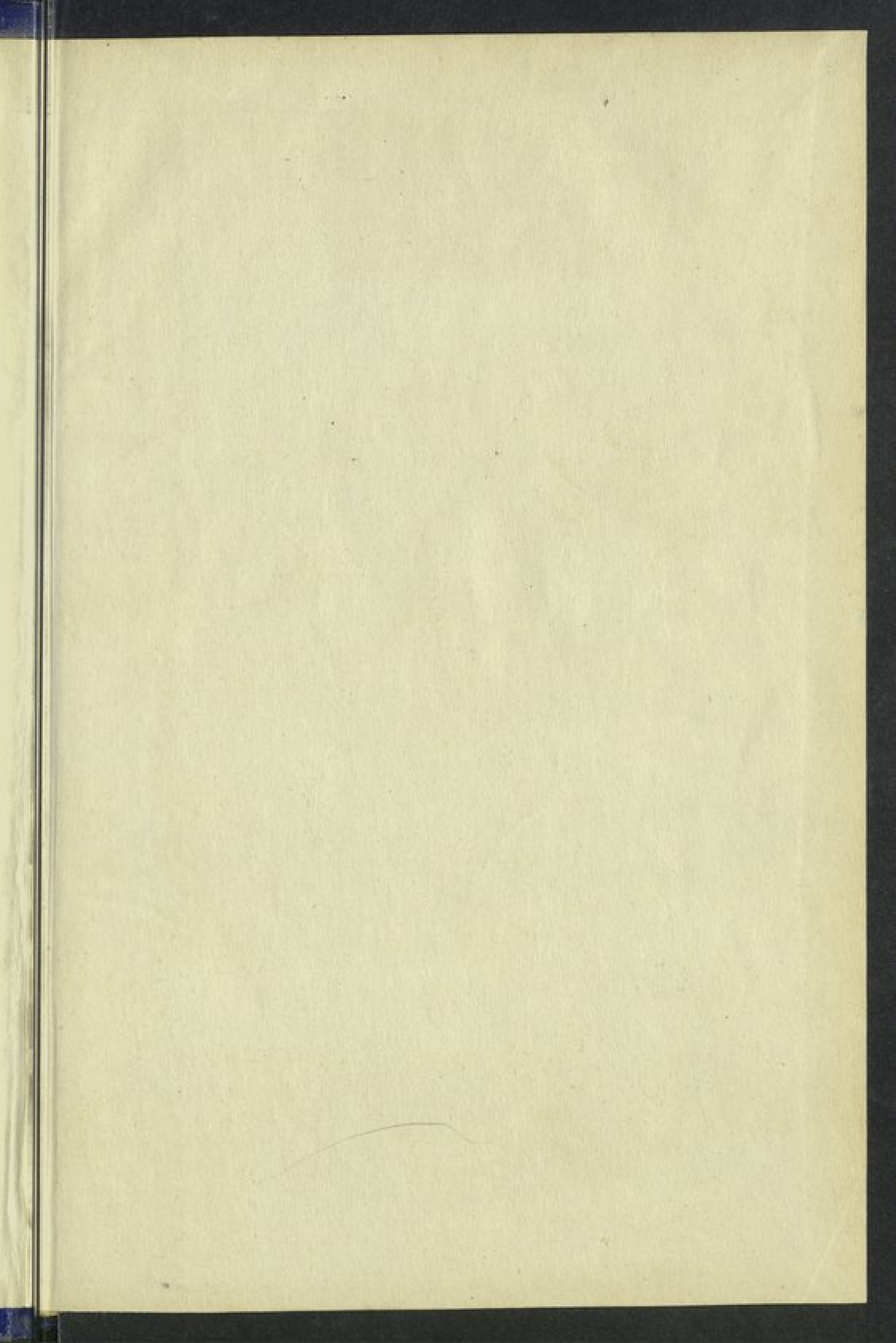
فهرست الكتاب

صفحة

انتظروا قريباً الملحق لهذا الكتاب








AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت